# الكون

## في القرآن الكريم

### دراسة مقارنة

الدكتور إسماعيل محمد قرني

مكتبة غريب طوس

دار دجلة ناشرون وموزعون

# الكون في القرآن الكريم

## دراســـة مقــارنـــــة

# الكون في القرآن الكريم

# دراسة مقارنه

# الإهـداء

**إلــى:**

معلمنا الأول رسول الله محمد بن عبد الله صلاة ودعاء

**والدي الكريمين وأقول:**

**(رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً).**

أساتذتي الذين نهلت منهم معرفتي.

زوجتي التي تحملت عني مشاق الحياة.

إخواني وأخواتي وأطفالي.

كل من يتحرى

الحقيقة ويدافع عنها

بِسْمِ ٱللّهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ

(أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ∃ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ∃ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ).

سورة الأنبياء [30-23]

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ ∃ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ∃ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ∃ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ).

سورة فصلت [12-9]

# شكر وتقدير

إن من الواجب علي أن أقول في أستاذي الفاضل كلمة حق لا لأنه صار مشرفا علي بل لأنه ينفع المسلمين جميعا، وأرجوا أن يسمح لي أن أقول فيه: إن كل ما يخالجني من شعور جميل، وكل ما أملك من شكر وثناء أتقدم به إلى أستاذي الفاضل نظام الدين عبد الحميد، فصار لعمري اسما على مسمى، لقد وجدت فيه تواضع العلماء وبراعة الحكماء وفضل الكرماء، وقد أنفق وقته الثمين في متابعة هذا البحث خطوة خطوة ووهبه جل اهتمامه، وشاطر في الجهد بما آتاه الله من فكر ثاقب و رأي سديد، فحياة الله تعالى رائدا من رواد العلم وإن يمد في عمره في مواصلة العطاء في هذا الميدان.

كما أجد نفسي ملزما بالإعراب عن الشكر والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور محسن عبد الحميد الذي شجعني على اختيار هذا الموضوع وإفادتي بمعلومات قيمة.

وأسجل شكري وامتناني للدكتور سعدون محمود الساموك الذي قرأ موضوع الكون في التوراة وأفادني بملاحظات قيمة، كما أتوجه بشكري الجزيل إلى أخي عمر عبد الله محمد والأخ رفيق مجيد عبد الله لقراءتهما فصول الرسالة وتصحيحهما لغويا.

وأتقدم بشكري إلى أسرة مكتبة الكلية والمكتبة القادرية والمكتبة المركزية وكل الأخوة الذين سهلوا لي مهمة البحث عن المصادر وساعدوني بمراجع قيمة .

وأشكر الأم التي ترعى أبنائها بإخلاص أم غادة.

وأتقدم بشكري وتقديري لأساتذتي الذي سيتفضلون بإبداء توجيهاتهم القيمة إغناء لهذه الرسالة والتي أمل أن أفيد منها في إظهار هذا العمل في صورته المبتغاة خدمة للهدف المرسوم والحمد لله الذي سهل لنا طريق البحث وخدمة العلم والدين، وأرجوا أن ينفعنا به آمين.

**الباحث**

# المحتويات


مقدمة البحث............1
معنى الكون:............3
الكون في الاصطلاح:............3
أهمية البحث:............7
هدف البحث:............10
خطة البحث:............10
الباب التمهيدي............14
الكون في الحضارة القديمة............14
الفصل الأول............16
نظرة المصريين القدامى إلى الكون............16
نظرة المصريين القدامى إلى الكون............18
بدء خلق الكون:............20
هل عرف المصريون القدامى عقيدة التوحيد؟............22
الفصل الثاني............24
الكون في منظور سكان وادي الرافدين............24
الكون في منظور سكان وادي الرافدين............26
خلق الإنسان:............30
الفصل الثالث............33
الكون في منظور اليونانيين............33
الكون في منظور اليونانيين............35
أصل الكون عندهم:............35
صورة الكون عند اليونان:............39
الفصل الرابع............41
الكون في منظور الحضارة الفارسية............41
الكون في منظور الحضارة الفارسية............43
الفصل الخامس............47
النظام الذي بنى على تلك الأفكار............47
النظام الذي بني على تلك الافكار............49
الفصل السادس............54
الكون في التوراة والإنجيل............54
الكون في التوارة والإنجيل............56
أولاً: الكون في التوراة:............56
نصوص التوراة حول خلق الكون:............59
استنتاج:............64
ثانياً: الكون في الإنجيل:............65
الفصل السابع............67
خالق الكون في التوراة............67
خالق الكون في التوراة............69

الباب الأول........................................................................................74
الكون المنظور في القرآن الكريم ..................................................................74
الفصل الأول ........................................................................................77
بداية الكون ........................................................................................77
بداية الكون ........................................................................................79
المسألة الأولى: مراحل خلق الكون:..................................................................84
المسألة الثانية: عدد السموات والأرض:...............................................................87
الفصل الثاني........................................................................................93
غاية القرآن من ذكر بعض مظاهر ...................................................................93
المبحث الأول ........................................................................................95
الغاية التي ذكرها القرآن ............................................................................95
المبحث الثاني ......................................................................................100
وحده نظام الكون وربط الإنسان به....................................................................100
المبحث الثالث......................................................................................103
دلالة الكون على الخالق.............................................................................103
الفصل الثالث.......................................................................................107
نهاية الكون .......................................................................................107
نهاية الكون .......................................................................................109
بعض الأمثلة على نهاية الكون في القرآن الكريم: .......................................................115
الفصل الرابع.......................................................................................120
نظـرة القـرآن إلى الكـون ...........................................................................120
المبحث الأول .......................................................................................122
مخلـوقية الكـــون ....................................................................................122
المبحث الثاني ......................................................................................125
نشوء الحياة في الكون ...............................................................................125
المطلب الأول .......................................................................................125
إعداد الأرض للحياة..................................................................................125
المطلب الثاني ......................................................................................131
الحياة على الكواكب الأخرى...........................................................................131
الفصل الخامس .......................................................................................138
خالق الكون في القرآن الكريم .........................................................................138
خالق الكون في القرآن الكريم .........................................................................140
الفصل السادس.......................................................................................147
وصف الكون في القرآن الكريم .........................................................................147
وصف الكون في القرآن الكريم .........................................................................149
الفصل السابع........................................................................................155
الحضارة الناشئة من القرآن الكريم......................................................................155
الحضارة الناشئة من القرآن الكريم......................................................................157
الفصل الثامن........................................................................................166

المقارنة بين ........................................................................................166
حضارة القرآن والحضارات القديمة..........................................................166
المقارنة بين ........................................................................................168
حضارة القرآن والحضارات القديمة..........................................................168
الباب الثاني..........................................................................................177
الكون في منظور الحضارة الحديثة ..........................................................177
الفصل الأول ........................................................................................180
الكون والمصادفة...................................................................................180
الكون والمصادفة...................................................................................182
المبحث الأول .......................................................................................183
قانون المصادفة والكون ...........................................................................183
المبحث الثاني .......................................................................................187
التولـــد الذاتـــي()...................................................................................187
المبحث الثالث.......................................................................................190
هبوط الحياة على الكواكب الأخرى ..........................................................190
الفصل الثاني .......................................................................................193
نظرة الماديين إلى الكون .........................................................................193
نظرة الماديين إلى الكون .........................................................................195
أزلية المادة: .........................................................................................197
وجهة الماديين الديالكتيكية .......................................................................198
تفاعل السبب والنتيجة.............................................................................206
شهادة العلماء بزيف النظرية المادية: ........................................................210
الفصل الثالث........................................................................................212
نظرة المثاليين إلى الكون.........................................................................212
نظرة المثاليين إلى الكون.........................................................................214
أصل الكون عند المثاليين: .......................................................................216
بين المادية والمثالية:..............................................................................218
الفصل الرابع........................................................................................223
خالق الكون في الحضارة الحديثة..............................................................223
خالق الكون في الحضارة الحديثة..............................................................225
الفصل الخامس .....................................................................................230
الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار .........................................................230
الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار .........................................................232
مناقشة المعارضين.................................................................................239
الفصل السادس......................................................................................243
المقارنة بين .........................................................................................243
الحضارة الحديثة والقرآن الكريم...............................................................243
المقارنة بين .........................................................................................245
الحضارة الحديثة والقرآن الكريم...............................................................245

الخاتمة ........ 249
خلاصة البحث ........ 254
ABSTRACT ........ 256
المراجــع ........ 257
أولاً: الكتب: ........ 257
ثانياً: الـمجـلات: ........ 267

# مقدمة البحث

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آلة وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذه رسالة في موضوع الكون في القرآن الكريم الذي نسجت حوله أفكار العلماء للكشف عن أرجائه والتعرف على أسراره.

فنحن اليوم في عصر حوى المتناقضات، فكان زمانا معقدا تشابك في الإيمان والإلحاد، وانغمست البشرية في دوامة من المادية والشهوات، واتخذ العلم طريقا للمكاسب الخاصة فأصبحت في جاهلية دونها الجاهلية الأولى، وعم الفساد والظلم وفرغت قلوب الناس من الإيمان الذي هو أساس كل شيء، إذ أن كل مادة من مواد الكون إذا دقق فيها العقل السليم وبحثها بحثا وافيا وجد فيها القدرة الهائلة والتنظيم الحكيم والإبداع المدهش الذي لا يستطيع أن يحدثه مخلوق مهما كانت إمكانياته، بل إنه يقف أمام معظم ما فيها عاجزا عن فهمها حق الفهم.

وقد تسرب إلى أذهان كثير من المثقفين بأن القرآن لا يحتوي على علم بالكائنات وعناصر الكون، لذلك انصرف جمهور المتعلمين من المسلمين عن مطالعة كتابهم العزيز وعن التدبر فيه لأنه في ظنهم ليس فيه من العلم الذي تثقفوا به ما يجذبهم إليه أو يحبب إليهم البحث فيه، وكانت نتيجة لذلك تضاؤل العلم بروح القرآن وحقيقته حتى أصبح كثير منهم لا يعرف منه إلا اسمه ورسمه أو لا يفهم إلا القليل من أمره.

فوددت أن أدخل في هذه الميدان لأبرز حقيقة القرآن وآياته العلمية المتفقة مع الفطرة، وأقدم رسالة عملية على قدر فهمي في هذا الموضوع يبين فيها حديث القرآن عن آثار الله تعالى خالق كل شيء الذي هو أساس الحضارة والتقدم العلمي متوكلا على الله معتمدا على أمهات المصادر والمراجع مستسهلا الصعاب والعقبات التي لاقيتها خلال هذه الرحلة العملية مستعرضا الأفكار والنظريات المدونة حول الكون

ابتداء من الحضارات الأولى إلى عصرنا الحاضر راجياً من الله العون والتوفيق لإنجاز هذا الجهد.

# معنى الكون:

الكون لغة: مصدر مأخوذ من الفعل الثلاثي معتل الوسط وهو (كان يكون كانا) ويأتي مصدره أيضا على التكوين والكينونة [1] وجمعه أكوان، وهو بمعنى الحدث [2]، والكائنة: الحادثة، وكون الشيء أي ركبه بالتأليف بين أجزائه وكون الله الأشياء أي أخرجه من العدم إلى الوجود، ويقال كونه فتكون أي أحدثه فحدث [3]، والتكوين: هو المعنى الذي يعبر عنه بالفعل والخلق والإيحاء والأحداث والاختراع والإبداع والإنبات وهذه الألفاظ متغايرة في التركيب متحدة في المصداق [4]، ونقل المناوي [5] في كتاب (التوفيق) إن الكون اسم لما حدث دفعة كانقلاب الماء من الهواء، لأن الصورة الكلية للماء كانت بالقوة فخرجت منها إلى الفعل، وإذا كان على التدريج فحركة[6].

## الكون في الاصطلاح:

**أما تعريفه في اصطلاح أهل العلم فكثيرة نذكر بعضا منها كالآتي:**

1. قال السيد شريف الجرجاني [7] في الكون عند أهل التحقيق: (عبارة عن وجود العالم من حيث هو أنه حق، وإن كان مرادفا للوجود المطلق عند أهل النظر) [1].

---

[1] - تابع العروس الزبيدي، المجلد التاسع، ص: 334، تأليف محمد مرتضى الزبيدي، طبع سنة (1386هـ) (1966م)، دار لبيا للنشر والتوزيع.

[2] - قاموس المحيط، ج 4، ص: 266، ولسان العرب لابن منظور، ج 13، ص: 363، وأساس البلاغة للزمخشري، الطبعة الثانية، 1972، ج 2، ص: 323، مختار الصلح، ص: 584.

[3] - المعجم الوسيط، تأليف إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات، طبع سنة ( 1381هـ) (1961م)، مطبعة مصر، ج 2، ص: 812.

[4] - شرح العقائد النفسية لسعد الدين التفتازاني، ص: 83، صفة التكوين.

[5] - محمد عبد الرؤوف المناوي القاهري، المولود سنة (952 هـ) (1545م)، وتوفي سنة ( 1031 هـ) (1622م)، الإعلام: 204/6.

[6] - تاج العروس: 334/9، وشرح التعريفات سيد شريف طبع في مطبعة أحمد كامل، استانبول، (1327هـ)، ص: 126.

[7] - أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بـ (سيد شريف) المتوفى سنة (816هـ).

2. وعرفه سعد الدين التغتازاني[2] بقوله: (الكون هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود)[3].

3. وله عند علماء الفلك تعاريف عدة منها: (أن الكون عبارة عن نظام يضم ألوف الملايين من المجرات وكل مجرة تحتوي على ألوف الملايين من النجوم) [4].

ويضاهي هذا التعريف تعريف علم الهيئة عن ابن سينا [5] إذ يقول: (وهو علم يعرف به حال أجزاء العالم في أشكالها وأوضاع بعضها عند بعض ومقاديرها وأبعاد ما بينها وحال الحركات التي للأفلاك والتي للكواكب، وتقدير الكرات والقطوع والدوائر التي بها تتم الحركات [6]، وعرفه الدكتور علي الأمير بقوله: الكون (هو الفراغ وما يحتويه هذا الفراغ الموجود خارج كوننا الأرضية) [7].

ولكن هذا التعريف غير جامع لجميع أجزاء الكون، لأن الأرض جزء من هذا الكون وهي داخل في هذا الفراغ بما فيه من مجرات وكواكب، ومن بين هذه الكواكب الأرض التي خصصت لحياة الكائنات، وكذلك لا يشمل الكون غير المنظور.

وعرفه الدكتور أنوار السنهوتي بأنه: (الخلق المشهود ذو الوجود الخارجي الذي يدركه الإنسان ويوجه إليه قلبه وعقله في هذه السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وهذه الكائنات المختلفة التي تدب على الأرض والتي تخلق

---

[1] - التعريفات سيد شريف، ص: 126.

[2] - مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، المتوفى سنة (891هـ).

[3] - شرح العقائد النفسية، ص: 116.

[4] - قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، عبد الرسول مهدي عبدة، الطبعة الأولى، ( 1979م)، ص: 79.

[5] - فيلسوف إسلامي توفي (428هـ) (1037م).

[6] - علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى تأليف السنبو كرلو نلينو، طبع سنة (1911م)، بمدينة روما، ص: 27.

[7] - الكون العميق تأليف، د. علي الأمير، طبع سنة (1986)، الطبعة الأولى، بغداد، ص: 14.

في أجواء الفضاء، وهذه الظواهر الكونية من الليل والنهار والرعد والبرق والمطر، والأحوال والأطوار ذات الوجود الحقيقي، وذات الآثار الواقعية)[1].

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعرف الكون تعريفا جامعا مانعا وبكل ما فيه من منظورة وغير المنظورة بأنه: (هو ما أحدثه الله وانشأه من العدم وقصد إيجاده على هذا النحو المعين بمحض إرادته).

فقول التعريف (أحدثه الله وأنشأه من العدم)، قيد يبطل قول من يدعي بأزلية الكون ويحدد أيضا بداية للكون، أو أنه خلق نفسه بنفسه.

وقوله: (قصد إيجاده) قيد يخرج القول بالصدفة أو نتيجة تطورات طبيعية مجهولة، وقوله: (بمحض إرادته) أي لم يجب على الله تعالى إيجاد المجودات، بل يوجده حسب إرادته.

## مقصودنا من الكون:

المقصود من الكون: ما خلقه الله من الأشياء المنظورة وهو عالم محس متشئ له واقعية في الخارج، ولهذه الأشياء صفات وكيفيات وأحاسيس تتأثر بها حواسنا ويصور لنا إدراكنا الحسي في الذهن فكرة عنها، وإن كانت تلك الأشياء تبدو لأذهاننا على غير ما هي عليه في الواقع، لأنها تتحول سريعة وتتغير وإن تراءات لحسنا كأعيان ثابتة ساكنة كما ذهب إلى ذلك أبو الفيض المتوفى[2].

وكذلك ما وراء هذه الظواهر الكونية المحسوسة من علل قريبة غير منظور، كالقوة والطاقة والقوانين، التي ندركها بعقولنا، ثم ندرك بأن لنا ذاتا مستبطنة تدرك الأشياء وإن في الخارج موضوعا يدرك، ولهذا حكم بأن للوجود باطنا معقولا كما أن له ظاهرا محسوسا[3].

وكذلك يدرك أن وراء هذا الكون الموجود الأول لجميع الأشياء.

---

[1] - مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالإحساء العدد الثالث، السنة الثالثة، سنة (1403هـ 1404هـ)، ص: 45، مقالة د. محمد الأنور السنهوتي.

[2] - كتاب الوجود، تأليف محمود أبو الفيض المتوفى، مطبعة الحجازي، القاهرة، (1366 - 1947م)، ص: 13.

[3] - ينظر: المصدر نفسه.

فالكون المنظور في القرآن الكريم من أرضه وما عليها من جبال ووديان وبحار وأشجار وحيوانا، وسمائه وما فيها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار وذرات وغيرها، وما بينهما من فالقرآن الكريم يحتوي على أكثر من ( 750) آية كونية فيها حقائق علمية موجزة غاية في الأصالة والموضوعية، وإن الإعجاز العلمي للقرآن قد شمل أهم الظواهر العلمية في القرن العشرين بالنسبة إلى الطبيعة الجوية والفلكية وغزو الفضاء وغير ذلك مهما كان الإنسان يجهلها قبل نزول القرآن وبعده بزمن طويل.

وإن الحديث عن الكون في القرآن الكريم في أسلوب عملي رائع يوقظ عقل الإنسان برفق ويسر، ويخاطب كل البشر على اختلاف عقولهم وزمانهم، يقتضي ألا يخاطب الناس عنه بما يفكرون ذلك حجابا بينهم وبين قبول دعوته وإلا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية في عصر نزول القرآن فيكون ذلك حائلا دون قبول دعوته في عصور العلم المتقدمة[1] حتى يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان لتلزمه حجة الله تعالى أن أبي الإيمان بالله تعالى ولتظهير معجزته الخالدة في كل زمان ومكان والتي ستظل ثابتاً دون تغيير إلى قيام الساعة كما يقول الله تعالى: (**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** )[2]، ولا ريب في أن العلم والقرآن مرتبطان ارتباطا مصيريا متماثلان في الغاية متحدان في الهدف، لأن مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون.

ولو تأملنا في عقائد الأمم السابقة لعصر نزول القرآن الكريم وبعده بزمن لوجدنا أنهم تأثروا بفلسفات قديمة وأساطير باطلة وعقائد وثنية روجها الكهنة لتشويه الحقائق وتضليل الناس عن دين الأنبياء والمرسلين، غير أن الفلاسفة حاولوا التوفيق بين الفلسفة والدين أو الشريعة والحكمة لتأييد الحقائق الدينية عن طريق فلسفة العقيدة وإقامتها على أسس عقلية، وإثبات أن ملجأ به الشرع لا يتعارض مع ما اهتدى إليه العقل، بيد أن محاولاتهم في هذا الصدد لم يقدر لها النجاح، بل قادهم إلى انحرافات والوقوع في أخطاء جسيمة التي كانت سببا في الحكم عليهم بالزيغ والضلال من جانب

---

[1] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، د. منصور حسن البني، ص: 6، دار الفكر العربي.
[2] - سورة الروم الآية: 30.

بعض علماء الإسلام [1]، وهذا ما دفع الإمام الغزالي إلى أن يصنف كتابه (تهافت الفلاسفة) في نقض مذاهب الفلسفة وكشف عوراها، والتنديد بما انطوت عليه من أخطاء.

المخلوقات من مطر وسحاب وطيور صافات، هو موضع التأمل والبحث فيه، بالتجربة وإتباع البرهان والدليل العلمي للوصول إلى الحقيقة التي يحاول الإنسان إلا خيار بها، ذلك لأن هذه الأدلة المنظورة تحيط بالإنسان من كل جانب يتعامل معها بالتجربة والتسخير لحياته وسد احتياجاته ويشاهد التغيرات والأعراض الآتية على أجزاء الكون، وكذلك يدرك الإنسان وجود قوة خفية داخل المادة المتطورة تعطي فاعلية وحيوية لها، فلولاها لما كان لوجودها تلك الأهمية التي نلامسها مع هذه القوة الخفية، وكذلك يدرك ذوو الفطرة السليمة والعقول المنطلقة من هذه الفطرة أن وراء ذلك خالقا أوجد هذه الأشياء على هذا النظام المدهش البديع الذي حير العلماء أن يوحوا به إلا القول بأن له خالقا أوجد هذه الأشياء على الوجه الذي نراه، ولنجعل من هذا الكون المتطور دليلا مشهودا محسوسا على وجود من أعد هذا الكون ويدير شؤونه من غير أن يكون للإنسان يد في تغيير شيء منه، ومفندا أراء المخالفين والنظريات التي لا تقف أمام البرهان العملي والمنطقي منذ العصور القديمة إلى وقتنا الحاضر، لينضم حقيقة العلم إلى حقيقة الدين ويناديان (**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ**) [2].

# أهمية البحث:

إن لموضوع الكون أهمية كبيرة لدى الباحثين عن أسراره والكشف عن قدرة خالقه ووحدانيته، وإثبات نبوة سيدنا محمد ρ لغير المؤمنين به، مستعينا بالعقل والعلم والآيات الكونية، لأن الكون خلق الله الذي يشمل كل شيء في الوجود في السماوات والأرض وما بينهما، غير الله سبحانه وتعالى، وما نعلمه في هذا الكون الفسيح وما كشفه الله تعالى لنا إلى وقتنا الحاضر، ما هو إلا ذرة من ذرات هذا العالم الذي لا

---

[1] - مجلة كلية الشريعة والعلوم الإسلامية بالإحساء، ص: 391.
[2] - سورة لقمان الآية: 11.

يدرك مداه إلا الله سبحانه الذي أحاط بكل شيء علما في أسرار الوجود، ولقد حاول البشر وبكل الوسائل أن يدركوا حقيقته أو يكشفوا عن بعض ما يحتويه من أسرار ابتداء من الحضارات الأولى إلى الآن، فإنهم لا يزالون حيارى أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

والسبب في ذلك أن هناك جفوة لا يمكن تجاهلها بين منهج الفلسفة ومنهج الدين والعقيدة وبين أسلوبهما، وبين الحقائق الإيمانية والصحيحة وتلك التصورات البشرية السقيمة التي تتضمنها الفلسفات الإنسانية، كما أن هناك مفارقة كبيرة بين الطبيعة الكلية للتصور القرآني التي تخاطب الكينونة البشرية جملة بكل مقوماتها وطاقاتها، وطبيعة التصور الفلسفي التي تخاطب الفكر البشري وحده خطابا باردا مصبوبا في قالب المنطق الذهني الجاف [(1)]، ومن هنا لا بد أن نعرف أن التصور الإسلامي الصحيح لا يمكن أن يؤخذ عن أولئك المفكرين الذين يطلق عليهم وصف فلاسفة الإسلام لأنهم لم يبرؤا من التأثر بالفلسفة اليونانية والفلسفات البابلية والفارسية القديمة وهي فلسفات غريبة عن روح الإسلام، وللكشف عن هذه الفلسفات الدخيلة وتمييز الصحيح من السقيم جاء اختيار الموضوع نتيجة التفكير في دعاوى الذين يحاربون الدين ويجادلون في الله بغير علم، وهم يصبغون أقوالهم الباطلة بالفلسفات القديمة الداخلة في العصر الحديث، والنظريات الخاطئة التي تراجع عنها أصحابها، وهم يتحمسون لها ويزيفونها بالعبادات الجذابة دون أن يعرفوا حقيقتها، ليكون هذا الجهد المتواضع ردا علميا قرآنيا عليهم وإبطالا لنظرياتهم.

**وكذلك نرى أن الكون أثر من آثار الله وفعله وأجلى دليل على عظمته وقدرته جل وعلا ويرتكز هذا الموضوع ويقوم على الأسس التالية:**

---

[(1)] - خصائص التصور الإسلامي، سيد قطب، ص: 10-11، ومجلة كلية السريعة بالإحساء، ص: 391.

1. البحث عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته في خلق الكون على هذا النظام الدقيق، وعن آياته في الآفاق والأنفس والثمرات وإنزال المطر ونشوء السحاب وحدوث الرياح وإحياء الأرض بعد موتها، واختلاف الأجناس والأنواع وغير ذلك[1].

2. كشف الطريق إلى حقيقة الوجود. والكشف عن غشاوة أعين المنكرين للبعث والحساب.

3. إثبات أن القرآن منزل من عند الله، وأن منهجه يرسم الطريق لمنهجية البحث العلمي الباحث عن أسرار الكون[2].

4. إثبات أن الله تجرى إرادته في الكون وفق القانون الإلهي العام للكون، وإثبات التوافقية بين منهج القرآن الكريم ومنهج البحث العلمي الصحيح، لأن الكون عمل الله وخلقه والقرآن كلامه يتحدث في آيات كثير منه عن خلقه فلا تعارض بين قوله وفعله.

5. سبق القرآن الكريم كل ما وصلت إليه المدارس الغربية من نظريات واتجاهات وتطبيقات واعترف بذلك كثير من العلماء، وهذا السبق جاء في زمن لم تكن المكتشفات العلمية الحديثة معروفة أو في بيئة لم ينتشر فيها العلم بعد.

6. إظهار أن القرآن يخاطب العقول[3] ويحثها على البحث والنظر حتى يصل إلى النتيجة والحقيقة فيتضح له الحق، ليكون حجة عليه إذا قلد في عرض الآراء التي تخالف الواقع، ويقول الله تعالى: **(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ)**[4].

7. يكون القرآن الكريم حجة على المنكرين له ولخالق الكون لأنه بعد ما كشف العلم الحديث الكثير من الحقائق العلمية والكونية التي جاءت موافقة للقرآن

---

[1] - الظواهر الجغرافية، تأليف د. عبد الحليم عبد الرحمن خضر سلسلة العلم والإيمان رقم ( 1)، دار السعودية للنشر والتوزيع، ص: 10.

[2] - المصدر نفسه.

[3] - الإسلام في عصر العلم، تأليف د. محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى ( 1393 - 1973م)، مطبعة السعادة، القاهرة، ص: 36.

[4] - سورة العنكبوت الآية: 20.

الكريم ومصدقة إياه لم يعد هنا سبيل للإنكار، إذ أن البرهان قد ثبت، والحقيقة قد ظهرت، ومعجزة القرآن قد تحققت على أيديهم أنفسهم، فيكون التجديد العلمي بمثابة تجديد للرسالة الإسلامية، كأنما رسول الله قائم في كل عصر يدعو الناس إلى دين الله ويريهم دليلا على صدقه آية جديدة تتطابق ما بين العلم الحديث والقرآن الكريم[1] مصداقا لقوله تعالى: (**وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)[2]، وقوله تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ**)[3].

# هدف البحث:

يهدف البحث إلى عرض الأفكار والعقائد حول الكون في الحضارات القديمة ومقارنتها بحقائق القرآن الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان وبيان خلق الكون والغاية التي خلق من أجلها عناصر الكون، ونظرة القرآن إليه، وكذلك بيان العقائد المكونة حول الكون في الحضارة المادية في العصر الحديث ومقارنتها بحقائق القرآن المفندة لكل نظرياتهم الخاطئة، وإظهار الحقيقة بنتيجة مؤيدة بشهادة العلم الحديث في أوساط العلماء والباحثين.

# خطة البحث:

تناولت خطة البحث لموضوع هذه الرسالة مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

**1. المقدمة وتشمل:**

**أ. معنى الكون.**

**ب. المقصود منه.**

**ت. أهمية الموضوع.**

---

(1) - العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه؟، القسم الأول، تأليف د. عبد الله عبد الرحيم الحياوى، ص: 5، الطبعة الأولى (1405هـ) (1985م)، دار الثقافة، قطر، الدوحة.

(2) - سورة النمل الآية: 93.

(3) - سورة فصلت الآية: 52.

ث. **هدف البحث.**

ج. **خطة البحث.**

**2. الباب التمهيدي: الكون في الحضارات القديمة ويحتوي على سبعة فصول:**

أ. **الفصل الأول:** نظرة المصريين القدامى إلى الكون.

ب. **الفصل الثاني:** الكون في منظور سكان وادي الرافدين ا لقدامى.

ت. **الفصل الثالث:** الكون في منظور اليونانيين.

ث. **الفصل الرابع:** الكون في منظور الحضارة الفارسية.

ج. **الفصل الخامس:** النظام الذي بنى على تلك الأفكار.

ح. **الفصل السادس:** الكون في التوراة والإنجيل.

خ. **الفصل السابع:** خالق الكون في التوراة.

**3. الباب الأول: الكون في القرآن الكريم، ويشتمل على ثمانية فصول:**

أ. **الفصل الأول:** بداية الكون وفي مسائل:

1. **المسألة الأولى:** مراحل خلق الكون.
2. **المسألة الثانية:** عدد السموات والأرض.

ب. **الفصل الثاني:** الغاية من ذكر الكون وفيه مباحث:

1. **المبحث الأول:** الغاية التي ذكرها القرآن.
2. **المبحث الثاني:** وحدة نظام الكون وربط الإنسان به.
3. **المبحث الثالث:** دلالة الكون على الخالق.

ج. **الفصل الثالث:** نهاية الكون:

د. الفصل الرابع: نظرة القرآن إلى الكون وفيه مبحثان:

1. **المبحث الأول:** مخلوقية الكون /مادية الكون.
2. **المبحث الثاني:** الكون ونشوء الحياة وفيه مطلبان:

**المطلب الأول:** إعداد الأرض للحياة.

**المطلب الثاني:** الحياة على الكواكب الأخرى.

هـ. **الفصل الخامس:** خالق الكون في القرآن الكريم.

و. **الفصل السادس:** وصف الكون في القرآن الكريم.

ز. **الفصل السابع:** الحضارة التي نشأت من القرآن الكريم.

ح. **الفصل الثامن:** المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة القديمة.

**4. الباب الثاني: الكون في الحضارة الحديثة ويشتمل على ستة فصول:**

أ. **الفصل الأول:** الكون والمصادفة.

ب. **الفصل الثاني:** نظرة الماديين إلى الكون.

ج. **الفصل الثالث:** نظرة المثاليين إلى الكون.

د. **الفصل الرابع:** خالق الكون في الحضارة الحديثة.

هـ. **الفصل الخامس:** الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار.

و. **الفصل السادس:** المقارنة بين الحضارة الحديثة والقرآن الكريم.

////////////////

////////////////

# الـبـاب الـتـمـهـيـدي

# الـكـون فـي الـحـضـارة الـقـديـمـة

**ويشتمل على فصول:**

| | |
|---|---|
| **الفصل الأول:** | **نظرة المصريين القدامى إلى الكون.** |
| **الفصل الثاني:** | **نظرة سكان وادي الرافدين.** |
| **الفصل الثالث:** | **نظرة اليونان إلى الكون.** |
| **الفصل الرابع:** | **نظرة الفرس إلى الكون.** |
| **الفصل الخامس:** | **النظام الذي بنى على تلك الأفكار.** |
| **الفصل السادس:** | **الكون في التوراة.** |
| **الفصل السابع:** | **خالق الكون في التوراة.** |

////////////////

////////////////

# الفصل الأول

# نظرة المصريين القدامى إلى الكون

# نظرة المصريين القدامى إلى الكون

ما دمنا نتحدث عن الكون في الحضارة القديمة لا بد من إعطاء تعريف للحضارة وهي: (نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي والعمراني وتتألف من أربعة عناصر هي: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، متابعة العلوم والفنون) [1].

**وذهب بعض العلماء إلى تعريفات أخرى نذكر منها:**

1. أنها أحكام القوانين والعبادات.
2. أنها خلاصة الآداب والعقل والرفاهية[2].

واختلفت مفهوم الحضارة بين الأقوام المنتشرة في أرجاء الأرض المعمورة حسب بيئتهم وما يحيط بهم من مستلزمات الحياة مما أدى إلى اختلاف نظرتهم إلى الكون.

ففي مصر فكر قدماء المصريين في الكون وما يحيط بهم من الظواهر الطبيعية وخرجوا من هذا التفكير بنوع من العبادات، نمت وتطورت على مر العصور حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكي في العصر المتحد[3].

فكانت آراؤهم عن الكون كآراء غيرهم من الأمم لا سيما عن السموات وإجرامها التي كانت لها علاقة كبيرة بمعتقداتهم الدينية[4].

وكانوا يعتقدون أن بداية الخلق هي السماء، وقد ظلت هي والنيل أكبر أربابه إلى أخر أيامهم، ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة في اعتقادهم مجرد أجرام، بل

---

[1] - ينظر: كتاب حضارة مصر والشرق القديم، أحمد زرقانه وآخرون، يطلب من دار المصر للطباعة.

[2] - المصدر نفسه.

[3] - المصدر نفسه، ص: 16.

[4] - ديانة قدماء المصريين تأليف استندرف الألماني تعريب سليم حسن، الطبعة الأولى، سنة (1923)، مطبعة المعارف، مصر، ص: 27.

كانوا يعتقدون أنها الصور الخارجية لأرواح عظيمة لآلة ذات إرادات توجه حركات المختلفة المعقدة[1].

**وقد تتباين آراؤهم حول تحديد شكل السماء والأرض كما تتباين حول خلقهما نجملها كما يأتي:**

أ. ذهب بعضهم إلى أن السماء بكل ما فيها بقرة عظيمة تطلع في بطنها النجوم، والأرض من تحت أقدامها [2]، أو أنها كامرأة تنحني على الأرض بذراعيها ويسندها (شو) أله الهواء بكلتا يديه[3]، وكذلك يرون أن الأرض بكل ما فيها مركز الكون وأن السماء فوقها كسقف مرفوع مستتر[4].

ب. وذهب آخرون منهم إلى أن السماء منحنية بعض الانحناء وأنها مزينة بمصابيح معلقة بجبال القدرة، ولما تعذر عليهم فهم ا لكيفية التي تقف بها السماء مرفوعة في الهواء تخيلوا لها أربعة أعمدة تستند عليها - كاستناد سقف بيوتهم على أساطين في جذوع الأشجار - في أركان الأرض الأربعة، ولذلك كانوا يخشون سقوطها عقب الحوادث[5].

وصنع المصريون تمثالا منحوتا على هيئة إنسان على أساس تصورهم لعناصر الكون من شمس وقمر وكواكب وغير ذلك، ويكون الملك في غالب الأحيان يمثل هذا العنصر الكوني الذي جعلوه آلها ماديا كما لوحظ ذلك في نقوشهم وأناشيدهم.

---

[1] - قصة الحضارة، تأليف ول ديورالد، ج 2، ص: 156.

[2] - المصدر نفسه، ص: 156، وينظر: كتاب (الله) عباس محمود العقاد، طبع سنة ( 1947)، دار المعارف بمصر، ص: 60.

[3] - ينظر: (الله) عباس محمود العقاد، ص: 60.

[4] - الحضارة القديمة أحمد كمال، ص: 7.

[5] - المصدر نفسه، وينظر: ديانة قدماء المصريين، ص: 27.

# بـدء خلق الـكون:

**ذهب قدماء المصريين حول خلق الكون وبدء تكوينه مذاهب شتى نذكر بعضا منها على وجه الاختصار كالآتي:**

1. كانوا يعتقدون أن العالم وجد بطبيعته[1] 1 أي بدون تأثير للآله في إيجاده وقد يؤخذ ذلك من الأنشودة المصرية القديمة التي كانوا ينشدونها لـ (اتوم رع) أي: اله الشمس، تقول الأنشودة: (أنت الذي خلقت جميع الآلهة والإنسان ونظمت جميع الأشياء) [2]، وأن هذه الأشياء لم تخلق إلا من مادة لها سابقة وجود وهي جسم عظيم من الماء يدعى (نو) آله الماء يشتمل على خلايا الحياة من ذكر وأنثى ومن هذا الماء فطرت (رع) الشمس الخالقة التي تولد منها الهواء والجو (شو وتفتوت) ويشمل هذا الماء كذلك إله الأرض (جب) وإله الهواء (نوت) متعانقين - أي أن السماء والأرض في بدء الأمر كانتا شيئا واحدا، وفصل بينهما شو، فحمل السماء على يديه إلى الطبقات العلوية[3]، كما جاء في نصوص الأهرام (1101)، (ذراعا شو تحت السماء لكي يحملها) [4].

أما الأرض فقد برزت من الماء، وتصوروا أن مكانا عاليا من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذي يسمونه (نون) كما تنحسر مياه فيضان النيل فتظهر أكمات صغيرة، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل في القدم، وفوق هذا التل ظهرت المعالم الأولى للحياة إذ سكنت الضفادع والثعابين، وهي من الكائنات التي تتفق مع ما يغمر هذا المكان من ظلام ورطوبة، وظهر شيء آخر فوق هذا التل وهو بيضة طائل مائي خرجت منها إوزة استحال بخروجها الظلام الدامس إلى نهار ساطع، فهي الشمس كما أشرنا من قبل التي طارت سائحة فوق العالم [5] فالشمس في اعتقادهم الآله الذي يفيض على العالم الحياة ويصفونه في

---

[1] - أي بطريقة التولد الذاتي على هيئة - المادة البدائية - كما يقو: (أوزيريس) - أحد الآلهة - لقد نشأت بنشوء تدحرجات أي طورت نفس من المادة الأولى التي صنعتها بيدي، الديانة الفرعونية.

[2] - الآداب والدين عند قدماء المصريين، تأليف انطون ذكرى، ص: 70.

[3] - ديانة قدماء المصريين، ص: 29.

[4] - ما قبل الفلسفة، تأليف فرانكفورت، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ص: 61.

[5] - ديانة مصر القديمة تأليف أدولف أرمان، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ص: 72-73.

أناشيدهم بالأله الأزلي الخالد، فقد جاء في أنشودتهم (أنه سيد جميع الآلهة الأزلي الواحد الخالق لكل شيء، والسيد المسيطر الذي لم يكن قبله شيء، بل هو موجود قبل كل شيء وهو قرص الشمس الذي يحي جميع البشر لظهوره) [1]، ففي هذا المكان فوق الأكمة الطينية، خلق الآلة - الشمس - كما يعتقدونه جميع الكائنات الأخرى[2].

ومما يبدو من عقيدتهم حول خلق الكون، أن المبدأ الأول الذي تكون منه الكون هو الماء الأزلي الذي احتوى على عاملي الذكر والأنثى وبرز آله الشمس بنفسه فولد منه آله الأرض وآله السماء، وانهما كانا شيئا واحد في بادئ الأمر ثم فصل بينهما فأصبحت السماء فوقا والأرض تحتاً، وأن الشمس تسبح في سفينة فوق ظهر (نوت) ومعها الآلهة، وكانت هذه العقيدة الوثنية قد هيمنت على حضارة مصر القديمة ونظروا إلى عناصر الكون نظرة تقديس، وأن الشمس رمز محسوس للأله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء[3].

وقد أوضح هذا الأمر (جون ولسن) في كتابه الموسوم (الحضارة) إذ يقول: (أن أتوم كان الكل في نفسه، فلهذا خلق الآلهة الآخرين من نفسه، وظهروا في الوجود عندما كان يذكر أعضاء جسمه، حيث انه نطق باسم لم يكن قد نطق به من قبل كان هذا الاسم في حد ذاته عملا من أعمال الخلق [4]. ولدى المصريين فكرة أخرى حول الخلق وهي الخاصة بالكلمة، (في البداية كانت الكلمة) إذ شعر روح الماء بالرغبة في الفاعلية الخلاقة ونطق بالكلمة، فقفزت الكلمة فورا إلى الكينونة على الهيئة التي سبق لها أن تشكلت في عقل الروح قبل أن ينطق بالكلمة التي أثمرت المخلوقات وكان فعل الخلق الثاني تكوين جرثومة أو بيضة، ومنها انبثق آله الشمس على شكل شعاعة تجسدت القدرة الفائقة للروح المقدس[5].

---

[1] - الأدب والدين، انطون ذكرى، ص: 67.

[2] - الديانة الفرعونية أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، تأليف السير ولسن بدج، ترجمة يوسف سامي، طبعة أولى، ص: 63.

[3] - عباس محمود العقاد (الله)، ص: 61.

[4] - جون ولسون، الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فنحرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 19855،
ص: 117.

[5] - الديانة الفرعونية، ص: 64.

يقول المؤرخ الكبير برستيد: (أن عقيدة فتاح[1]، هي أساس مذهب الخلق بالكلمة عند الإغريق الأقدمين، فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق، غير (أن يشاء ويأمر) فإذا بما شاء موجود كما شاء) [2].

ومما يبدو من نظرة المصريين إلى الكون أن هناك وحدة بين الخالق والمخلوق، والمادة الأزلية مؤثرة في حياة الإنسان وأن عامل الخوف موجود عند المصريين وخاصة الفلاحين منهم وكانوا يعبدون الرياح، والرعد، والبرق توقيا من شرهم ورأوا أن هناك صراعا بين آله النور وآله الظلام الليل والنهار قبل توحيد شطري مصر (الصعيد ودلتا)، وكان ذلك من أهم مظاهر الصراع بين عناصر الكون، الأرض والسماء، فأصبحت الشمس رمزا للحياة والنور، والظلام رمزا للموت والشر، ولهذا تعلقت أخيلة الشعراء بالشمس وبدؤوا يتفننو ن بها. ويفرض سؤال نفسه حول عقيدة التوحيد لدى المصريين.

## هل عرف المصريون القدامى عقيدة التوحيد؟

لم يعرف المصريون حتى التوحيد الإقليمي، بل كان لكل إقليم أله ولكل مدينة أله يمثل مظهرا من مظاهر الطبيعة[3]، وقد دل القرآن الكريم على أن المصريين كانوا وثنيين، وأما ما يشير إلى الوحدانية في أناشيدهم إنما يقصدون بذلك الآله شمس، والبرهان على ذلك قوله تعالى: (**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ) [4]، والدليل الثاني على وثنية المصريين، نقوشها البارزة، وصور معابدها وآثارها، وكان شأنهم شأن جميع الشعوب المتحضرة في حينه، وعرف عنهم الوحدة السياسية ولم يعرف عنهم الوحدة الدينية، ولكل آله الطبيعة الكونية لدى المصريين القدماء مكانة تزيد وتنقص حسب الظروف والبيئة المحيطة بهم.

---

(1) - أحد الآلهة عند المصريين.

(2) - عباس محمود العقاد (الله)، ص: 62.

(3) - مقارنات الأديان/ الديانات القديمة، تأليف محمد أبو زهرة، ص: 7.

(4) - سورة يوسف الآية: 37.

# الـفـصل الـثـانــي

## الـكـون فــي مـنـظـور سـكـان وادي الــرافــديــن

# الكون في منظور سكان وادي الرافدين

فكر سكان العرق الأقدمون السومريون منهم والبابليون والأشوريون بقضية أصل الوجود والأشياء، كما فكر غيرهم من البشر بها في جميع الأزمان، وكانت قضية الوجود من أصل الآلهة وخلق العالم والإنسان، وعالم الحيوان والنبات تنتظم تحت موضوع اللاهوت بوجه عام، فنشأ عن كهنتهم وأصحاب الرأي والمعرفة منهم مذاهب وعقائد مختلفة حول أصل الوجود، وسجلوا هذه الآراء بهيئة ملاحم وأساطير من الآداب الدينية ودونوها على ألواح الطين.

إلا أن كثيرا من هذه الألواح البابلية والسومرية ضاعت ولم تصل إلينا كاملة، وما عثر عليها في قسم منها خرم، وتتخلص قصة الخلق عند البابليين حول أصل الوجود في التركيز على المادة الأولية والأساسية للكون وفيما يلي نتناول عقائدهم ورآهم حول الكون.

فالكون عند سكان العراق القدامى هو كل ما في الوجود، بل وكل ما يمكن أن يعد شيئا ذاكيان كالبشر والحيوانات والجمادات والظواهر الطبيعية، وكذلك الأفكار المجردة - كالعدالة والاستقامة وغيرهما[1]، وكانوا ينظرون إلى الكون كلا متماسكا، ورموزا ب (أن an - وكي ki) السماء والأرض ويمكن تجزئته بموجب الفكر السومري إلى جزأين:

1. **الجزء السماوي**: ويتكون من سماء وفضاء فوقها، ويعني (an) في السومرية (العلى) حيث تسكن الآلهة السماوية.
2. **الجزء الأرضي**: حيث تعيش آلهة العالم الأسفل، وكما هي مستقر الأموات[2].

---

(1) - ما قبل الفلسفة، تأليف فرانكفورت، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، يطلب من مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ص: 158.

(2) - من ألواح سومر إلى التوراة، تأليف د.فاضل عبد الواحد الطبعة الأولى،سنة (979)دار الشؤون الثقافي، بغداد.

ولم يعرف عن تصورات هؤلاء علما منظما للكون يتكلم عن مشاكل الكون الأساسية لدى سكان ما بين النهرين حتى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وعندئذ حتى ولا الآلهة، - كما يعتقدون - والدلالة على خلق السماء والأرض في المعتقدات السومرية، تلك المقدمة التي وردت في قصيدة سومرية تحت عنوان : جلجامش وانكيد والعالم الآخر[1]، تتألف من الأسطر الخمسة الآتية:

بعد أن أبعدت السماء عن الأرض.

وبعد أن فصلت الأرض عن السماء.

وبعد أن عين اسم الإنسان (خلق الإنسان).

وبعد أن أخذ السماء آن (أله السماء).

وبعد أن أخذ الأرض (الليل آله الهواء).

يبدو من هذه الأبيات الخمسة أن السماء والأرض في بدء خلقهما شيء واحد ملتصقة لا انفصال بينهما، تكونت كتلتهما من الماء.

**تقول القصة البابلية حول بدء الخلق:**

(في البدء لم تخلق سماء ولا أرض، ولم يكن سوى الماء تمثله المياه الأولى التي تولدت منها الآلهة وجميع الأشياء) [2].

فالماء هوا لعنصر الأول للخلق في الفكر البابلي سواء أكان هذا الماء مصدر الفعل والحركة أم مصدر الأشياء الجديدة.

ومن هذا يتضح لنا بعد خلق السموات والأرض التصورات الآتية عن الكون:

1. في زمن ما كانت السماء والأرض متحدتين أي شيئا واحد.
2. كان بعض الآلهة موجودا قبل انفصال السماء عن الأرض.

---

(1) - من ألواح سومر، تأليف صموئيل كريمر، ص: 160.

(2) - مجلة سومر، م 5، ج 1، 1914، ص: 4.

3. وبعد انفصالهما كان الآله (آن) آله السماء هو الذي أخذ السماء والآله (أنليل) هو الذي أخذ الأرض[1].

**ولكن هناك أمور لم تذكر ضمن هذه الأبيات ولم يشر إلى القضايا الآتية:**

أ. هل تصوروا السماء والأرض بأنهما خلقتا؟ وإن كان الأمر كذلك فمن خلقهما؟

ب. ماذا كانت هيئة السماء والأرض في تصور السومريين؟

ت. من فصل السماء عن الأرض؟

**فالجواب على هذه الأسئلة كما اكتشفت في ألواح سومرية كما يأتي:**

أ. في لوح يعدد الآلهة السومرية ويصف الآلة المسمى (نمو) بأنه الأم التي ولدت السماء والأرض، لذلك تصور السومريون أن من مياه البحر الأزلية ولد جبل كوني يمثل السماء والأرض متحدتين[2].

وقد يسفر ذلك بأنه كان في البدء (مياه البحر) الآلة (نمو Nemo) ولكن لم يذكر أي شيء عن أصله أو مولده في النصوص المسارية السومرية، والأرجح أن السومريين تصوروا أن المياه هذه كانت أزلية[3].

ب. وفي أسطورة عنوانها (الماشية والغلة) التي تصف الإلهيين الموكلين بالماشية والغلة اللذين أرسلا من السماء ليحلا البركة والرفاهية بين البشر تبدأ بالسطرين الآتيين:

في جبل السماء والأرض

ولد الآلة (آن) أله السماء آلهة الأنانوكي[4].

---

[1] - الأساطير السومرية تأليف صموئيل كريمر، ترجمة يوسف داود عبد القهار، ص: 64.

[2] - من ألواح سومر، تأليف كريمر، ترجمة طه باقر، ص: 161.

[3] - من ألواح سومر إلى التوراة، ص: 246.

[4] - المصدرين السابقين نفسهما.

ولو رجعنا إلى السطر الأول من أسطورة (الماشية والغلة) فإنه يبدو أن القوم تصوروا الأرض والسماء المتحدتين على هيئة (جبل) قاعدته قعر الأرض وقمته أعلا السماء.

**وفي قصيدة تصرف خلف (الفأس) جاء في مقدمتها النص الآتي:**

انليل الذي أخرج بذور البلاد من الأرض.

أراد أن يبعد السماء عن الأرض.

وأراد أن يبعد الأرض عن السماء.

يبدو من هذه الأبيات أن الآلة (انليل - الهواء) فصل السماء عن الأرض بعد أن كانا متحدتين، واختص أبوه الآلة (آن) بالسماء وحملهما انليل وأخذ أمه الأرض، وهيأ اتحاد انليل مع أمه الأرض لتنظيم الكون، والحياة عليها - الإنسان والحيوان والنبات وأسس المدينة[1].

وقصة التكوين هذه تتفق تماما مع قصة الخليقة البابلية التي نشأت بعد السومريين، وتأثرت بمعتقداتهم، إذ تذكر القصة أنه لم يكن سوى المياه الأزلية (ابسو) المياه العذبة المذكر، و(تيامة) المياه المالحة المؤنث، ومن امتزاجهما ولد الجيل الأول من الآلهة ثم الثاني ثم الثالث[2]، والماء في أسطورة الخليقة البابلية أصل الوجود، وأن السماء والأرض تكونتا نتيجة لعملية انشطار جسد (تيامة) الماء المالحة حيث قصدها الآله (مردوخ) فقطع رأسها ثم قسم جسمها قسمين، جعل النصف الأعلى منه سماء، ومن نصفه الأسفل منه أرضا ونظم في السماء بروجها ومناطقها ومواضع الآلهة، وبروج الكواكب، ووقت الأوقات والفصول [3]، وقد اتفقت هذه القصة مع أسطورة مصر القديمة في أن أصل الكون في البدء كان ماء أزليا وتكون منه الوجود، وأن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلهما آله الهواء.

---

(1) - من ألواح سومر كريمر، ص: 163.
(2) - من ألواح سومر إلى التوراة، ص: 246.
(3) - مجلة سومر، م 5، ج 1، ص: 4.

أما تصور البابليين والسومريين عن الأجرام النيرة، فإنهم عدوا القمر إلها، ويعرف باسمين (سين) و (ننا) ابن الآله الهواء (انليل) وانه هو الجرم المشرق الشبيه بالهواء، وتكون بطريقة ما من الجو، وأن الشمس هي الآله أيضا المسمى (اوتو) الآله (الزهرة) واسمها (أنانا) وأنهما ولدي الآله القمر، ويحتمل أنهم تصوروا هذين الجرمين النيرين بأنهما خلقا من القمر بعد أن صنع هذا الجرم بدورة من الجو ويصدق هذا التصور والاعتقاد على بقية الكواكب والنجوم التي توصف وصفا شعريا بأنهما:

من الكبار الذي يسيرون حول، القمر كالثيران الوحشية.

والصغار المنتشرين حول القمر كالحبوب[1].

## خلق الإنسان:

من الموضوعات التي تناولتها الأساطير السومرية والبابلية على حد سواء قصة خلق الإنسان، إذ نفهم من أسطورة سومرية يعود من تدوينها إلى الألف الثالث ق . م ، محتواها:

(أن الآلهة أصابها الجوع بعد أن تكاثرت وزاد عددها، وأن الآله (نمو) الأم لكل الآلهة جاءت إلى ابنها (انكى) آله المياه، وطلبت منه أن يخلق عبداً للالهة ينتج لها طعاما، وكان جواب انكى: أن الأمر ممكن، وأن عليها أن تأخذ شيئا من الطين (في وسط مياه العميق) وتخلق منه الإنسان، وأن الآله انكى أقامت دعوة للالهة للاحتفال على ما يبدو وبخلق الإنسان، وان الآلهة احتاجت إلى الخبزو اللين حتى بعد أن تم خلق (لخار) آله الماشية، و (اشنان) آله الحنطة، وأنها خلقت الإنسان ليهتم بزرائب الماشية ولتتمكن هي من التنعم بمزيد من الأكل والشراب.

وفي قصة الخلفية البابلية وقصة الطوفان لـ (اتراخاسيس) أنه جيء بعد ذلك بالآله (وي - ايلا)، أحد الآلهة لدى البابليين، فذبح أمام الآلهة، فمزج الآله (ننتو) دمه ولحمه بالطين وخلقت من الإنسان، وتقول القصة:

---

[1] - من ألواح سومر، ص: 163,

وذبحوا في مجلسهم (وي - ايلا) الذي كانت له (✍)

ذات [1] - ومع لحمه ودمه

مزحت (ننتو) الطين

ثم استمعوا إلى الطبل لما تبقى من الوقت

فكانت روح من لحم الآله

ونودي بالإنسان الحي رمزا لها [2]

وخلاصة ما جاء في خلق الإنسان عند السومريين والبابليين:

أ. أن الإنسان خلق من طين أو من طين ودم حسب المآثر البابلية.

ب. أن الإنسان خلق لغاية أن يعبد الآلهة ويقيم معابدها ويقدم لها القرابين ويخصها بالنذور.

وأنه خلق من أجل أن يكدح في الأرض ويريح الآلهة من عناء العمل وليقدم لها الطعام[3]. وأما تصور دولة وأكد الإغريق فيما بعد، فإنهم على نفس المعتقدات السائدة عند السومريين والبابليين، وأخذوا من ظواهر الطبيعة ألها ثم صارت ألهة الإغريق فيما بعد[4]. ومما يجلو من عقيدة سكان وادي الرافدين القدامى أنهم جعلوا عناصر الطبيعة إلها وأنهم يشبهون البشر في أعضائهم وميولهم وجعلوا من الملوك نوابا عن الآلهة ونسبوا إليهم صفات البشر الروحية والمادية، وهذا ما يعرف بمبدأ التشبيه، ولكن الآلهة تمتاز عن البشر بميزة أنها تتصف بالخلود، وبيدها أقدار لكون وهي في السماء وتعبد في الأرض، وتخلق الأشياء حسب رغبتها، كما جعلوا أحد الملوك إله

---

✍ أو آله المذنب (كنكو) وقد موه للآله (أيا) فاهدر دمه، وخلق الإنسان من دمه والتراب ليعبدها.

(1) - سقط النص من القصة.

(2) - من ألواح سومر إلى التوراة، ص: 248-249.

(3) - ينظر: من ألواح سومر إلى التوراة، ص: 249.

(4) - حضارة بابل وآشور، تأليف د. غوستاف لوبون، ترجمة محمود خيرت، الطبعة الأولى، 1947، المطبعة المصرية، ص: 92.

الهواء أي رمزا عن الهواء الطبيعي حسب اعتقادهم، فنشأت عن هذه المعتقدات العقيدة الوثنية وكثرة الآلهة.

# الفصل الثالث

# الكون في منظور اليونانيين

# الكون في منظور اليونانيين

بدأ فلاسفة اليونان ينظرون إلى الكون نظرات ساذجة حائرة، فيها ومضات من نور الحق في ظلمة من الإبهام والغموض والتناقض والشك والسفسطة، ونقلوا عن أسلافهم أخبارا وثنية مادية مستندة على أخيلة الشعراء والأساطير الشعبية التي تقدمت على النظريات الفلسفية إلى الوجود بزمن بعيد، وتلك القصائد عرضت لكثير من المشاكل الكونية، ثم حاولت حلها بطريقتها الخيالية الساذجة فتكلمت عن نشأة العالم ومنشئه، فقررت أنه الآلهة القادرون، واشتملت تلك الأشعار القديمة على وصف لما يحيط بهم من عناصر الأرض، وتصوير للكواكب ومراكزها والأفلاك ومواقعها.

وأسسوا على ذلك التراث الشعري نظرياتهم بعد أن ادخلوا عليه شيئا من التحوير عند التحري عنه، مثال ذلك (تاليس) [1]، قد أسس نظريته في مبدأ الكون على تلك العقيدة القديمة الواردة في أناشيد الشعراء الكلدانيين، من أن الماء هو الجوهر الأول للكون بتمامه، وقد حام من بعده تلاميذه حول هذه الدائرة.

فلم يغيروا فيها إلا قليلا، إذ استبدل بعضهم الماء بالهواء واستعاض عنه الآخر بالماء وهكذا[2].

## أصل الكون عندهم:

أن حكماء اليونان ورثوا فكرة المصريين القدماء في نشأت العالم والمبدأ الأول الذي تكون منه الكون.

فيرى طاليس: أن الماء أصل الوجود [1]، كما بينا، وهو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود، لأن الماء قابل لكل صورة ومنه إبداع الجواهر

---

[1] - تاليس أحد فلاسفة المدرسة المالطية ولد سنة (640 ق.م) وقيل (624 ق.م) وتوفي سنة ( 540 ق.م) أو (546 ق.م)، وينظر: كتاب (الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى، تأليف د. متي كريم مطبعة الإرشاد بغداد، 1965، ص: 27.

[2] - الفلسفة الإغريقية، تأليف د. محمد غلاب الطبعة الثانية مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ج 1، ص: 27.

كلها من السماء والأرض وما بينهما، وهو علة كل موجود وعلة كل مركب من العنصر الجسماني، وقال: أن من جمود الماء تكونت الأرض ومن انحلاله تكون الهواء، ومن صفوة الهواء تكونت النار، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء، ومن الاشتعال الحاصل من الايثر تكونت الكواكب، فدارت حول المركز، والذي حمله على هذا المذهب كما يفرض أرسطو فرضا قد يقترب من الحقيقة، نشأته على شاطئ البحر[2].

ويرى تلميذه أنا كسيما ندر[3]: أن الأصل الذي تكون منه الكون هو (المبهم أو اللامتناهي[4]، وقد ظل هذا اللامتناهي خفي الدلالة إلى عهد أرسطو، ورجح انه كان يقصد به الهواء، وهو وحده جدير بهذا الوصف، وقد اختلفوا من بعده في تأويل هذا اللامتناهي، فذهب بعضهم إلى أن المراد به هو الفراغ الذي لا يتناهى، والذي منه نشأ كل شيء واحتوى كل شيء من الموجودات المحددة[5].

وقد جاء في كتاب قصة الفلسفة اليونانية نقلا عن أناكسيما ندر (أنه أصل الكون مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود [6]، وحول تكوين السموات والأرض قال: (اناكسيماندر) أن الأرض كانت سائلا ثم أخذت تتجمد شيئا فشيئاً، ومن خلال ذلك كانت تنصب فوق الأرض حرارة لافحة يتبخر من سائلها بخار يتصاعد، ويكون طبقات الهواء، فهذه الحرارة عندما التقت ببرودة الأرض كونت الكائنات الحية[7].

ولكن نكسمين[8]: يرى أن الهواء أكثر من الماء مرونة وقابلية للتحول، لأنه يبرد فيصير ماء، ويسخن فيصير بخارا، ثم يزداد تخللا فيصير هواء[1]، فزعم أنه لو

---

(1) - قصة الفلسفة اليونانية، تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، الطبعة الثانية، 1935، مطبعة دار الكتب المصرية، ص: 22.

(2) - الملل والنحل الشهرستاني، الطبعة الثانية، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبع سنة ( 1395، 1975) دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج 2، ص: 63.

(3) - اناكسيماندر (610-546 ق.م).

(4) - الفلسفة الإغريقية، ص: 40، وينظر: الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى، ص: 31.

(5) - المصدر نفسه، ص: 41.

(6) - قصة الفلسفة اليونانية أحمد أمين، ص: 23.

(7) - المصدر نفسه، ص: 23، 24.

(8) - فيلسوف يوناني، ولد ( 585 ق.م) وتوفي ( 528 ق.م)، ينظر: كتاب الفلسفة اليونانية في عصورها.

زاد تخلله لصار نارا، وكون شموسا وأقمارا، وإن تكثف صار سحابا ثم ماء، وإن زاد تكثفه انقلب أتربة وأحجارا، ورأى أنه لازم للحياة فعده أصل الكائنات ويرى فيثاغورس أن العدد أصل الكون، وكل شيء من عناصر الكون هي القانون والنظام والموسيقى، وعنصر هذه الثلاثة جميعا هو العدد[2].

ويرى هيرقليطس [3]: أن النار هي أصل الكون تحولت إلى هواء ثم تحولت الهواء إلى الماء، والماء إلى اليابس، وقال أن العالم في تغير دائم، ولا يستقر لحظة واحدة، فيكون الشيء موجودا وغير موجود في آن واحد، والاتحاد بينهما هو الصيرورة التي هي حقيقة الوجود[4].

لكن امبدوقلس[5]: يرى أن كل ما في الوجود مكون من العناصر الأربعة: (النار والهواء والماء والتراب) وهذه العناصر عنده متساوية في الجوهرية الأزلية، والأبدية، فلم ينشأ أحدها عن الثاني، أما الوجود والعدم، فلا حقيقة لهما عنده[6].

أما السوفسطائيون قالوا: أن الطبيعة حاصلة في ذاتها، وانه لا مدبر لها، ولا عقل يحل فيها ولكن أفلاطون [7] رد على هؤلاء مؤكدا ضرورة القول بوجود آله صانع، حائزا بذاته على العلم والتأمل[8].

ويقرر أفلاطون في النهاية، أن ما يترائى لنا في السماء من نظم الأفلاك والكواكب يكفي للتدليل على أنها يجب أن تكون صادرة عن عقل إلهي ويؤكد أن الحكماء متفقون على أن العقل هو (ملك) هذا الكون وسيد هذه الأرض، فهو علة وجود عناصر الموجودات الرئيسية وهو الصانع المنظم لكل شيء، ويرتب السنوات والشهور والفصول وإن أركان العالم الطبيعي عنده ثلاثة: المادة، المثل. ثم الصانع،

---

(1) - قصة الإيمان نديم الجسر، ص: 29.
(2) - الفلسفة الإغريقية، ص: 61.
(3) - ولد سنة (535 ق.م) وتوفي سنة (475 ق.م)، ينظر: الفلسفة اليونانية، ص: 43.
(4) - قصة ا لإيمان، ص: 33.
(5) - امبدوقليس (490 ق.م - 430 ق.م) الفلسفة اليونانية، ص: 52.
(6) - المصدر نفسه، ص: 33، والفلسفة الإغريقية، ص: 100.
(7) - أفلاطون (459 - 337 ق.م).
(8) - تاريخ الفكر الفلسفي اليونانية، تأليف محمد علي أبوريان، الطبعة الخامسة، دار الجامعة المصرية، (1974م)، ج 1، ص: 218.

وقال: أن المادة خليط من المادة والمكان، وهذه المادة تشبه الشمع الرخو التي تتشكل بحسب ما ينطبع عليها من صور تحاكي المثل الأزلية الثابتة[1].

ويرى أن العالم هو العماء، وفي حالة اضطراب وفوضى، أي عماء بدون نظام، وأما الصانع فهو مصدر النظام الذي يسبخه على المادة المضطربة، فهو يتناول المادة الرخوة بالتنظيم بعد أن تكون قد تعدلت من تلقاء نفسها [2]، وان العناصر تؤلف على شكل ما يشبه العلة الصورية التي يربطها الصانع بالعلل الإلهية.

أما الأجرام السماوية كالشمس والقمر والكواكب، فإن الصانع بعد أن ركبها من النار جعلها مستديرة الشكل مشتعلة بطبيعتها ووضعها في الأفلاك المعدة، لها جمل منها نفسا تحركها[3]، أما الزمن عند أفلاطون فحادث إبداعه الآله بعد أن صنع العالم من مادة أزلية قديمة قدم الآله نفسها، والمادة والآله خارجان عن نطاق الزمن، وبعد وجد الزمن[4]، وجعل الإلوهية بما تهبه من حياة لكل شيء تتخلل في كل شيء حتى الأرض والجماد والكواكب، ولكل منها نفس حبه ومن هذه الكواكب صنع الصانع الآلهة الثانوية أو الوسطى لكي تساعده في صنع بقية أجزاء العالم على شاكلته وبما تراه من صور في عالم المثل[5].

ويرى أرسطو[6] زعيم الماديين أن هناك مادة أزلية قديمة في حالة هيولي، هي علة كل شيء في الوجود[7]، وقد زعم أن مادته ليست محتاجة لمقوم أو مدبر، إلا أن يدفعها أول مرة، ثم يتركها تدبر نفسها، فالآله عنده معطل بلا عمل سوى أنه يدفع دورة الكائنات أول مرة، وتنتهي مهمته عند هذا الحد، ثم تستمر تلك المادة، مضافا إليها الصورة فتخلق وتصنف أجناس الكائنات وأنواعها[8]. بيد أن هذا الرأي لا يأتلف

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 221.
(2) - إلى بطريقة التولد الذاتي دون تدخل قدرة الآله في تكونيه.
(3) - المصدر نفسه، ص: 224 وما بعدها.
(4) - فكرة الإلوهية عند أفلاطون، تأليف مصطفى حسن النشار، الطبعة الأولى، 1984، الناشر دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص: 199.
(5) - المصدر نفسه، ص: 219، والفلسفة الإغريقية، ص: 252.
(6) - أرسطو (384 -223 ق.م).
(7) - كتاب الوجود، تأليف السيد محمود أبو الفيض المتوفى طبع سنة (1974)، ص: 60-61.
(8) - المصدر نفسه، ص: 61.

مع الحقيقة والواقع، لأن ذلك معناه أثنينية العلة فتكون علة هذا الوجود اثنين لا واحد، وهذا باطل لأمور:

1. لا يجوز أن تتعدد العلل بلا ضرورة، فالعلة الأولى أخلق وأجدر بالوجود.
2. انتفاء الاثنينية تبعا لسقوط المادة.
3. تعاون سائل قوى الوجود واتحادها وتضامنها على إنتاج نتائج متوحدة لا اثنينية فيها، فلو كان هناك اثنينية لا نقسم الوجود في مبادئه وغاياته على نفسه وتضاربت نظمه، فالاثنينية عند أرسطو واثنينية أفلاطون في نظرية المثل وغيرهما باطل، لأنها تفرض وجود حقيقتين مستقلتين كعلتين للوجود، الآله المعطل والمادة الخالقة كما عند أرسطو، وهذا الآله والمثل عند أفلاطون[1].

فالكون عند اليونانيين نشأ من مادة أزلية قديمة وجعلوا هذه المادة إليها ومبدأ للوجود، وكذلك جعلوا من عناصر الطبيعة إلها وحالقا، ثم انتقلت هذه الأفكار المتولدة لدى مفكرى اليونانيين حول العالم وخالقه إلى الحضارة الحديثة بثوب جديد وسيأتي الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله، ويتفق موضوع خلق الإنسان مع حضارة مصر القديمة، وحضارة وادي الرافدين من أن الآله (زوس) خلق الإنسان مع رماد جسد (تيثان) بعد أن غضب عليه وأحرمه، لأنه تمرد عليه وكان مكونا من عنصري الخير والشر[2].

## صورة الكون عند اليونان:

إن صورة الكون عند قدماء اليونان صورة أسطورية كما كانت لدى الأمم القديمة الأخرى، ثم تطورت هذه الصورة عندهم بمرور الزمن، وذلك بربط الحقائق الفلكية بالتصورات الفلسفية، فقد لاحظ اناكسيمندر حركة الشمس والقمر وقال: (أن هناك أنابيب شمسية وأخرى قمرية تتحرك في القبة الفلكية والخسوف والكسوف يحدثان إذا ما أغلقت فتحات في جوانب هذه الأنابيب) [3]، وتصور الشمس بأنها تمر

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 63.
[2] - الفلسفة الإغريقية، ص: 55.
[3] - بدائع السماء، رحلة مع العلم في رحاب الكون، تأليف جيرالد هوكنز، ترجمة د. عبد الرحيم بدر، طبع سنة 1967، مؤسسة فرنكلين، للطباعة والنشر بيروت، ص: 72.

تحت الأرض، واعتقد الفيناغوريون أن الأرض كرة، والقبة الفلكية ثابتة والأرض تدور مرة كل أربع وعشرين ساعة، وظهر الأرض يواجه النار المركزية دائما [1]، ولدى أناكساغورا[2]، تصور عن نشوء الأجرام الكونية فذهب إلى أن الكون (كان كتلة مختلطة بدون انتظام بهيئة فوضى) وأصبح مركز هذه الكتلة يدور بشكل دوامة اتسعت حتى شمل الكتلة كلها، فانفصل الهواء والسحاب والماء والتراب والأحجار عن بعضها بفعل الدوران، بحيث بقيت الأجسام الثقيلة قرب المركز، وبسبب عنف الدوران استطاع الآثير تحطيم الصخور وقذفها متقدمة بعيدا عن الأرض فأصبحت نجوما [3]، وذهب أرسطو( 384-322ق.م) إلى أن الأشياء تسقط دائما تجاه نقطة مشتركة هي مركز الأرض، ولهذا فإنها تتكدس بالقرب من المركز مكونة كرة [4]، ويحيط بالأرض غلاف الهواء وغلاف النار، فالتراب والماء يتحركان نحو مركز الكون أي نحو الأسفل، والهواء والنار يبتعدان عن المركز، إلا أن كرة القمر يوقفهما، والنار أخف من الهواء ولهذا يبقى الهواء حائما فوق الأرض وترتفع النار إلى أعلى[5]. وذهب بطليموس (85-165 ق.م) إلى أن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ممكنا، إلا أنه رفض هذه الحركات بدوافع فيزياوية، وكان الكون عنده محدودا بكرة النجوم الثابتة.

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 75.

(2) - اناكساغوراس (488-428 ق.م) وقيل ولد سنة (500 ق.م) ينظر: كتاب الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى.

(3) - صورة الكون، تأليف مطلب محمد عبد اللطيف منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1979، ص: 25.

(4) - بدائع السماء، ص: 77.

(5) - صورة الكون، ص: 28.

# الفصل الرابع

# الكون في منظور الحضارة الفارسية

# الكون في منظور الحضارة الفارسية

تأثر الفرس في اعتقادهم حول الكون بالديانات القديمة في مصر وبابل واليونان واتصل تاريخهم باليهود عندما كانوا في بابل، وأثبتوا أصلين اثنين مدبرين قد يمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر، يسمون أحدهما النور والآخر الظلام، وبالفارسية (يزدان وأهرمن) ولهم مذاهب حول ذلك، ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين:

**أحدهما**: سبب امتزاج النور بالظلمة.

**والثاني**: سبب خلاص النور من الظلمة.

ويعتقدون أن النور - يزدان - أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقالوا: في سبب خلق أهرمن، أن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون، وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة، وسمي (أهرمن) وكان مطبوعا على الشر والفساد فخرج على النور[1].

ويعتقد الفرس أن أهرمن ويزدان - هرمز - مولدان لآله قديم اسم (زروان) فشك في شيء فحدث أهرمن من هذا الشيء، وحدث هرمز من العلم فكانا جميعا في بطن واحد، وكان هرمز أقرب من باب الخروج، فنذر السيادة على الأرض والسماء لا سبقهما إلى الظهور فاحتال أهرمن وشق بطن أمه وخرج قبله وأخذ الدنيا، وعز على زروان أن ينقض عهده فقرر تحديد موعد لهذه السيادة على أن ينتهي بعد تسعة الآلف سنة، يصبح الحكم لهرمز خالدا بدون انتهاء، وينتهي آله الشر ويسود الخير والضياء[2]، وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين، وان هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة، وأهرمن غافل عنه في قراره

---

[1] - الملل والنحل، الشهرستاني تحقيق محمد سعيد كيلان، الطبعة الثانية، ( 1395هـ) (1975م)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج 1، ص: 233.

[2] - الإلوهية وفكر العصر، تأليف حامد عوض الله، مركز الثقافي الجامعي القاهرة، سلسلة الدراسات العلمية، ص: 23-24. وينظر: كتاب إبليس، عباس محمود العقاد، ص: 79.

السحيق، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه، وجد أن الخير ينتشر فلا يترك ملاذا له، فثار وثار معه خلائق الظلام وهي الشر والفساد، وران هذا البلاء على الكون إلى زمن، زرادشت فكان البشير بابتداء زمان وانتهاء زمان[1].

أما بشأن خلق الكون عند الفرس، فيرى في رواية الخليقة عند زردشت: أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار، فبدأ يخلق السماء ثم خلق الماء، ثم الأرض، ثم خلق النبات، ثم خلق الحيوان وأخيرا خلق الإنسان [2]، وأن المجوس يفرقون بين خالق الطيبات وخالق الخبائث، فالأشياء النافعة من خلق الآله هرمز، والأحياء الضارة من خلق آله الشر [3]، فالشمس في عقيدة الفرس تمثل روح (اهورامزدا) [4] في صورة يستطيع الناس إدراكها لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول، إذ هي كائن مشرق يفيض الخير على جميع الكائنات ويبعث فيها الدفء والنشاط [5] وكان الفرس يعبدون الشمس لأنها مبدأ النور والحرارة، ومصدر الفكر والحياة[6].

وقال زردشت: (النور والظلمة أصلان متضادان وهما مبدأ موجودات العالم، وحصلت التراكيب من امتزاجهما، وحصلت الصور من التراكيب المختلفة، والبارئ تعالى خالق النور والظلمة) [7].

إن العالم في الكتب الفارسية تسوده فكرة الثنائية، فالوجود مزيج من عنصري الخير والشر وهما مبدآن موجودان منذ الأزل، وكان الآله أهورامزدا مشرقا بنوره ومن كلمته الإلهية خلق العالم بما فيه [8]، ونمر زرد مشت، أن للعالم قوة إلهية هي

---

[1] - الله كتاب في العقيدة، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1947. ص: 88، وقصة الأدب في العالم، تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ج 1، ص: 69.
[2] - العقاد، الله، ص: 91.
[3] - قصة الأدب في العالم، ص: 69.
[4] - هو آله الخير (هرمز).
[5] - الله، العقاد، ص: 95-96، والأديان دراسة مقارنة، تأليف رشدي محمد عليان، ص: 126.
[6] - تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، تأليف حنا أسعد فهمي، المطبعة اليوسفية، مصر، ص: 12.
[7] - الملل والنحل، ج 1، ص: 237.
[8] - قصة الحضارة الفارسية تأليف ول دورانت عربة إلى العربية، د. إبراهيم أمين الشوارين، طبع سنة (1947)، مطبعة السعادة بمصر، ص: 42، وتاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، ص: 12.

المدبرة لجميع ما في العالم، والآله عند زردشت عبارة عن مجموعة السموات والأفلاك، واهورامزدا في رأيه يكتسي بقبة السماء الزرقاء وجسده هو النور والشمس والقمر هما عيناه وناظراه[1]، ولكن هناك نصوص في كتابه (زنذا وستا) تدل على التوحيد، ولكن اختلطت عقيدة التوحيد هذه بعبارة عناصر الطبيعة، واتخذ الفرس منها ومن عناصر الكون آلهة لهم، ومما يتعلق بخلق الإنسان يشترك مع المعتقدات البابلية والمصرية من أنه خلق من دم الآله، إذ خلق رجل يقال له كيومرث وحيوان يقال له ثور فقتلهما فنبت من مسقط ذلك الرجل (ريباس) وخرج من أصل ريباس رجل يسمى مشه، وامرأة تسمى ميشانة، وهما أبو البشر، ونبت من مسقط الثور، الأنعام وسائر الحيوانات[2].

أما حضارة الهند فلا تحيد عن هذه الحضارات المذكورة في المبدأ الوثني وإحلال مبدأ الخير والشر وجعل الطبيعة وعناصرها إلها، وكان البرهمية الهندية يرون أن الكائن قبل الوجود في فضاء لانهائي فصاح بشوق ورغبة، فبقوة شوقه وإرادته خلق العالم وحفظ لنفسه اسم برهمة الخالق، ثم وجد الآله (سيوه) المخرب فيه تجف الأوراق وتحل الشيخوخة، محل الشباب، وتبتلع البحر مياه النهر تفنى أيام السنة وتنقضي[3].

---

[1] - قصة الحضارة الفارسية، ص: 42.

[2] - الملل والنحل، ج 1، ص: 234.

[3] - تاريخ الفلسفة من قدم عصورها إلى الآن، ص: 9.

# الفصل الخامس

## النظام الذي بنى على تلك الأفكار

# النظام الذي بني على تلك الافكار

إن المتتبع لأفكار الإنسان في الحضارات الأولى يجدها أفكارا وثنية في شتى أنحاء العالم، كما في مصر ووادي الرافدين واليونان والصين والهند وفارس وغيرهما، وهي تقوم على تعاليم أسطورية عن العالم وعن الحركة العامة في الكون. فالصياد ا لذي كان يجوب القفاز، والبحار أو البدوي الذي كان يسكن الصحارى، والمدني الذي يعيش في المدن والقرى أو على سواحل الأنهار والبحار قديما كانوا وثنيين فالوثنية الأولى كانت تعتبر أطول فترة في التاريخ، فهي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ولا تزال رواسبها باقية إلى اليوم هنا وهناك في بعض أرجاء المعمورة.

غير أن الإنسان في العصور القديمة استطاع أن يربط بين حركته العامة في الوجود وبين مظاهر الكون، والتي كان يتعبدها رهبة منها أو رغبة فيها ويركن بالتالي لقدره وحاضره ومستقبله في عالمه، واستطاع أن يدخل في ميزان الأشياء ومعقوليتها فمعرف الحياة والجدل في السراء والضراء، وأن وقائع تجارب الإنسان الطويلة القديمة والمتعددة في هذه الوثنية دلت على مجموعة من الأفكار عن العالم، مثل مجموعة الطقوس التي صار الإنسان يخضع لها حياته العامة في الوجود وكذلك الخبرات العلمية التي اكتسبها الإنسان من أجل تأمين احتياجاتهم وسد متطلباتهم بقائهم وفيما يلي نوضح دعامة النظام الحضاري في العصور القديمة:

**ولقد قامت الحضارة البابلية على دعامتين واقعيتين هما:**

الديانة المتجددة والتشريع الشعبي، إذ رفعت تعاليم الكهنوت البابلي ولا سيما قصيدة الخلق البابلية، الإله (مردوخ ) إلى مصاف الألهة الكبرى السومرية (آنو وأتليل، وشمس) كما جاء قانون حمورابي يربط فئات الشعب نفسها بالنظام والقانون، وارتبطت المجادلات الشعبية بواقع الحياة [1]، ويرى العراقي القديم أن أصل النظام

---

[1] - برهات تاريخية تأليف عدنان بن ذريل طبع سنة 1973 دمشق، ص: 23.

الكوني في صراع دائم بين مبدأين هما: القوة الدافعة للحركة، والقوة الدافعة للسكون، وفي هذا الصراع يتحقق النصر الأول على السكون، للسلطة فقط، ثم يتحقق النصر الثاني وهو الحاسم للسلطة مرفقة بالقوة، وهذا يعكس في نظرهم تطورا تاريخيا من التنظيم الاجتماعي البدائي الذي لا يملك إلا العرف والسلطة دون دعمهما بالقوة لضمان العمل الجماعي من قبل الجماعة لتنظيم الدولة الحقيقية التي يتمتع بها الحاكم بالسلطة والقوة لتأمين إلا من الذي لا بد منه[1]، وبناء على علاقة نظام الكون بنظام الحكم في المجتمع السومري جعلوا نظام الحكم شديد الصلة بالدين مما دفع أهل كل مدينة أن يختاروا لهم ملكا أو كاهنا يستقلون به، وكذلك تعلموا من مبدأ الصراع بين قوة الحركة المتمثلة في النهار والسكون الممتلئة في الليل الاشتغال بالتجارة وحتى نمت مدنهم مما جعل الانفصال بين هذه المدن أمرا متعذرا فنشأت منها جميعا إمبراطورية استطاعت فيها شخصية قوية أن تخضع المدن والملوك لسلطانها، وأن تؤلف من هذه المدن وحدة سياسية واقتصادية.

اعتقد السومريون والبابليون أن الملك نائب عن الإله ينفذ أمره وحكمه ويمثله في سلطانه ويحيط به جو من العنف شبيه بما كان يحيط الملوك في عصر النهضة الأوروبية[2].

وقد اكتسب القانون في المجتمع السومري والبابلي صفة قدسية يعزى عادة إلى الإله (شمس) إله العدالة، وكان الناس يجدون في ظله ما ينظم قضاياهم إذ كان يهديهم إلى الحق والصواب، قال المشرع حمورابي في آخر قانونه: (في قلبي حملت أرض سومر وأكده وبحكمتي قيدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة فليأت كل إنسان مظلوم ألمم صورتي، وليقرأ النفش الذي على أثرى وليلق بإله إلى كلماتي الخطيرة، ولعل أثرى هذا يكون هادئا له في قضيته ولعله يفهم منه حاله) [3].

---

[1] - ما قبل الفلسفة ص:204.

[2] - قصة الحضارة ول ديوارانت ج:2، ص:26.

[3] - البرهات تاريخية ص:24.

وقد كان البابليون حين جدد و أديانتهم أقاموها على الأسس القديمة وجعلوا الآلهة القديمة تعترف بـ (مردوخ)، وأصبح هوكل السلطة الإلهية المهيمن على الحياة والمقرر لكل مصير، كما أصبح (نابو) ولده آله القد روحا مل الألواح الذي سوف يقاسمه عمله، وقد تفتحت طاقات البابليين على الحياة والواقع، وراح يستفيد من فرص الأمن والسيادة فيحقق حضارة كانت من أسمى حضارات العالم القديم.

أما حضارة مصر القديمة فقد أنشأت على أساس العقيدة السائدة في وادي النيل، باعتبار أن الملك هو الآله الذي ينفذ حكم السماء، وهو المسيطر على شؤون البلاد، والحاكم المطلق لرعيته، وكانت حكومة هذا الوادي من أحسن، الحكومات نظاما وأطورها حياة في التاريخ بالنسبة إلى الحكومات الأخرى أنذاك، فحدث بين سكان وادي النيل على مر العصور أنواع شتى من النظم والتقاليد التي دعت إلى تنظيم المجتمع ونشر سيادة القانون وتنظيم العلاقات وبث الأمن بين الأفراد والحد من نشاط الجريمة، كالقتل والسرقة واقتراف أي عمل إجرامي آخر [1]. وكان الملك يعد أساس البناء الذي يدعم كيان بلده وشعبه ويحرص على رفاهة كحرصه على العدالة بين أفراد الشعب، وجعل الملك قصره مركزا لإدارات الشعب وحكام الأقاليم وإن حكام الأقاليم كانوا يشرفون على الزراعة وجمع الضرائب وتحقيق العدالة نيابة عن الملك وكان الوزير رئيسا لأشغال الملك، ورئيس إدارات الأموال والسلاح، كما كان رئيس القضاء الأعلى، وقد كانت السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية موزعة بين الملك ووزيره، وكان الوزير هو الكاهن الأول في الدولة، كما كان حاكم المقاطعة هو كاهنها فيها[2].

لقد كان الكهنوت المصري القديم حتى آخر العصور الفرعونية عاملا مسؤولا عن واقع الدولة نفسها، وذلك بفعل المناصب الوزارية والإدارية الكبرى التي أنيطت به، فضلا عن أعماله الدينية والتربوية[3].

---

[1] - ديانة مصر القديمة، ص: 177.
[2] - برهات تاريخية، ص: 16.
[3] - المصدر نفسه، ص: 17.

وهكذا يظهر أن سكان مصر كبقية سكان الحضارات القديمة بنوا نظامهم على أساس العقيدة الوثنية التي ينفذها الملك نيابة عن الآلهة، ويربطون واقعهم بواقع الكون وأحداثه ويسعون لتحقيق العدالة في مجتمعهم.

أما حضارة اليونان التي تأثرت بحضارتي وادي الرافدين ووادي النيل، فقد تعود إلى أساس عقيدتهم الوثنية التي تأسست عليها ديانتهم ورغم أن أكثر ملوك اليونان ينتسبون إلى الآلهة زيوس أو أبو زيدون أو أبو هرقل أو غيره ليدعموا مراكزهم في المجتمع إلا أن واقع الحياة سرعان ما كان يتكشف عن النقيض، ويدفع الشعب إلى أن يتشكك في جدوى هذه الخرافات وقيمتها في الحكم والعدالة. واستفاد اليونانيون من خبرات الأمم والشعوب المجاورة لهم حيث أصبحت عامل القفز والتوثب والصراع للوصول إلى ركب الحضارة العالمي آنذاك [(1)]. إلا أن الواقع الإنساني في بلاد اليونان كان يستند تجربته الوجودية الواقعية إلى حركات إصلاحية مدنية واجتماعية وسياسية أكثر مما يعيدها إلى حركات دينية يكرس فيها تعليما من تعاليم الكهنوت كما كان في مصر وبابل وسومر، وقد بذلك محاولات عدة لتنظيم الكهنوت أو تدعيم مشاركته في الحياة، إلا أنه لم تسفر عن نتيجة، فقد راحت المجالس والمؤسسات الشعبية تنافسه سلطته على النفوس وسيطرته عليها، وتقدم الحلول المناسبة للتغلب على مشاكل الحياة والحركة العامة للوجود ومتطلباتها، وسنوا لذلك تشريعات إلا أن الحاكم لا يتقيد كثيرا بهذه التشريعات، مما أدى إلى اندلاع ثورات شعبية وانقلابات يحاول من يجاورونهم التدخل في هذه الثورات لصالح أصدقائهم والماشين في ركابهم والتخلص من جورهم. وكل ما ينتج عن هذه الحضارة الوثنية من معتقدات وعادات هو التحرر من حكم الكهنوتي وتنظيم الحياة وضمان حقوقها وخاضت الإرادة الشعبية من أجل حقوقها أشق الصراعات حتى ظهرت الإرادة الشعبية للنور وبرزت جوانب من حقوقها كانت فيما مضى فارقة في الحكم اللاهوتي والوثني القديم[(2)]. ولا يختلف نظام الحكم في حضارتي فارس والهند عن سابقيهما إذ كان الملك ينفذ حكم الآله، وكان كل ما فعله يعد حقا يضحى من أجله وتم بناء تلك

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 134.

(2) - المصدر السابق، ص: 133.

الحضارة على أساسا تعدد الآلهة والوثنية التي دامت حقبا من الزمن مما يبدو وفيما مضى أن الحضارات القديمة اتفقت من حيث المبدأ والقانون، وإن اختلفت من حيث التطبيق، فكلها وثنية، وإن الملك ينفذ حكم الآله، وله حق التصرف وحده دون منازع.

# الفصل السادس

# الكون في التوراة والإنجيل

# الكون في التوارة والإنجيل

## أولاً: الكون في التوراة:

التوراة أحد الكتب السماوية المنزلة قبل نزول القرآن الكريم أنزلها الله تعالى على سيدنا موسى υ ليهدي بني إسرائيل إلى الإيمان بالله عز وجل وينقذهم من الوثنية ومن فرعون وعمله، ويرشدهم بها إلى معرفته جل وعلا وتوحيده وعبادته.

لقد تناولت التوراة قصة خلق الكون والإنسان ابتداء من بدء الخليقة إلى أن أخذ شكله النهائي، ولم يكن الحديث عن الكون حديث النشأة وجديد العهد عند بني إسرائيل، بل كان قدماء المصريين والبابليين وغيرهم ممن سبقهم، لهم تصورات وكتابات مدونة على رقيم الطين والجريد وسجلوا أفكار متباينة حول الكون ونشأته وعدد السموات والأرض يقول ابن الأجدابي[1]: (تصور أهل بابل في القديم السماء سبع سموات طباقا بعضها فوق بعض، وجعلوا في كل طبعة منها أحد الكواكب السيارة، وجعلوا كل كوكب في سمائه كان الرب الساكن فيها، وقد شاع هذا الرأي في بابل وانتشر عند الأمم الأخرى القديمة كاليونان والسريان وغيرهم، وكذلك أخذ به العرب في جاهليتهم نقلا عن أهل بابل) [2].

بيد أن التوراة صححت للبابليين واليونانيين المفاهيم الخاطئة التي ورثوها عن الحضارات السابقة، ولكن بقيت روايات التوراة حقبا طويلة بعد وفاة موسى υ تتناقل تعاليمها مشافهة، دون أن تدون في كتاب خاص، واستغرق تدوينها بعد ذلك قرونا عديدة إذا أن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان المنفصلة أحدهما عن الأخرى في سفر التكوين، تتحدث أحدهما عن

---

[1] - إبراهيم إسماعيل بن أحمد عبد الله الأجدابي، نسبه إلى أجدابية، توفي نحو ( 470هـ) (1077م)، الإعلام:25/1.

[2] - كتاب الأزمنة والأنواب، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، المعروف بابن الأجدابي المتوفى نحو سنة (470هـ) (1077م)، حققه د. عزة حسن، ص: 11.

الخالق باسم (يهوة) والأخرى تتحدث عنه باسم (الوهيم) ويعتقد العلماء أن القصص الخاصة بـ(يهوة) كتبت في مدينة (يهودا / قدسوان) القصص، الخاصة بـ (الوهيم) كتب في مدينة (افرايم/نابلس) ولما عاد العبرانيون إلى أورشليم من موطن سبيهم في بابل، كتبوا قصة خلال حقبة من الزمن تتعلق بالدنيا، وما لبثوا أن أحدثوا فيها من التعديلات ما يجعلها تلائم فكرتهم في الوحدانية، وتؤيد فكرة العطلة في اليوم السابع من أيام الأسبوع تقول التوراة: (لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك رب يوم السبت وقدسه) [1]، ومن يقرأ نصوص التوراة يتضح له ما حرفه الكهنة من نصوصا وما أدخلوا فيها ما يتلائم مع ما ورثوه واخترعوه من الطقوس وما يخدم سياستهم، فلو طالعنا سفر التكوين من بين أسفار التوراة واخترنا منه قصة خلق الكون نجد أنها سردت قصتين تختلف أحداهما عن الأخرى كما بينا حول المادة التي جبل الله منها الخليقة [2]، ففي القصة الأولى نجد الماء هو العنصر الأول تقول التوراة: (وروح الله يرف على وجه السماء) [3]، وقد قال بذلك المصريون والكلدانيون والفنيقيون والهنود والإغريق وغيرهم، وتقول أيضا: (وقال الله لتغض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض وعلى هذا وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه [4]، أي أن الله خلق كل شيء حي من الماء.

أما القصة الثانية: فتذكر أن الله خلق كل شيء حي من الطين تقول التوراة: (وجيل الرب الآله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء) [5]، ولو قارنا بين القصتين لوجدنا الخلاف ظاهرا بينهما فيما يتصل بالترتيب الذي اتخذه الله في خلق الكون خلال ستة أيام كما يلي:

---

[1] - سفر الخروج: 11/20.

[2] - اليهودية في العقيدة والتاريخ، تأليف عصام الدين حنفي ناصف، طبع سنة (1977)، دار العالم الجديد، القاهرة، ص: 144-145.

[3] - سفر التكوين: 1-2.

[4] - سفر التكوين 1: 21/20.

[5] - سفر التكوين 2: 19.

| القصة الثانية | القصة الأولى |
|---|---|
| **وهي أقدم عهدا من الأولى بثلاثة قرون** | **كتبها الكهنة بعد السبي البابلي بعد موسى υ بسبعة قرون** |
| 1. خلق السموات والأرض. | 1. خلق السموات والأرض والنور والظلمة. |
| 2. كان ينبثق من الأرض ضباب يسقي أديمها | 2. خلق الجلد وجعل بعض المياه فوق وبعض المياه تحت. |
| 3. خلق من التراب إنساناً اسماه أدم. | 3. اجتمعت المياه تحت الجلد في البحار فظهرت اليابسة ونبت الأعشاب والأشجار المثمرة. |
| 4. غرس جنة في عدن شرقا وأسكن أدام فيها خلق حيوانات البرية والطيور. | 4. خلق الشمس والقمر والنجوم وخلق الزحافات (يقصد الأسماك) والطيور والتنانين (يقصد الحيتان). |

ويبدو من هذه المقارنة بين القصتين تحريف التوراة على أيدي الكهنة وتزعم قصة الخلق الموسوية أن الخالق كان قبل، يعيش بلا خليقة وفي يوم الأحد من سنة (400ق.م) عن له أن يخلق الكون فاستحدثه من العدم، دأب يعمل في ذلك ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع[1]، وكانوا يتوهمون أن الظلمة شكل من أشكال المادة، ولذا قالوا في قصة الضربات البشعة التي انحى بها موسى υ على مصر أن الظلام قد اشتدت حلكته في مصر بأمر موسى (حتى يلمس الظلام) [2]، ولقد أخطأ وافي ترتيب

[1] - اليهودية في العقيدة والتاريخ، ص: 148.
[2] - سفر الخروج: 21/10.

الخلق فذهبوا إلى أن الأرض خلق في اليوم الأول في حين أن أمها الشمس لم تخلق إلا في اليوم الرابع، وجعلوا أديم الأرض يكسي بالخضرة في اليوم الثالث فأخرجت الأرض عشبا وبقلا، وجعلوا ترتيب خلق الحيوانات تباين ترتيب رتبها وفصائلها، فقد خلق الحيتان قبل خلق الثدييات تقول التوراة: (فخلق الله التنانين العظام - أي الحيتان وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه.....)[1].

وجعلوا الوحوش تأكل العشب تقول التوراة (ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما) [2]، وفيما يلي نطالع التوراة وسنقتصر على قصة الخلق فيها دون الخوض في تفاصيل التوراة حول الكون اكتفاء بها عن المسائل الأخرى.

## نصوص التوراة حول خلق الكون:

خصص سفر التكوين من أسفار التوراة الخمسة الأولى للحديث عن قصة تاريخ العالم منذ تكوين السموات والأرض حتى استقرار أولاد يعقوب على أرض مصر، ونكرس القول حول خلق الكون فقط تقول التوراة: (في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه) [3]، لقد أشارت التوراة إلى بداية خلق الله السموات والأرض إذا لم تكن شيء على الأرض لم تخلق الشمس والقمر، وكان غارقا في الظلمات، وقبل خلق السموات والأرض كان ماء وروح الله يرف على وجه الماء ولكن لم تشر التوراة إلى مرحلة ما قبل الماء بل أشارت إلى خلق النور تقول التوراة: (ليكن نور فكان نور وراى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا وكان مساء وكان صباح يوما واحد) [4].

إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم ولكن حسب قول التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة، حيث أن أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الفقرة (14) باعتبارها ما خلق الله في اليوم

---

[1] - سفر التكوين: 24/1.
[2] - سفر التكوين: 30/1.
[3] - سفر التكوين الإصحاح الأول آية: 1-2.
[4] - سفر التكوين الإصحاح الأول آية: 3-5.

الرابع ليفصل بين النهار ولينير الأرض، وذلك صحيح، ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية أي النور في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور أي المنيرة في اليوم الرابع، يضاف إلى ذلك أن وضع الليل والنهار في اليوم الأول هو أمر مجازي صرف، فالليل والنهار بكونهما عنصرين ليوم غير معقولين إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت ضوء نجمها الخاص[1].

وتشير الفقرات من ( 6 - 8) إلى تكوين السماوات والأرض من المياه تقول التوراة: (ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلا بين مياه ومياه فعل الله الجلد وفصل بين المياه تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان ذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا).

لقد أشارت التوراة في هذه الآيات إلى خلق السماء وتقسيم المياه إلى طبقتين بواسطة الجلد الذي سيجعل المياه تنصب على الأرض عند الطوفان وعند نزول المطر[2] وسمي الجلد الذي فصل بين المياهين سماء، وتم ذلك أي خلق السماء في اليوم الثاني من الأيام الستة التي خلق الله فيها الكون ولكن تقسيم المياه إلى كتلتين غير مقبولة علميا، ثم تستمر رواية التوراة لتتحدث عن ترتيب توزيع الأرض إلى الماء واليابس وقالت: (لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة وكان ذلك ودعا الله اليابسة أرضا ومجتمع المياه، دعاه بحارا ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر[3] بزرا وشجرا ذا ثمر يعمل تمرا كجنسه بزره فيه على الأرض وكان ذلك فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا[4].

إن تكوين القارات وظهور اليابسة حدثت في مرحلة من تاريخ الأرض حيث كانت مغطاة بالمياه، بعد خلق السماء أمر ممكن ولكن ظهور النباتات عن طريق التناسل قبل ظهور الشمس أمر غير ممكن في هذه المرحلة، لأن تعاقب الشمس على

---

(1) - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاى، ص: 41.
(2) - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 42.
(3) - النص على هذا الوجه.
(4) - سفر التكوين الإصحاح الأول: 9-13.

الأرض وإعطائها الأشعة اللازمة هي التي تعطي دورة الحياة للعالم النباتي، وإن الشمس لم تذكر خلقها في التوراة إلا في اليوم الرابع كما تقول التوراة.

(لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم جعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن وكان صباح وكان مساء يوما رابعا[1].

يفهم من هذا النص أن الشمس والقمر خلقهما الله للدلالة على الأوقات ومعرفة الأيام والسنين، ولتكونا منورين للأرض على التعاقب وخصت الشمس بالنهار والقمر بالليل، ولتكون الشمس فاصلة بين الليل والنهار والنور والظلمة، فالنور الذي في الآية الأولى أمر مجازى وإلا لتضارب النصان وتبطل الفقرة 14 الفقرة 3، ثم تتحدث التوراة عن خلق الحياة على الأرض بكل ما فيها من الماء، تقول: (قال الله: لتفقر المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين - الحيتان العظام في المحيطات - وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها قائلا أثمرى وإملائ المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوما خامسا[2].

وتدل التوراة أن خلق الزحافات والطيور من الماء بعد أن أمره الله تعالى بذلك ثم خلق الله الحيتان وكل ذوات الأنفس الحية من الحيوانات تكل حسب جنسه، ولا شك في أن الماء أصل الحياة إلا أن التوراة لم توفق في كيفية التعبير وإسناد الخلق إلى خالق الماء والترتيب في الخلق، ومن ناحية أخرى يقول سفر التكوين بظهور عالم الحيوان أولا وابتداء من حيوانات البحر والطيور، ولكن لا يشير إلى الحيوانات الأرضية إلا في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وإذن فبيان ظهور الحيوانات الأرضية والطيور على الوجه المذكور غير مقبول تقول التوراة: (وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش كجنسها، وكان كذلك فعمل

---

[1] - سفر التكوين الإصحاح الأول: 14-19.

[2] - سفر التكوين1: 20-23.

الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال الله أثمروا وأكثروا وأملأ و الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض)، وقال الله: (أني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبرز بزرا لكم يكون طعاما، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما وكان ذلك ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا) [1].

وفي وصف تمام الخلق لقد عدد الكاتب كل المخلوقات الحية غير المذكورة سابقا ويشير إلى الأقوات المختلفة والموضوعة تحت تصرف الإنسان والحيوان، وختمت التوراة رواية الخلق بالفقرات الثلاثة الأولى من الإصحاح الثاني إذ تقول: (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله في اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت).

**تتطلب هذه الآيات الثلاثة المتعلقة باليوم السابع هذه التعليقات:**

1. **قولها الجند** : تعني حشد الكائنات المخلوقة [2]، أما كلمة (استراح) تعني ترجمة الكلمة شباط العبرية التي تعني هذا المعنى على وجه الدقة ومن هذا المعنى جاء يوم الراحة عند اليهود (يوم السبت).
2. **أن الراحة التي يفترض أن الله قد أخذها بعد أن عمل ستة أيام هي أسطورة مأخوذة من النص الكهنوتي الذي كتبه الكهنة** : وهم الوريثون الروحيون لحز قيال النبي المنفي مع قومه إلى بابل في القرن السادس ق.م، وأن هؤلاء الكهنة قد أعادوا روايتي الخلق اليهودية والإلوهية، وأعادوا

---

(1) - سفر التكوين 1: 24-31.

(2) - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 44.

صياغتها على مشيئتهم وحسب اهتماماتهم الخاصة التي كتب الأب (ديفون) عنها قائلا: (أن طابعها التشريعي كان جوهريا) [1].أما النص اليهودي الذي يسبق النص الكهنوتي بعده قرون لا يشير إلى راحة الله الذي تعب في عمله طيلة الأسبوع، بل يدخلها الكاتب الكهنوتي في روايته أنه يقسم روايته إلى أيم بالمعنى الدقيق لأيام الأسبوع، ويضع محور الرواية على راحة السبت التي يعللها أمام المؤمنين مؤكدا أن الله هو أول من احترمها.

3. **إن إدراج مراحل الخلق المتعاقبة في إطار أسبوع هذا الإدراج الذي إرادة الكاتب الكهنوتي:** بهدف الحث على الطاعة الدينية لا يقبل الدفاع من وجهة النظر العلمية فمعروف تماما في أيامنا أن شكل الكون والأرض قد تم على مراحل تمتد على فترات زمنية شديدة الطول يصعب تحديدها على وجه الدقة، وحتى إذا كانت الرواية تنتهي مساء اليوم السادس فهي لا تحتوي على إشارة إلى اليوم السابع، يوم الراحة الذي استراح الله فيه، وقد أبطل القرآن الكريم هذا الزعم الذي نسب التعب إلى الله تعالى أثناء عمله في الأيام الستة الأولى، حيث قال الله تعالى: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ)** [2].

4. **معنى الأيام** : لا تعد الأيام أياما بالمعنى الحقيقي، وذلك لاختلاف الزمان طولا وقصرا من مكان لآخر، حسب دورة الكواكب حول نفسها وحول الشمس وبعدها عنها، فأيام المريخ غير أيام الأرض وأيام كوكب المرأة المسلسلة غير أيام كوكب المجموعة الشمسية فإن النصر الكهنوتي يظل غير مقبول، لأن تعاقب الأحداث فيه يناقص المعلومات العلمية الصحيحة، وهكذا إذن تبدو الرواية الكهنوتية للخلق بناء خياليا مبتكرا.

أما فيما يتعلق باختلاف روايات التوراة في الزاوية الكهنوتية والرواية اليهودية في نصوص كتب عهد القديم يدل دلالة واضحة على تحريف نصوصها وتغير ما فيها حسب ما أراده كتاب التوراة لتحقيق رغباتهم والتستر على الحقيقة المبينة في الكتاب

---

[1] - الظاهر القرآنية والعقل تأليف علاء الدين المدرس الطبعة الأولى، 1986، مطبعة العاني، بغداد، ص:102.

[2] - سورة ق الآية: 38.

المنزل على سيدنا موسى υ. وهناك نصوص أخرى في التوراة تتحدث عن الأجرام السماوية والشمس والقمر والزمان وظالمة الليل وغير ذلك وهذه النصوص في سفر أيوب 38: 1-12، وسفر مزامير 90: 4، 103 = 25 ، 104: 19-23.

وفي سفرا شعيا الإصحاح 12: 8 ذكر نشر السماء والأرض ويقول: أنا صنعت الأرض وخلقت البشر عليها يداي نشرتا السموات والأرض وأنا أمرت جميع جندها لأنه هكذا قال الرب خالق السموات الله جابل الأرض صانعها الذي أقرها ولم يخلقها للخوائبل للعمران جبلها أني أنا الرب وليس أخر ويقول سفر 48: (13 يدي أمست الأرض ويميني نشرت السموات وأنا ادعوهن فيقفن معا).

## استنتاج:

1. يوجد تشابه بين قصة الخليقة البابلية (انيوما ايليش) وبين ما جاء في التوراة حول الموضوع في سفر التكوين، فالعماء[1] مظلم من الماء فصل إلى سماء وأرض، وكان هذا العماء في القصة البابلية المادة الأولى وأصل الأشياء.
2. تكون المادة أزلية أي أنها وجدت منذ الأزل، فتولد من هذه المادة جميع الأشياء والموجودات، لكن التوراة تشير إلى وجود الخالق قبل وجود المادة وأن الله موجود منذ الأزل، غير أن القصة البابلية يستنتج منها وجود المادة والخالق في وقت واحد.
3. تتفق القصة البابلية والتوراة في خلق السماء حيث خلق مردوخ من نصف جسم تيامه[2]، السماء ومن نصفه الثاني الأرض بهيئة قبة، وورد في سفر التكوين أن الأرض أول ما خلقت كانت طافية في الماء وفي اليوم الثالث أمر الله أن تجتمع المياه جميعا في موضوع واحد فظهرت اليابسة[3].
4. إن فكرة الخلق عند اليهودية والمسيحية حسب كتبهم وآراء مفسريهم تدل على أن السماء والأرض وجدتا من الماء وليس الماء هنا ماء بمعناه

(1) - العماء شيء غامض غير محدود ولا معين تختلط فيه جميع الأشياء ونشأت منه جميع الأشياء.
(2) - أحد آلهة بابل.
(3) - مجلة سومر، م 5، ج 1، ص: 6-7.

الأرضي، بل كان شيئا آخر وهو ما كان عرش الله عليها حين الإيجاد، فالنصوص في سفر أشعيا تعني إيجاد الماء من العدم، غير أنه لم يذكر فكرة الزمان[1].

## ثانياً: الكون في الإنجيل:

لم يتحدث الإنجيل عن موضوع الكون مثل حديث التوراة له سوى فقرات قليلة في بعض الأناجيل، ونود أن نذكر بعض الفقرات من (انجيل يوحنا) الإصحاح1: 1-5 (في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت عند الله وكان كلمة الله هذا كان في البدء عند الله وكل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان، فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه، وكان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيا إلى العالم كان في العالم، وكون العالم به ولم يعرفه).

وجاء في رسالة بطرس الرسول الثانية الإصحاح3: 5.

(أن السموات والأرض كانت منذ القديم، والأرض بكلمة الله قائمة من الماء وبالماء، وأما السموات والأرض الكائنة الآن فهي مخزونة بتلك الكلمة عينها)، وجاء ذكر الزمان في الإنجيل إذ تقول الفقرة الثامنة من الإصحاح الثالث في رسالة بطرس الرسول: (وإن يوما واحدا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد).

---

[1] - مجلة عالم الفكر الكويت، سبتمبر 1977، الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم، د. حسام الألوسي، ص: 121.

# الفصل السابع
# خالق الكون في التوراة

# خـالـق الـكـون فـي الـتـوراة

كان بنو إسرائيل عند ظهورهم على مسرح التاريخ بدوا رحلا يخافون شياطين الهواء، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال، ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، ذلك أن موسى υ لم يستطع منع أتباعه من عبادة العجل الذهبي وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان القرن آكل العشب رمزا لألههم[1]، وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وجدت في أقدم آثارهم، ومنها الأفعى النحاسي الذي عبدها اليهود في الهيكل إلى أيام حزقيا ل حوالي ( 720 ق.م) وكان بعض اليهود يعبدون (بعل) الذي كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه (بلنجا) إله الهندوس، وذلك لأن في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل وزوج الأرض الذي يخصبها.

كما أن أثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم، وقد صوروا الله تعالى في صورة مجسمة، ووصفوه بصفات لا تليق بذات البارئ عز وجل، من ضعف ونقص وكذب وغفلة كما يروى سفر التكوين عن قصة شجرة المعرفة الإصحاح الثالث الآية الثامنة وما بعدها: (إن الله لما نهى آدم وحواء عن أكل شجرة المعرفة أراد أن يمنعهما من مشاركته أهم صفة من صفاته وهي المعرفة وإبقائها جاهلين، فلما أغرتهما الحية وهي أكثر الحيوانات حيلة كما تقول التوراة الإصحاح الثالث الآية الأولى، أو الشيطان وأكلا من شجرة المعرفة أدركا ما كانا يجهلانه من قبل، فعرفا أنهما مكشوفا السوأتين أنه لا يليق أن يقابلا ربهما على هذه الصورة [2]، ولما قدم الآله نحوهما وسمعا صوت الرب الاله ماشيا عند هبوب النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الاله ادم وقال له ابن

---

(1) - قصة الحضارة، ج 2، ص: 388.

(2) - تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، د. سعدون ساموك، ص: 53.

أنت؟ - كأنه إنسان يجهل مكانهما ولا يعلم أنهما أكلا من الشجرة - فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، وأخذ الاله يستجوبها.

ويذكر سفر التكوين أيضا في الإصحاح السادس آية: 1-7: (أن الله تعالى أولادا من الذكور قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللائي كان عددهن قد كثر في الأرض، فاتخذوهن خليلات و ولدلهم فيهن نسل وهم جبابرة الأرض الذين سكنوا الأرض من قبل الطوفان)[1]. (إلا أن التوراة المنزلة على موسى υ برئة من هذه الخرافات).

وتقول التوراة أيضا أن الاله ظهر عدة مرات على شكل إنسان لكل من سيدنا إبراهيم ويعقوب[2]، وقال ليعقوب (اسمك يعقوب لا يرعى ا سمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل)، إن هذه التصورات الوثنية التي سجلت في التوراة حول خالق الكون أخذت من المعتقدات القديمة في حضارة مصر وبابل بعد احتكاكهم بهم عن طريق التجارة والسبي البابلي، غير أن فكرة اتخاذ اليهود (الاله يهوة) إلها قوميا أكسبت الدبانة اليهودية وحدة وبساطة كانتا سببا في انتشالها من فوضى الشرك التي كانت تسود أرض الجزيرة[3].

ويبدو أن اليهود الفاتحين لأرض كنعان عمدوا إلى أحد ألهتهم باسم (ياه) أو (ياهو) فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلها صارما ذا نزعة حربية، صعب المراس، كثيرة الغيرة للمعبودات المنافسة، وكان الاله الذي يتخذه الأنبياء لدعوة بني إسرائيل إلى مبدأ التوحيد السامي [4]، واعتقد بنوا إسرائيل أن هذا الاله لا يطالب الناس بأن يعتقدوا أنه عالم بكل شيء، وشاهد ذلك أنه يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بأن يرشوها بدماء الكبائش المضحاة لئلا يهلك أبنائهم مع من يهلكهم من أبناء المصريين، وكذلك لا يرون أنه معصوم من الخطأ وأشنع خطأ وقع فيه هو خلق الإنسان ولذلك تراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم، وعلى ارتضائه أن يكون (شاؤل) ملكا، ولم يكن للأمم القديمة اله آدمي في كل شيء كآله اليهود هذا.

---

(1) - سفر التكوين الإصحاح 18 آية 1.
(2) - سفر التكوين الإصحاح 35 آية 9.
(3) - قصة الحضارة، ج 2، ص339.
(4) - اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص: 68.

وأن يهوة في بداية الأمر كان إلها للرعد يسكن الجبال، جعل كتاب التوراة إله الرعد إله الحرب يحارب من أجل شعبه ومن ذلك يقول موسى υ: (الرب رجل حرب) وكان الأنبياء يختارونه لأنه الاله القومي الذي تشخص الشعب فيه حكم بني إسرائيل في السراء والضراء فكان له من النصيب في الارتضاء به أكثر مما رضوا بغيره ويقول جوستا فلوبون: (ولم يعبد بنو إسرائيل حتى دورة الإشارة، وحتى عند أكثر أنبيائهم توحيدا، إلها يمكن أن يكون رب الأمم الأخرى ولم يكن لإصلاحات الأنبياء غير صيغة محلية في كل حين، وكل ما كان يطلبه هؤلاء الأنبياء هو أن يسود في بني إسرائيل عبادة بهوة على حساب المعبودات الأجنبية، ففي فلسطين لم يفكر أحد في اله أزلي شامل قبل اشعيا وارميا) [1]، وقد تأثر اليهود بالديانة البابلية وعبدوا ألهتهم عندما كانوا في المنفى، وأشهر ألهتهم (عشيرة) ( Ashira) عبدها العبرانيون اعتباراً من احتلال أرض كنعان وحتى النفي إلى بابل عام (576 ق.م) واسمها الآخر (اللاه أو اللاتو) وكان الاله الرئيسي لدى كنعاني (اوغاريت) في رأس الشمرا[2].

والاله (عشتروت أناة) (Ashtarut Anat) الآتية من الاله (عشيرة) الكنعانية السابقة، وكانوا يعبدونه إلى جانب (أشتار) ( Ashtar) نجمة الصبح واسم هذا الاله (اناه أو مناه) [3]. فاليهود لم يتركوا عبادة الأصنام حتى في عصر الأنبياء، فجعلوا من الاله بشرا وفي صورة حيوان مقدس عندهم كما صوروا العجل وعبدوه في سيناء حين ذهب موسى إلى الجبل لتلقي الألواح، وعبدوا (تموز) ومولك اله النار وكان يمثل الصاعقة التي تحرق الحصاد وحرارة الشمس الضاربة التي تجعل السهول جدبية، وكان (مولك) إلها مرهوبا فيجب تسكينه، أما بعل - اله الشمس - في معتقدات الحضارات القديمة على عكس مولك فينضج ثمار الأرض ويحمر القطب العطري بين خضرة الغصون[4].

---

[1] - اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص: 69.

[2] - الثورة بين الوثنية والتوحيد، ص: 47، تأليف سهيل أديب، الطبعة الأولى، ( 1404 - 1981) دار النقاش، ص: 47.

[3] - نفس المصدر، ص: 48.

[4] - اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص: 66.

فإذا آلت الأمر إلى البشر فسرعان ما يركن إلى هفوات النفس إلا مارة بالسوء ويهيء من الجو ما يتلائم مع فكرته وما يخدم مصلحته كما فعله كتاب التوراة بالتوراة، وكانت النتيجة كما يقول د. فؤاد حسنين على: (وكانت النتيجة المحتومة لامتداد زمن التأليف وطول عصر الجمع أن خضعت بعض الأسفار لمؤثرات كثيرة عملت فيها زيادة وحذفا، وإلى اليوم فالنزاع ما زال قائما بين رجال اللاهوت حول سفرى الجامعة ونشيد الأنشاد مثلا هل هما من أسفار عهد القديم أم دخيلان عليه) [1].

ومما يبدو من عقيدة العبرانيين أنهم جسموا الاله وشبهوه بالإنسان المحتاج إلى سكني إذ جعلوا السماء مسكنا للاله، وينزل ويسكن الجبال والضباب والرياح والزلازل، كما يزعم العهد القديم أن جبل صهيون وجبل باشان مسكن الآلهة ولا يزال يهوة يتجلى في عمود دخان وعمود النار اللذان كانا دليلين لبني إسرائيل في التيه مع صدروهما عن الريح التي تعبث بالصحراء ولما نشأت الوحدة السياسية أيام داود وسليمان وتركزت العبادة في الهيكل بأورشليم، وأخذ الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة وأصبح يهوة اله اليهود الأوحد، ولم يخط اليهود خطوة نحو التوحيد غير هذه الخطوة، وهي أن لليهود إليها واحدا يعلو على آلهة غيرهم من البشر حتى كان زمن الأنبياء وإن التوحيد في بني إسرائيل إلى يومنا هذا توحيد نسبي ناقص لأنهم كانوا يعبدون إلها قبليا كما كان شأن الأمم القديمة من الصينيين والهند والفرس وغيرهم كثير، ولا يعترف طائفة باله طائفة أخرى، ولن يكون لدى اليهود اله واحد للعالم كله حتى تربط أجزاء الأرض وتؤلف بينها وتجعلها وحدة اقتصادية وجمع الأمم كلها في دولة واحد[2].

وبقيت عبادة يهوة قرونا كثيرة دينا وعقيدة قوامة الخوف لا الحب على الرغم مما بذله سليمان υ من جهود لكي يجعل باللون والنغم عبادة هذا الاله الرهيب ولم يكن الأمن والنظام من الصفات التي سادت طويلا بلاد اليهود أما الحاجة إلى قذف الرعب

---

[1] - الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر ا لزبيدي، ص: 122، نقلا من التوراة عرض وتحليل تأليف د. فؤاد حسنين علي، ص: 16.
[2] - قصة الحضارة، ج 2، ص: 323.

في قلوب الشعب أو الثائرين من الأجانب الخاضعين لسلطانه فقد جعلت معظم الأديان البدائية عبادات قوامها الخوف والرعب.

////////////////

////////////////

# الـبـاب الأول

## الـكـون الـمـنـظـور فـي الـقـرآن الـكـريـم

**ويشتمل على فصول:**

**الفصل الأول: بداية الكون.**

**الفصل الثاني: الغاية من ذكر الكون وفيه مباحث**

**المبحث الأول: غاية ذكرها القرآن.**

**المبحث الثاني: إقامة العدل الإلهي**

**المبحث الثالث: الدلالة على الخالق.**

**الفصل الثالث: نهاية الكون.**

**الفصل الرابع: نظرة القرآن إلى الكون.**

**الفصل الخامس: خالق الكون في القرآن الكريم.**

**الفصل السادس: وصف الكون.**

**الفصل السابع: الحضارة الناشئة من القرآن الكريم.**

////////////////

////////////////

# الفصل الثامن: المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة القديمة.

# الفصل الأول
# بداية الكون

# بـدايـة الـكون

في البدء ... ليس بين العلماء من يستطيع أن يبين متى بدأ الكون وكيف بدأ على وجه الدقة والتحديد لأن عليه أن يبدأ من الأوضاع السائدة الآن، ويرجع في البحث إلى الوراء دهورا عدة تكون معرفته فيها ناقصة، وشأن العالم عندئذ شأن الطفل حين نطلب إليه أن يحدثنا عن كيفية ميلاده أو أن يصف لنا كيف حملته أمه[1].

لقد توصل العلماء في العصر الحديث خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون إلى أن المادة كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن كثيف متماسك، وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل خمسة بلايين سنة على الأقل فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها[2].

ولقد رأى عمانويل كانت[3]، الفيلسوف الألماني الشهير أنه كان في البدء غيمة ضخمة باردة مدومة من الغبار والغاز ويميل الفلكيون المعاصرون لهذا الرأي ويتحمسون له، لأن مراقبهم تبين لهم غيوما سوداً من الغبار بين النجوم، ويجب أن تكون على شبه شديد بالغيمة التي كان يعنيها كانت[4].

ولقد فرض العالم الفلكي (جورج لليمتر) عام ( 1931) أن الكون كان في الأصل كتلة متماسكة عالية الكثافة ( 10 مليون طن لكل سنتمتر مكعب) وكان هذه الكتلة ساخنة جدا تصل حرارتها إلى بلايين من الدرجات وقطرها حوالي 200 مليون ميل وتسمى (البيضة الكونية) وإن هذه البيضة انفجرت انفجارا هائلا فتكونت بذلك نواة النجوم التي تبعثرت بسرعة عالية في جميع الاتجاهات وتجمعت مجاميع من

---

(1) - بدائع السماء رحلة مع العلم في رحاب الكون، تأليف جيرالد هوكنز، ترجمة د. عبد الرحيم بدر طبع سنة (1967) بيروت، المكتبة العصرية، صيدا، ص: 177، وينظر: بداية الكون من الأفلاك إلى البشر، ص: 36.

(2) - العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، ص: 24، وينظر: التفسير العلمي للآيات الكونية، حنفي أحمد، ص: 91، نظرية نشوء الدم العظمي وبداية الكون من الأفلاك إلى البشر، ص: 53.

(3) - ولد في كنمبرج ببروسيا، (1724م)، وتوفي (1804م).

(4) - بدائع السماء، ص: 178.

النجوم بالجاذبية، فتكونت المجرات التي ما زالت تجرى في الفضاء الكوني، وقد استغرقت هذه المراحل زمنا طويلا يتراوح بين: 20 إلى 60 بليون سنة[1].

وفي عام ( 1948) أعلن جامو [2]عن قصة الكون الذي يبدأ بفضاء مملوء بالبروتونات التي انضمت إلى بعضها البعض بالجاذبية مكونة غازا كثيفا أو دخانا ساخنا لدرجة أتاحت حدوث عمليات الاندماج النووي لمختلف العناصر بما في ذلك العناصر الثقيلة المشعة مع وفرة في الحديد والأوكسجين، وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينفجر، وتكثفت سحب من هذا الدخان في أماكن متفرقة مكونة نجوما منفردة ظلت تتناثر من أثر الانفجار، وعندما هبطت حرارتها تغلبت جاذبيتها المتبادلة فتجمعت على هيئة مجموعات تسمى المجرات ظلت أيضا تتناثر وتتباعد دون أن تتوقف إلى الآن[3].

نستنتج فيما مضى أن الكون حادث وليس أزليا، وقد جاء قانون الطاقة المتاحة ليثبت أنه من المستحيل أن يكون وجود الكون أزليا[4]، ويقرر هذا القانون بأن الحرارة تنتقل من الساخن إلى البارد ومن الحرارة الأعلى إلى الحرارة الأدنى حتى يتعادل المستويان فيتوقف التبادل الحراري، ولو كان الكون أزليا بدون ابتداء لكان التبادل الحراري قد توقف في تلك الأباد الطويلة الماضية وللزم أن تكون الحياة قد توقفت قبل الآن بأزمان بعيدة[5].

وبما أن الحياة قائمة الآن ... إذن فالوجود الحراري قائم وبذلك تكون العمليات الكيماوية والطبيعية لتكوين المادة الكونية مستمرة وقائمة ويظهر من ذلك كله أن الكون ليس أزليا، لأن لو كان أزليا لكان من اللازم أن يفقد طاقته منذ زمن بعيد كما قلنا ولانتهت تبعا لذلك كل نماذج الحياة وبهذا الصدد يقول العالم الأمريكي (ادوارد

---

(1) - الكون والإعجاز العلمي في القرآن، ص: 324، وينظر: بصائر جغرافية، ص: 60 وما بعدها.
(2) - أحد علماء الجغرافيا المتحدث عن نشوء الكون.
(3) - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 324، والتفسير العلمي للآيات الكونية، ص: 92.
(4) - الظواهر الجغرافية، ص: 68.
(5) - شهادة الكون، تأليف عبد الودود رشيد محمد، ص: 120، وينظر: الظواهر الجغرافية، ص: 69.

لوثر كسيل): (لقد أثبتت البحوث العملية، دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائيا وجود الاله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته) [1].

ومن الدلائل الأخرى على أن الكون ليس أزليا، العثور على المواد الإشعاعية كالراديوم واليورانيوم وغيرهما مما يدل على أن للكون بداية، فلو كان أزليا لما وجدت هذه العناصر المشعة لأن انحلالها سيكون قد انتهى[2].

إن ظاهرة اتساع الكون وظاهرة النشاط الإشعاعي لأن على أنهما تكونتا في اللحظة المعينة لبدء هذا الكون[3]، ففي البدء خلقت المادة والطاقة من العدم بطريقة لا نستطيع إدراكها ولا يمكن أن نصل إلى كنهها عن طريق ما لدينا من العلم[4].

ولو عدنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنه يشير إلى مادة الكون الأولية في آية من آياته وهي دخانية السماء، ووحدة السماء والأرض أولا ثم فصل بينهما، وذكر في آيات أخرى فكرة الانفجار وتمدد الكون، يقول الله تعالى: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**) [5].

ويقول الله تعالى: (**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**) [6].

فالآية الأولى تشير إلى وجود كتلة غازية ذات ذرات أو جزيئات (دخان)، فالدخان عموما يتكون من قوام غازي تعلق به جزيئات دقيقة[7].

والآية الثانية تشير إلى أن مادة السموات والأرض شيء واحد متماسك (رتق) فَفَصَلَ الله بينهما إذا قال (ففتقناها).

---

[1] - الظواهر الجغرافية، ص: 69.
[2] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 322.
[3] - المصدر نفسه، ص: 322.
[4] - الانفجار الكبير اوميد شمشك، ص: 105.
[5] - سورة فصلت الآية: 11.
[6] - سورة الأنبياء الآية: 30.
[7] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 325.

ويقول المفسرون في تسفير هذه الآية: إن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض [1]، وهي ما تسمى لدى علماء الفلك بالسديم ويسمها القرآن الدخان[2].

وقد سمى سبحانه وتعالى مادة السماء قبل تكوينها بالدخان، لأن الدخان يتكون عموما من قوام غازي حيث تعلق به جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى مواد صلبة أو تتحول إلى مواد سائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر[3]، ولأن مادة السماء الأولية قبل خلقها كان لها من الصفات ما يشبه صفات الدخان العادي الذي يتصاعد من النيران أي أنها كانت مادة مظلمة بذاتها مفككة الأجزاء خفيفة ومنتشرة في الفضاء كما ينتشر السحاب، ساخنة إلى حد ما إذ الدخان لا يصدر إلا من أصل ناري - مظلمة داكنة - وأنها مثل الدخان العادي كانت حاوية لدقائق أنواع المادة الثلاثة من صلبة وسائلة وغازية[4].

وقد ظهر مما تقدم أن العلم الحديث في هذا العرض جاء على وفق ما أشار إليه القرآن الكريم عن الوصل الذي نشأ فيه الأرض والسماء، كما استقر في كلمتهم على أن الكون له بداية مسبوقة بالعدم فوجد بعد إن لم يكن، وهذا يدعو تبعا أن يكون له خالقا خلقه من العدم.

ولكن عندما يذكر العدم لا يقصد به (العدم المطلق)، فذلك غير ممكن، لأننا سنواجه هنا صفة العلم الالهي المطلق المحيط بكل شيء، ولا يمكن تصور أي شيء خارج هذا العلم، بل كل شيء يخرج عن علمه تعالى، ومنه يكتسب وجودا ماديا [5]، كان الله ولم يكن معه شيء، فأوجد مادة الكون.

---

[1] - تفسير الرازي، ج 22، ص: 162، وأضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن الشنقطي، ج 4، ص: 536.
[2] - تفسير المراغي، ج 12، ص: 5.
[3] - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 163.
[4] - التفسير العلمي للآيات الكونية، ص: 211.
[5] - الانفجار الكبير، ص: 103.

وفيما يتعلق بوجود العرش على الماء، وأن الماء والعرش موجودان قبل السماء والأرض يقول أبو مسلم الاصفهاني [1]، في تفسير قوله تعالى: (**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**) [2]، (أنه تعالى لما خلق السموات والأرض جعل بناء السموات على الماء لأن كل بناء يسمى عرشا كما قال تعالى: (**أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ) [3]، أي يبنون، وكذلك قال في وصف القرية: (**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**)[4]، أي أن القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها، وإنما ذكر ذلك لأنه أعجب في القدرة) [5]، وقال صاحب تفسير المنار: (أن الذي دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض وفي أثنائه هو هذا الماء الذي أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الأحياء) [6]، ثم صدر الأمر الالهي بالفصل بين مادة السموات والأرض، فصعد مادة السماء إلى مكانها وبقيت مادة الأرض في مكانها على الهيئة الأولى فكانت سماء واحدة وأرضا واحدة، ففتق السماء سبع سموات، ومن الأرض سبع أرضين[7]، ولو بحثنا عن المادة الدخانية - السديمية - الأولى لوجدنا أنها لم تبق منها شيء، غير أننا نرى مادتها الأولية في صور أخرى وهي الكواكب والنجوم الأفلاك والمجرات[8].

أي أن المادة الأصلية التي كانت في تلك السحابة هي التي نراها اليوم ما زالت موجودة حتى الآن في كل شيء وفي كل مكان[9].

ونود أن نشير هنا إلى بعض المسائل المتعلقة بأطوار الخلق والإيجاد بإيجاز على الوجه الآتي:

---

(1) - محمد بن بحر الاصفهاني (254-322هـ) (868-934م) الإعلام، ج50/6.

(2) - سورة هود الآية: 7.

(3) - سورة النحل الآية: 68.

(4) - سورة البقرة الآية: 259.

(5) - تفسير ا لرازي، ج 17، ص: 13.

(6) - تفسير المنار محمد رشيد رضا الطبعة الثانية، ج 12، ص: 17، وينظر: تفسير المراغي أحمد مصطفى المراغي، الطبعة الخامسة، (1394هـ) (1974م)، ج 12، ص: 5.

(7) - تفسير ابن كثير، ج 3، ص: 177.

(8) - الظواهر الجغرافية، ص: 62.

(9) - بداية الكون من الأفلاك إلى البشر، تأليف جون فايفر، ترجمة د. محمد الشحات الناشر مؤسسة سجل العرب القاهرة، ص: 16.

# المسألة الأولى: مراحل خلق الكون:

من المعروف علميا أن الكون أخذ شكله الحالي خلال أزمان وآماد طويلة سحيقة في القدم، لم يستطع العلم تحديد مدتها على وجه الدقة والضبط، والقرآن الكريم أشار إلى الفترة التي استغرقها خلق السموات والأرض في آيات عدة وهي تؤكد عظمة الله وقدرته في إيجاد الأشياء من العدم خلال الفترة التي يشاؤها وما هو واضح أن الله تعالى لا يحتاج إلى فترة زمنية لإيجاد الأشياء، وإنما ذكر الزمن استئناسا للبشر في التصبر على أداء العمل واتقانه على ما يبدو.

وإن طال به الزمن، لأن الله تعالى إذا أراد أن يخلق شيئا يقول (كُن فَيَكُونُ)له حيث يقول: (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)[1]، وقوله تعالى: (**سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)[2]، ولو تأملنا في مفهوم زمن خلق السموات والأرض لوجدنا أن الله تعالى يقول في بيان زمن الخلق: (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**)[3]، وهنا آيات عدة بهذا المفهوم في سورة يونس الآية: 3، وسورة الفرقان الآية: 59، وسورة السجدة الآية: 3، وسورة ق الآية: 38، وسورة الحديد الآية: 4.

**وقد اختلف العلماء في تحديد معنى اليوم المذكور في هذه الآيات نذكر منها:**

1. ذهب الزمخشري إلى أن المقصود باليوم[4]، ما هو معروف في أيام الدنيا، وليس المقصود أيام الآخرة طوله ألف سنة وقال: (وأما الداعي إلى

---

(1) - سورة يس الآية: 82.

(2) - سورة مريم الآية: 35.

(3) - سورة الأعراف الآية: 54.

(4) - جاء في لسان العرب ج: 2، ص:649 أن اليوم لغة: معروف مقداره من طلوع الشمس إلى الغروب، وجاء بمعنى الوقت مطلقا.

ومنه الحديث الذي رواه الإمام أحمد في سنده ج: 1، ص:448 في موضوع الفتنة عن عبدالله بن مسعود. قال رسول الله ρ ذلك أيام الهرج، قلت ومتى أيام الهرج، قلت ومتى أيام الهرج؟ قال حين لا

هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلاشك أنه داعي حكمة لعلمنا أنه لا يقدر تقديرا الإبداعي حكمة، وأن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته[1]).

2. ذهب مجاهد [2] وغيره من العلماء إلى أن المقصود باليوم في هذه الأيام في هذه الآيات أيام الآخرة وأيام الله المقدرة بمقدار يعلمه تعالى، وقد ورد في القرآن الكريم أن يوم الله ألف سنة من أيامنا قال تعالى: **(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)** [3].

3. يقول موريس بوكاى[4]، أن اليوم يفسر بـ (الفترة أوالمرحلة الزمنية وذلك لأن الكلمة اليوم - إذا كانت مفردة تنحو للدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين طلوع الشمس وغروبها في اليوم التالي، أما إذا كانت جمعا فلا تعني فقط أيام أي وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، بل تعني أيضا دهرا طويلا أو فترة زمنية غير محدودة وإن طالت[5].

وإن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) الخلق ليس إلى أيام بالمعنى الذي نفهم عادة بل إلى نوبات ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة التي أدت إلى تشكل العالم هو ستة مراحل، ولكنه أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جداً[6].

---

يامن الرجل جليسه). ورواه أبو داود بلفظ (تلك الأيام الهرج لا يأمن الرجل جليسه) الحديث في سنن أبي داود الفتن، وفي كتاب بذل المجهود في حل أبي داود، ج 17، ص: 160، لمؤلفه العلامة الشيخ خليل أحمد السهار نفورى المتوفى سنة (1346هـ) وينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 13، ص: 18، رقم الحديث (7064)، والبخاري بشرح الرماني الفتن 5، رقم الحديث ( 6640) ج 24، ص: 152. الطبعة الثانية، (1401هـ) (1986م)، بيروت، لبنان ولم يختص وقته بالنهار دون الليل.

[1] - التفسير العلمي للقرآن، د. هند شلبي، ص: 60-61، نقلا عن تفسير الكشاف، ج 3، ص: 288.

[2] - مجاهد بن جبر (21-104هـ) (642-722م) تابعي مفسر.

[3] - سورة الحج الآية: 47.

[4] - طبيب فركسي، عنى بالدراسات العلمية ومقابلتها بالكتب المقدسة.

[5] - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 159.

[6] - المصدر نفسه، ص: 159-160.

فالقرآن الكريم أشار إلى أن خلق الأرض تم في يومين، يقول اله تعالى: **(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ )** ، أي أن الله تعالى خلق الأرض كمادة أولية متخلخلة في يومين ثم خلق فيها رواسي برزت إلى أعلاها، لتستقر الأرض، وقدر في هذه المادة أقوات الكائنات الحية من نباتات ومياه وكل ما يحتاجه الكائن الحي في يومين آخرين، فيكون المجموع أربعة أيام.

ثم ذكر الله تعالى في الآية نفسها خلق السموات ويقول: **(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ∃ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)**[1]، أي أنه تعالى جعل من السماء سبع سموات بكل ما فيها من كواكب ونجوم وشموس وأقمار فأوجدها في يومين على ما هي عليه، فالمجموع ست مراحل زمنية طويلة غير مقيدة يعلمها الله تعالى، وقد استشكل البعض عندما نظروا إلى مراحل الخلق الستة بالنسبة للأرض والسموات ووجدوا أنه سبحانه وتعالى أشار في آية إلى أن خلق الأرض كان في يومين، وفي آية أخرى أشار إلى أنه جعل الرواسي في الأرض وقدر أقواتها في أربعة أيام، وأشار في آية أخرى أنه خلق السموات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام لا ستة أيام كما أشار سبحانه في مراحل الخلق[2].

والواقع ليس هنالك أي أشكال، لأن الله تعالى بين هنا إتمام خلق الأرض فقال: خلق الأرض في يومين، ثم يتم الحديث عن الخلق فيقول: فجعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام، أي خلقت الأرض في يومين ثم أتممت خلقها في أربعة أيام، إذن فعدة الخلق بالنسبة للأرض أربعة أيام وليست ستة، فكأن اليومين إلا ولين جزء من الأيام الأربعة ولذا نجد أن القرآن يسد الباب أمام الذين يريدون أن يشككوا في أمر القرآن وبدأ بقوله تعالى: **(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ )** ،

---

[1] - سورة فصلت الآية: 9-12.

[2] - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 160.

ليقول لنا من هم الذين سيجادلون في هذه الآية وينشرونها بالطريقة التي تهواها أنفسهم للإضلال في سبيل الله[1]؟

## المسألة الثانية: عدد السموات والأرض:

ذكر القرآن الكريم عدد السموات والأرض مقرونا برقم ( 7) في عشرات من آياته إشارة إلى تعدد العوالم فلكيا، واستخدم رقم ( 7) أربعا وعشرين مرة [2]، وكثيرا ما يعني التعدد، وفي القرآن يعود الرقم ( 7) على السموات بمعناها الصرف سبع مرات، ويقول الله تعالى: (**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**)، تامات الخلق والتكوين [3]، وعبر القرآن عن السموات بالطرائق حيث قال الله تعالى: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ**)[4]وبالطباق[5]، وقال الله تعالى: (**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً** )[6]، وفي سورة نوح الآية: 15-16، جاء ذكر السماء بمعنى الطباق أيضاً وبمعنى الشداد، كقوله تعالى:(**وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً**)[7] ، هذه الآيات وغيرها تشير إلى أن السموات متعددة وأنها سبعة مصممة على شكل فلك مستدير مقفل على نفسه أي محدود بدليل قوله تعالى: (**يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**)[8]، فالقطر الذي جمعه أقطار فإنها تعني الجوانب التي يتوصل منها إلى داخل الشيء نفسه، فإنها وردت كذلك في قوله تعالى: (**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا**)[9]، فاستعمل هنا كلمة الدخول - وفي أية الرحمن كلمة النفاذ، فإن الدخول إنما يتصور في الشيء المفتوح بأية الذي لا يمتنع بنفسه عند الدخول فيه، وكلمة أقطار مضافة إلى السموات أو

---

[1] - معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، ص: 67.
[2] - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص: 163.
[3] - تفسير المراغي، ج 1، ص: 76.
[4] - سورة المؤمنون الآية: 17.
[5] - الطباق: طبقة بعد طبقة.
[6] - سورة تبارك الآية: 3.
[7] - سورة النبأ الآية: 12.
[8] - سورة الرحمن الآية: 33.
[9] - سورة الأحزاب الآية: 14.

الأرض بمعنى الجوانب في غاية الدقة والفصاحة في الدلالة على مناط التحدي القائم لعالمي الإنس والجن على حد سواء [1] ، لأن قطر الدائرة: هو الخط المستقيم الذي يقسمها إلى نصفين متساويين، ونصف القطر هو المسافة الممتدة بخط مستقيم من أي نقطة على السطح إلى مركز الدائرة.

أما السماء في اللغة كل ما علا وارتفع فوق رؤوسنا ويطلق على السحاب وسقف البيت والغلاف الجوي للأرض، أما السماء بمعناها الاصطلاحي والشرعي: عبارة عن السقف المادي المحيط بكل ما في داخله من مجرات مع ما تحويه من الشموس والنجوم والكواكب[2] وهو ما تقترب منه نظرية النسبية. وإن حمل الألفاظ القرآنية على الحقائق الشرعية مقدم على حملها على الحقائق اللغوية، إلا إذا وجدت قرينة تستوجب حمله على الثاني دون الأول.

وقد أخبر الحق عن هذه الحقيقة على لسان الجن من أنهم كانوا يقتربون من السماء الدنيا ويسترقون السمع في قوله تعالى:(**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ** )[3]، وقوله تعالى: (**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً**)[4] ، وأكد حديث الإسراء والمعراج أن للسماء سقفا ماديا عندما أسرى برسول الله ρ[5]، **واختلف العلماء في تفسير سبع سموات على أقوال:**

1. ذهب بعض العلماء إلى أن السموات السبع المذكورة في القرآن هي الكواكب السيارات السبع وإنما خصت بالذكر لأنها أعظمها وأكثرها وأن القرآن لم يذكرها في موضع واحد على سبيل الحصر فلا ينافي ذلك أنها أكثر من سبع[6] إلا أن هذا الرأي لا يستقيم أمام البرهان العلمي لأن السيارات أكثر مما ذكر.

---

[1] - الإعجاز القرآني، ص: 239.
[2] - الإعجاز القرآني، ص: 241.
[3] - سورة الجن الآية: 9.
[4] - سورة الجن الآية: 8.
[5] - تفسير ابن كثير، ج3، ص: 2-3 .
[6] - تفسير القاسمي، تأليف صديق حسن القاسمي، ج 2، ص: 91.

2. قال بعض علماء اللغة أن العرب تستعمل لفظ سبع وسبعين وسبعمائة للمبالغة فالعدد إذن غير مراد [1]، إلا أن تأكيد الآية على سبع سموات في سورة (المؤمنون) لا يدع مجالا للشك والتأويل حيث يقول تعالى: (**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** )[2]، وإن العدد ( 7) قليل لا يستعمل للمبالغة كما يستعمل ( 70) فدلالته على الحصر أولى، حيث لا منافات بين عدد السموات وكثرة المجرات، التي خلقها الله محتوية على ملايين النجوم والكواكب المستديرة كالشمس والقمر والكواكب وكلها تسبح في أفلاكها بحركات دائرية كل في محيطه.

عـد د ا لأ ر ض**:**

أما عدد الأرض فقد اختلف العلماء في عددها، حيث يفهم من قوله تعالى: (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ) [3]، إن الأرض مثل السموات سبع، وفي توجيه السبع وردت الأقوال التالية:

1. **من العلماء من قال**: أن الأرض مثل السموات في العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة، فتعين العدد ( 2)، وإن الأرضين ملتصقة بعضها ببعض لا يفصل بينهن شيء[4].
2. **ومنهم من قال** : أنها سبعة أقاليم فصل بينهم المياه والمحيطات [5]، وقال ابن كثير: (من حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة[6]، وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند) [7].
3. **قال بعض المتكلمين**: أن المثلية في العدد خاصة وإن السبع متجاورة وثبت في الصحيحين (**من ظلم قيد شبر في الأرض طوقه من سبع أرضين** )

---

[1] - المصدر نفسه: 2/92-93.
[2] - سورة المؤمنون الآية: 86.
[3] - سورة الطلاق الآية: 12.
[4] - العلم الحديث حجم للإنسان أم عليه، ص: 41.
[5] - تفسير النسفي، ج 2، سورة الأنعام الآية: 1، ص: 2.
[6] - النحعة: طلب الكلأ في موضعه، أي أبعد الطلب في موضعه.
[7] - تفسير ابن كثير، ج 4، ص: 385.

[1] ، وجلا في تفسير النيسابورى (مثلهن) أي في الخلق لا في العدد، وقيل سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض كالسماء وقد أفاد الدكتور محمود سراج الدين عفيفي، أن الدراسات الجيوفيزيائية أثبتت أن الأرض مكونة من:

1. الغلاف الهوائي.
2. الغلاف المائي.
3. القشرة الأرضية.
4. طبقة من السلكيات الخفيفة والثقيلة.
5. طبقة الأكاسيد والكبريتيدات.
6. وسائل من الحديد والنيكل.
7. نواة الأرض المكونة أيضا من الحديد والنيكل[2].

**وعليه يمكن القول بأن الأرض سبع أرضين لكنها متلاصقة بعضها ببعض لا يفصل بينهما فاصل وذلك لوجوه:**

**أولاً**: أن الله تعالى ذكر أنه خلق سبع سموات طباقا وقال: (**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً** )[3]، أي طبقات ليست متلاصقة أما الأرض فلم ترد فيها كلمة طباقا.

**ثانياً**: أن الله تعالى ذكر الأرض في القرآن الكريم بلفظ المفرد، والسموات بلفظ الجمع في آيات كثيرة كما في آية 29 من سورة البقرة:(**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ** )، والآية الأولى من سورة الأنعام: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** )، وأية 3 من سورة السجدة: (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**)، وآية 6 من سورة طه: (**يعلم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا**

---

[1] - رواه مسلم ورواه البخاري في كتاب المظالم وكتاب بدء الخلق.
[2] - العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، نقلا عن قوانين الله وليست قوانين ا لطبيعة، ص: 115.
[3] - سورة الملك الآية: 3.

**تَحْتَ الثَّرَى**)، وآيات أخرى كثيرة يدل على أن الأرض وحده متماسكة لا يفصل بين طبقاتها السبعة شيء، وأن السموات سبع سموات طباقا مفصولة بعضها عن بعض كل سماء مستقلة بذاتها.

**ثالثاً**: إن قوله تعالى: (**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** )[1]، يدل على أن كل سماء مستقلة بذاتها منفصلة عن الأخرى بخلاف الأرض، أما قوله: (**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ** ) بصيغة ا لمفرد، فعندما كانت السماء مادة واحدة من الدخان، قبل أن تجعل سبع سموات.

**رابعاً**: يفهم من قول الرسول ρ (من أخذ شبراً من الأرض ظلما طوقه الله إلى سبع أرضين) [2]، أن الأرض سبع أرضين من حيث العدد، وإنها كتلة واحدة لا يفصل بينهما فاصل.

---

[1] - سورة فصلت الآية: 12.

[2] - رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، وكتاب المظالم.

# الفصل الثاني

## غاية القرآن من ذكر بعض مظاهر

# المبحث الأول

# الغاية التي ذكرها القرآن

أن الكون مركب في وجوده من أجزاء متعددة على نحو تنظيمي معين يستنتج غايات هامة للإنسان، وكل جزء من أجزائه يندفع إلى تحقيق غايات معينة بالتألف مع الأجزاء الأخرى، وكذلك مجموع الأجزاء تندفع إلى تحقيق غايات نوعية ضمن شروط دقيقة لو تخلق بعض منها بما تحقق تلك الغايات ولدب الفساد فيها [1]. فعندما ندقق النظرة في أجزاء الكون في وضعه الحالي، والأنظمة العديدة المتداخلة مع بعضها البعض والموجودة في كل كائن من المخلوقات سنجد مدى روعة الدقة والتنظيم والتخطيط فيها، وكذلك في أجزاء أجسادنا، وفي الماء الذي نشربه وفي الطعام الذي نتناوله ... وفي الهواء الذي نستنشقه، وهذه الأمور تبرهن لنا بأن هذا الكون لم يخلق عبثا، وإن وراءه خالقا ومدبرا أوجد فيه هذا النظام البديع [2]، فقال سبحانه وتعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ∃ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**)[3].

فالحق الذي خلق الكون وأودع فيه أسرارا ونظما كثيرة مهد السبيل لظهور الحياة فيه. وبلغت القرآن الكريم نظر الإنسان في كثير من آياته إلى خلق الكون، وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة وناموس معين، وإلى أن الإنسان مخلوق قصدا وغير متروك سدى، خلقه الله ليكون خليقة في الأرض، ووهبه من الطاقات المكنونة ما يتمكن به من القيام بالأعباء والواجبات المفروضة عليه، وسخر له من القوانين الكونية ما يعنيه على تحقيقه، ونسق بين تكوينه هذا الكون ليملك العمل والإبداع والحياة[4].

---

(1) - ينظر: كبرى التعيينات الكونية، محمد سعيد رمضان السيوط، ط 5، دار الفكر، بيروت، (1347هـ)، ص: 92.

(2) - ينظر: شهادة الكون، ص: 133-134.

(3) - الآية الدخان الآية: 38-39.

(4) - مجلة كلية الشريعة بالإحساء، ص: 406.

ومن النسق الكوني والتوازن في خلق الله تعالى نجد أن الله تعالى جمع بين عالم الغيب والشهادة وبين السماء والأرض في نظام الكون، وبين الدنيا والآخرة في نظام الدين، والروح والجسد في نظام الإنسان والعبادة والعمل في نظام الحياة وسلكها جميعا في نظام موحد ليكون هذا سبيلا إلى الله تعالى [1]. ففي المشهد الكوني العظيم الذي ينطبق بآيات القدرة المبدعة التي تكشف عن دقة التنظيم والتقدير، والتي تكشف عن قدرة الخالق العليم وعمق هذا الجمال في تكوينه تبرز غاية التكوين وواجباته الموكولة إليه في أجزاء كل آية متعلقة بهذا الوجود من سمائه وأرضه وما فيهما.

ففي قوله تعالى: (**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ....**) [2]، ندرك أن الغاية الأولى من خلق البروج زينة السماء كما يقول تعالى :(**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** )[3]، ويقول الله تعالى :(**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**)[4]، فالزينة مقصودة للناظرين المفكرين والباحثين المعتبرين، ومع الزينة الحفظ والنقاء، يقول تعالى: (**وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ** )[5]، ويقول: (**وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ**) [6]، حتى لا ينالها ولا يدنسها الشياطين، ولا ينفث فيها من شرهم ورجسهم وغوايتهم، فالمساء رمز السمو والارتفاع فالشيطان مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها [7]، لتبقى السماء بأهلها آمنة من شرهم، وقد أعد الله فيها حراسة مشددة، فمن حاول الصعود إلى السماء واسترق السمح يجد مع الزينة والحفظ الشهاب الراصد، فهذه غاية من غايات خلق البروج والكواكب العظام، ولأن يهتدي الإنسان بالنجوم في ظلمات البر والبحر وهو يمشى في مشارق الأرض للتجارة وكسب المال، ويقول تعالى: (**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ) [8]، قال قتادة: (إنما خلق الله النجوم

---

[1] - دراسات إسلامية معاصرة، تأليف أنور الجندي، الطبعة الأولى، ( 1403هـ) (1982م)، من منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت، ص: 40.

[2] - سورة الحجر الآية: 16.

[3] - سورة الملك الآية: 5

[4] - سورة الصافات الآية: 6.

[5] - تفسير الواضح للجحارى، ج 1، ص: 524.

[6] - سورة الصافات الآية: 7.

[7] - في ظلال القرآن، ج 4، ص: 133.

[8] - سورة النحل الآية: 16.

لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، ومعالم للطريق، ورجوما للشياطين فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به) [1].

فلو تأملنا في إرساء الجبال على الأرض في قوله تعالى: **(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ )** [2]، لوجدنا أن الغاية الأساسية لخلقه.

1. أنها تحافظ على توازن الأرض عن الميلان، وقال الكوفيون لئلا تميد بكم [3]، حيث لم يذكر العلم ذلك ولم يتعرض لها من قبل، ولكن يعلل وجودها بقوله: (إن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد، وأصبحت الجبال أوتاد الأرض وتحافظ على الغلاف الجوي للأرض إضافة إلى حفظ التوازن مع الجانب المائي) [4].
2. إن منابع الأنهار غالبا تكون في الجبال إذ تتكون السحاب الثقال على مرتفعاتها وتتساقط الأمطار والثلوج وتختزن المياه في منابعها داخل الجبال، وبعد ذوبان الثلوج على مرتفعاتها وتعود مياها وتجرى هينا حتى تعود إلى البحر ثم تتبخر ثانية وتتساقط مطرا على قمم الجبال[5].
3. لتكون علامات دالة على الطرق والسبل المؤدية إلى المدن والقرى المشيدة على الفجاج ليهتدي بها السالكون كما يهتدي بنجوم السماء في البر والبحر، فيلتقي غاية النجوم والجبال مما خلقا لها للدلالة على عظمة الله تعالى.

أما الغاية من خلق الليل والنهار وتكوير أحدهما على الأخر فلمعرفة المواسم وأوقات العبادة والتجارة، ويقول تعالى: **(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**

---

[1] - فتح البيان في مقاصد القرآن، تأليف محمد صديق خان، ج 5، ص: 227.
[2] - سورة النحل الآية: 15.
[3] - فتح البيان في مقاصد القرآن، ج 5، ص: 226.
[4] - في ظلال القرآن، ج 4، ص: 163.
[5] - في ظلال القرآن، ج 4، ص: 162.

**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ) [1]، فالليل والنهار آيتان دالتان على أحكام نظام الله وقدرته فالليل سكون وهدوء والنهار حركة وحياة وأبصار بانتظام من أجل أن:

أ. أن تبتغوا في النهار رزقا مما أعد الله للأحياء على الأرض إذ يقول تعالى: (**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ** ) [2]، فالرزق تابع للحركة والسعي والعمل، والليل للراحة والإخلاد إلى النوم ليعيد النشاط والقوة.

ب. ولتعلموا عدد الأشهر والسنين والحساب ومواقيت الصلاة والصوم والحج، فلو كان الليل والنهار لا يختلفان في شيء أبدا من حركة وسكون ونور وظلام وطول وقصر وبرد ودفء لما تيسر معرفة السنين وحسابها[3].

ولو بحثنا عن الغاية في خلق البحار في القرآن الكريم لوجدنا أن القرآن يرشدنا إلى أن الحياة على هذه الأرض مربوطة بوجود الماء وتصفية الهواء ونقائه يقول الله تعالى: (**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**) [4]، وسخر البحر ليركبه الإنسان ويبتغي من رزقه، يقول الله تعالى:(**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) [5].

يشير القرآن الكريم إلى أن الإنسان يحظى برعاية الله تعالى الذي سخر الخلائق الكونية الهائلة له، لينتفع بها على شتى الوجوه منها الإهداء إلى سر الناموس الإلهي الذي يحكمهما، والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها، وعرف منه عن هذه الفلك التي تسخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على أمواجه الجبارة ولا تخشاها[6]، (لتجرى الفلك فيه بأمره) أي أن خالق الكون جعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تسير الفلك على ظهره بأمره

---

[1] - سورة الإسراء الآية: 12.
[2] - سورة الملك الآية: 15.
[3] - تفسير الواضح، ج 1،
[4] - سورة الأنبياء الآية: 29.
[5] - سورة الجاثية الآية: 12، وكذلك سورة الإسراء الآية: 66، وسورة فاطر الآية: 12.
[6] - في ظلال القرآن: 3226/5.

تعالى: (ولتبتغوا من فضله) كالصيد للطعام وللزينة [1]، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة وسائر ما يبتغيه الإنسان من فضل الله[2].

هذه الآيات وآيات أخرى ترشد الإنسان إلى التأمل في الغاية التي من أجلها خلق الله أجزاء الكون، وليطلع على أسراره وتبين للناس هذه الحقائق التي يؤيدها العلم الحديث، وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الارتباط بذلك، الأفق وإدراك ما بينه وبين الكون من وحدة في المصدر أو وحدة في الاتجاه إلى الله تعالى.

[1] - بأن يخرج القواقع التي يتكون في جسمها اللؤلؤ نتيجة دخول جسم غريب فيها كحبة رمل، وكذلك النبات الحيواني التي يكون شعاعا مرجانيا.

[2] - المصدر نفسه.

# المبحث الثاني

# وحده نظام الكون وربط الإنسان به

لقد أقام الله تعالى هذا الكون على قانون ونظام يحكمه ابتداء من خلقه إلى نهايته وإن هناك تناسقا بين النواميس التي تحكم الكون كله بما فيه هذا المخلوق - الإنسان - وقواه وطاقاته كي لا يقع التصادم بين هذه القواميس وتلك، وحتى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة، وأراد الله أن يطلق يد الإنسان وأعطاه القدرة على استثمار الأرض وربطه بالكون وحثه على التفاعل معه بالفكر والتأمل الهاديين إلى الدليل على وجود الله ووحدانيته وسائر كمالاته، وليتخذ من قوى الكون المودعة فيه بواسطة الاكتشاف والاختراع ما به يقوى ويعز ويدافع عن الحق الذي ندبه الله بما خلق في هذا الكون من طيبات ينعم بها فيؤدي شكر خالقها.

وإن ظاهرة ربط الإنسان بالكون تتجلى بوضوح حتى فيها هو من قبيل العبادات العملية والأحكام الشرعية الدائمة بدوام الكون إلى أن تقوم الساعة ويرث الله الأرض ومن عليها[1]، والاتصال بالكون ومظاهره في كل مجالات الحياة لينضم الإنسان إلى وحدة النظام الإلهي في الوجود، واتخذ القرآن من نظام الكون وإبداعه وإتقان صنعه، وتناسقه التام بين أجزائه برهانا على وحدانية الله سبحانه وتعالى[2]، الذي جعل نزول القرآن منجما تبعا للحوادث والظروف من أجل أن يقرأه الرسول على الناس مكث، ومن أجل سهولة الحفظ في الصدور وتعينه النفوس ويفهم معناه فهما علميا تطبيقيا،

---

(1) - مجلة الهدى الإسلامي، تصدر عن جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية بالمملكة الليبية، السنة السابعة، العدد الثاني، يونيو، 1968، مقالة الكون والإنسان في القرآن بقلم، د. عبد الغني الراجحي.

(2) - المصدر نفسه، ص: 62.

وليكون قانونا ودستورا يحكم به حسب ما أمر الله به[1] ويقول تعالى: (**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً**)[2].

وكذلك أن الإنسان في الحقيقة هو قيمة الموجودات في هذا العالم، وهو بمثابة مرآة تتجلى فيها الكون كله[3]، أي تتضح فيه الغاية التي خلق من أجله وهي معرفة الله تعالى التي هي من لوازم الإنسانية، وعبادته التي يدخل فيها مدلول الخلافة، إذ أن العبادة تتمثل في أمرين:

1. استقرار معنى العبودية لله تعالى في النفس.
2. التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير والجوارح والحياة، والتجرد من كل شعور آخر من كل معنى غير معنى التعبد لله وبكل ذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح العمل كالشعائر والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله وغير ذلك، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله تعالى دون سواه، وتحقيق الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها[4]، ومن يتدبر في خلق السموات والأرض وما فيها من دقة ونظام وحكمة وتنسيق ملحوظ يتضح له عظمة الخالق الذي أعطى كل ذي حق حقه ولا يرى من تفاوت في خلقه، ويظهر القصد في إيجاده وانتفاء العبث في أي جانب من هذه الخلائق الهائلة[5].

وهكذا تبدو الغاية في هذا الكون الفسيح وفي الإنسان من أجلى مظاهرها أمام العقل المنصف الذي عرف حدوده وتخلى عن غروره، وما أجمل عبارة اينشتين:

(الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعسا فحسب ولكنه غير مؤهل للحياة) [6].

---

[1] - ينظر: تفسير الواضح، ج 1، ص: 579.
[2] - سورة النساء الآية: 105.
[3] - الإنسان والكون في الإسلام تأليف أبو الوفا الغنيمي التفنازاني، طبع سنة 75، ص: 73.
[4] - ينظر: في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3386.
[5] - ينظر: في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3216.
[6] - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 145، وينظر: الإنسان والكون في الإسلام، ص: 78.

ويتحدث ابن القيم عن التوافق العجيب بين الكون والإنسان مبينا: (أن كل ما في العالم من كائنات قد خلق على نحو يتوافق تماما مع مصلحة الإنسان ومتطلبات حياته، بحيث لو خلقت هذه الكائنات على نحو آخر لفاتت الحكمة المقصودة من خلقها وإيجادها[1].

[1] - مجلة كلية الشريعة في الإحساء، ص: 430.

# المبحث الثالث
# دلالة الكون على الخالق

لو بحثنا عن الخالق عن طريق آثاره لوجدنا أن كل ذرة من ذرات هذا الكون ترشدنا إلى وجود خالق مدبر لهذا الكون، ويمتلك الإنسان من آلات، التفكير والبحث في هذا الكون الفسيح ما لا يملك غيره من الكائنات، ليبحث بواسطة هذه الآلات دقائق تكوينه وأجزائه، وليعلم أن هذا التناسق البديع بين عناصره لا يمكن أن تنشأ من تلقاء نفسها أو عن طريق الصدفة، بل من صنع آله حكيم عليم لا ندرك كنهة.

وكذلك إن العلوم البشرية التي تكونت قواعدها بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله تعالى بطرقها المادية أو أن تدرك كنه ذاته تعالى، ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيرا من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون الفسيح من مدبر لا نراه، ويقول (تشارد والش) أحد علماء الفلك:

(إن ما يطلب إلى أي إنسان سواء أكان مؤمنا أم ملحدا هو إن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون).

ويقول توماس ميللر عالم من علماء الطبيعة: (أن ما يستطيع أن يدركه العقل البشري الفاني عن الله لا بد أن يكون نتيجة خبرة ومعرفة بالله والخبرة لا بد أن تأتي أولا، والمعرفة تأتي بعد الخبرة وتكون مجرد تفسير لها)[1]. فإن الدوافع الداخلية التي تدعو البشر إلى الإيمان بالله متنوعة وكثيرة لا يحصيها حصر ولا عد، ولكنها قوية في دلالتها على الخالق مؤدية إلى الإيمان به.

ولو نظرنا في نظام الكون المتطور لوجدنا أن هناك قصدا معينا أو غاية وراءه قائم على أساس الحكمة، وهو واضح من اختلاف الليل والنهار وتعاقب الشمس والقمر

---

[1] - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 61، مقالة برفنج وليام نوبلوتشي، أستاذ العلوم الطبيعية في أمريكا، عنوان المقالة (المادية وحدها لا تكفي).

وحدوث فصول السنة، واختلاف الألسن والألوان دليل للعالمين بشؤون الكون وقوانين الحياة على وجود الله تعالى وراء هذا الكون.

لقد حث القرآن الكريم الإنسان على التفكر والنظر في آثار خلق الله المنظورة[1] من السموات والأرض بمعانيها اللغوية والاصطلاحية [2]، ليكون ذلك النظر سلما للوصول إلى وجود الخالق الذي أمر الإنسان بالتفكير والنظر وقال: (**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**)[3]،وقال الله تعالى: (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ**) [4]، لأن النظر والتدبر في أجزاء الأرض والسماء يزيل رواسب الشك في قلب الباحث عن الحقيقة وتجلو له حقيقة عدم التفاوت بين خلق الله تعالى ويقول الله تعالى: (**مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ∃ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ**)[5] .

غير أن كثير من علماء هذا العصر لا يبصرون أجلى الآيات المجاورة لهم ولا يعرفون أسرارها بل يعرضون عنها دون التدبر في محتوياتها يقول الله تعالى: (**وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** )[6]، أي فكثير من الآيات في السموات والأرض وما فيهما يمرون عليها مرور الحيوان لا يلتفتون إليها ولا يؤمنون بها مع كون هذه الآيات علامات مضيئة دالة على قدرة مصممة وفاطره[7].

(ومما يلاحظ بوضوح في منهج التربية القرآني، كثرة توجيه الإدراك البشري إلا ما في الكون وما في الأنفس من إمارات وآيات، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعه الله في الأنفس والأفاق، ذلك أن هذه المصاحبة فوق أنها تنبه الإدراك البشري إلى معرفة الصانع من صنعته، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه، وحبه

---

(1) - سواء كان النظر بالعين المجردة أو بواسطة الأجهزة الخاصة لذلك.
(2) - أي ما يطلق عليه اسم السماء في اللغة على كل ما علاك من السحاب والغلاف الجوي والكواكب والمجرات، وفي الاصطلاح: هو الجرم الذي يسبح في داخله الأجرام السماوية المتماسكة.
(3) - سورة يونس الآية: 101.
(4) - سورة العنكبوت الآية: 20.
(5) - سورة الملك الآية: 3-4.
(6) - سورة يوسف الآية: 105.
(7) - تفسير الواضح، ج 1، ص: 494.

بإدراك عظمة أنعمه فهي في الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنساني بخصائص تلك الصنعة من دقة وتناسق وانتظام لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت [1]، ومن ثم يكثر التوجه إلى هذه الظاهرة في الكون والمكنونة في النفس لتلقي المعرفة من كتاب الله المفتوح كتلقي المعرفة من كتاب الله المقروء في تناسق وتوازن يجمع بين مصادر المعرفة كلها في غير تصادم ولا تعارض وفي غير تأليه ولا تحقير [2]، إذ أن القرآن يرشدنا إلى الله في أطوار خلقنا ونشأته الأولى (**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ**) [3]، ويجعلنا أمام امتحان وأسرار يتوقف أمام أسئلة الحسن الظاهري بل يحتاج إلى أعمال الفكر والتعمق في حل رموزه، فإن ذلك التفكير يوصل الإنسان إلى الإذعان والإقرار بوجود الله.

يلفت أنظار الناس إلى الأرض وإرساء الجبال لها يتعلق بهما حياة الإنسان وفيها قراره وسكناه (**وفي الأرض آيات للموقنين** )[4]، ويقول ابن كثير: (من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرا فيها من صنوف النبات والحيوان والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف السنة الناس وألوانهم، وما جبلوا من الإرادات والقوى وما بينهم من التفاوت في العقول والفهم والحركات والسعادة والشقاء وما في تركيبهم من الحكم في كل عضو من أعضاءهم في المحل الذي هو محتاج إليه، وكل ذلك مع كل ما في هذا الكون ينطق بلسان الحال انه من صنع اله خالق)[5].

ولو ذهبنا إلى عالم الحشرات فقد يكفينا أن نفحص خلية النحل لكي تستولي علينا روعة الدقة والكمال والتشابه العجيب بين عيونها، وكل خلية من ملايين الخلايا الموجودة في سائر أنحاء العالم مصممة بصورة هندسية وبدقة رائعة وتناسب العمل الذي خلقت من أجله إلى أقصى الحدود[6].

---

[1] - خصائص التصور الإسلامي ، ص: 166-167.
[2] - المصدر نفسه، ص: 167.
[3] - سورة الواقعة الآية: 62.
[4] - سورة الذاريات الآية: 20.
[5] - تفسير ابن كثير، ج 4، ص: 235.
[6] - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 112.

وإن أحدى أنواع العناكب المائية تصنع لنفسها عشا على شكل منطاد (بألوان) من خيوط بين العنكبوت وتعلقه بشيء ما تحت الماء ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش وعندئذ تلد صغارها وتربيها آمنه عليها من هبوب الهواء، فها هنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية[1].

وكذلك الفراشة إذا حملها الريح من خلال نافذة إلى عليه بيتك فإنها لا تلبث أن ترسل إشارة خفية، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ولكنه يتلقى تلك الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلها، ترى هل لتلك المخلوقة من محطة إذاعة. وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي فضلا عن السلك ا للاقط للصوت، (ايريال) أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز؟[2]، الجندبة (النطيط) الأمريكية تحك ساقيها وجناحيها معا فيسمع صريره هذا في الليلة الساكنة على مسافة نصف ميل، أنها تهز بها ستمائة طن من الهواء وتنادى رفيقها.

والفراشة التي تعمل في عالم آخر من عوالم الطبيعة وفي سكوت ظاهر تنادي أيضا مثل ذلك النداء المجاب[3]، وما خلق الله في جسم بعض الكائنات من خلايا ذات قدرة على تصليح وتعويض ما يفقده من عضو والتأم الجرح نتيجة اصطدامه بجسم صلب، كل ذلك وغيره مما لا يحصى مرآة يتجلى فيها الدلالة على وجود الخالق تبارك وتعالى ومدير هذا الكون وموجهه ولا ندرك كنه البارئ وكماله مهما اطلعنا على أسرار الكون، ويقول تعالى: (**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** )[4]، فكل أثاره في الأفاق والأنفس واختلاف الأجناس والأنواع والأكوان والأعراض والثمرات دليل على كمال القدرة والحكمة وجلال عظمته.

---

[1] - العلم يدعو للإيمان كريسير موريسون، ص: 199.
[2] - المصدر نفسه، ص: 121-122.
[3] - المصدر نفسه، ص: 122.
[4] - سورة الحج الآية: 74، سورة الزمر الآية: 67، سورة الأنعام الآية: 91.

# الفصل الثالث
# نهاية الكون

# نهاية الكون

يوجد في النظام الكوني توازن بين الأجرام السماوية، وبين عدد البروتونات وعدد الالكترونات، فلو اختل هذا التوازن بشكل ضئيل جدا، لاختل النظام المشاهد حاليا فيه رأسا على عقب[1].

وعلى هذا هل تتوقع حوادث كونية تُغَيِّرُ من مسار هذا الكون وتغير نظامه؟ إن الذي يعين الجواب على هذا السؤال هو عاقبة التوسع الكوني، فإن كان التوسع الكوني بمقدار يزيد على سرعة الإفلات فإن التوسع سوف يستمر دون توقف، وهذا ما يسمى (الكون المفتوح).

أما إذا كان توسع الكون بمقدار يقل عن سرعة الإفلات من قوة الجاذبية، فإن التوسع سيقل تدريجيا، وتبدأ المجرات بالتقهقر والتراجع للتجمع في نقطة واحدة كما كان في بداية الأمر[2]، وهذا ما يسمى (بالكون المغلق) يقول الله تعالى: **(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)** [3].

ويتضمن الكون المغلق قناعا مشتركا بين أجزاء الكون ولا بد أن ينتهي في يوم من الأيام، لأن سرعة اتساع الكون ستتباطأ تدريجيا، ففي القران الكريم سور كثيرة حافلة بمشاهد هذا الانقلاب الكوني الرهيب الذي يتعرض له الوجود حين يأتي اليوم الموعود، فينحل عقد نظام الكون وتتناثر أجزاؤه بعد انفلاتها من قيد قوانين الكون وينتهي إلى أجله المحتوم، وتختل روابطه وتنعدم ضوابطه التي تتمسك به في هذا النظام ويعود دخانا ورمادا تذروه الرياح كما كان أول الخلق، تبطل قوة ا لجاذبية يبن الأجرام السماوية وتتوقف عن الحركة فتصطدم بعض هذه الأجرام ببعض، **(وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)**[4].

---

(1) - شهادة الكون، ص:128.

(2) - ينظر الانفجار الكبير، ص:84، وشهادة الكون، ص:128.

(3) - سورة الأنبياء، آية: 104.

(4) - سورة الحاقة: آية: 16.

وحين ينتهي الاستعراض في صفحة هذا الكون المنظور وتطوى صفحة الخلق الفاني، وتتوارى أشباح الخلائق جميعا ويفرغ الجمال من كل حي مخلوق [1]، يظهر بأن كل شيء هالك إلا وجهه ويفنى كل حكم، وحكم الحي القيوم باق بعد فناء خلقه وعندما يزول كل شيء ويفنى كما يدل قوله تعالى: (**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ∃ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ** )[2]، تخفق الأنفاس، وتخشع الأصوات وتبلغ القلوب الحناجر، وتسكن الجوارح وظل الفناء يشمل كل حي ويطوى كل حركة، ويغمر آفاق السموات والأرض ولا يملك العقل البشري والتعبير الفكري أن يصور الموقف ولا بد أن يزيد على النص القرآني الذي يسكب في الجوارح السكون الخاشع والجلال الغامر والصمت الرهيب الذي يرسم مشهد الفناء الخاوي[3]، فسكون الموت المخيم بلا حركة في جنبات هذا الكون الذي كان حافلا بالحركة والحياة.

وفي المشهد الأرضي آنذاك كل شيء في تغيير وتبديل: (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ** )[4]، ونحن لا ندري كيف سيتم هذا ولا طبيعة الأرض الجديدة، ولكن القرآن يلقي الظلال الوارف على المشهد، أرض بلا جبال ولا وديان، ولكنها مبسطة كما يقول تعالى: (**يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً**)[5]، وتحمل الأرض من مكانها الحالي بواسطة:

أ. قد يكون ذلك بريح قوية من عصفها آن تحملها.

ب. قد يكون بواسطة ملك يحملها.

ج. بصادمة بعض الأجرام السماوية فتنفصل الجبال وترتفع من شدة المصادمة وترتفع الأرض من حيزها[6].

---

(1) - الظواهر الجغرافية، ص:73.
(2) - سورة الرحمن، الآية: 26-27.
(3) - في ظلال القرآن، ج:6، ص:3454.
(4) - سورة إبراهيم الآية: 48.
(5) - سورة المزمل الآية : 14.
(6) - تفسير المراغي، ج:29، ص:45.

د. بمجرد قدرة الله من غير سبب ظاهر[1] كما قال تعالى: (**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً** )[2]، فبعد نفخ إسرائيل في الصور، يحدث عن هذا النفخ صوت عظيم وصيحة عالية بحيث تفوق تحمل الأحياء والجمادات فتتلاشى جميع ذرات الهواء وتتساقط الأحياء على الأرض، ويزيد من القوة ما تحمل الأرض فتدك بضرب بعضها ببعض ضربة واحدة حتى اندكت وتقطعت أوصالها وصارت الجبال كثيبا مهيلا[3].

فإذا أوصل حجم الكون إلى 100/1، من حجمه الحالي فتصل درجة حرارته إلى درجة الأرض وقت النهار، وبعد ملايين السنين يصل بريق الفضاء إلى حد لا يحتمل كما يرى بعض الباحثين، وبعد بضعة مئات الآلاف من السنين ترتفع درجة الحرارة إلى ملايين الدرجات، وتبدأ النجوم بإطلاق صرخات الموت وهي تذوب في حساء كوني مؤلف من إشعاعات والكترونات ونوى الذرات، وفي ظرف أيام يتحول الكون كله إلى حساء كوني يغلي غليانا هائلا ويستمر حجمه بالنقصان حتى يصل حجمه إلى الصفر ثم يختفي[4].

**والفناء الكوني الذي ذكره القرآن الكريم بواسطة نفخ الصور لا يخلو من أمرين:**

1. هي الصيحة القوية بدليل قوله تعالى: (**إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** )[5]، فهذه الصيحة تصعق كل حي، وتنتهي بها الحياة والأحياء، فتأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة لا يتوقعونها ولا يحسبون لها حسابا[6].

2. قد تكون النفخة صاعقة تلتهب فيها كل ذرات الهواء وتتغلب الهيدروجين السام فينتهي معالم الحياة وتصبح الأرض مستوية لاعوج فيها،

---

(1) - تفسير ابن السعود، ج:5، ص:190.
(2) - سورة الحاقة الآية: 13-14.
(3) - المصدرين السابقين نفسهما.
(4) - الانفجار الكبير، ص: 87.
(5) - سورة يس الآية: 29.
(6) - في ضلال القرآن، ج 5، ص: 2972.

ويقول تعالى: (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ** )[1]، وقال تعالى: (**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**) [2].

3. قد تكون النفخة ريحا شديدة تبلغ من السرعة والقوة ما تحمل والجبال وتحدث فيها ما شاء الله أن يفعله كما قال تعالى: (**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ**) [3]، فالنفخ إدخال الهواء والأشياء المحسوسة في شيء ويحدث فيه حركة كقوله تعالى: (**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ) [4]، وعند إدخال الروح في جسد آدم تحرك وأحدث الحركات الموكولة إليه في إطاره.

وهناك من الأدلة المنظورة المنذرة بنهاية الكون المنظور من قيامات صغرى التي تقع على سطح الأرض على نطاق واسع مرة بعد أخرى، **وفناء وتغيير في عالي الأحياء والجماد، ومن هذه الدلائل:**

1. ظاهرة البراكين والزلازل التي تنذرنا بإمكان القيامة، فالإنذار الأول للأحياء خسف الأرض تحت أقدامهم، وانفجار (الديناميت) الإلهي التي تنفجر بإرادته وأمره، فبطن الأرض يحتوي على مواد شديدة الحرارة نشاهدها عند انفجار البراكين وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق، وقد تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة وما نحس به من الهزات الأرضية، ولا تزال هذه الأصوات والهزات رهيبة في حياة الإنسان المعاصر على الرغم من تقدم العلوم والتكنولوجيا، كما كانت رهيبة في حياة الإنسان القديم[5]، وهي تذكر الإنسان دائما بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة ولا يفصله عنه سوى قشرة الأرض وهذه لا يزيد سمكها عن خمسين كيلو مترا، وهذه القشرة بالنسبة للأرض بمثابة القشرة من ثمرة التفاح.

---

(1) - سورة الزمر الآية: 68.
(2) - سورة النمل الآية: 87.
(3) - سورة الحاقة الآية: 13.
(4) - سورة الحجر الآية: 29.
(5) - الإسلام يتحدى، ص: 82.

ويقول العالم الجغرافي حورج جامو (أن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم جدا ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله[1].

فالبراكين تشمل جميع نواحي الأرض، ولا تخلوا الجرائد كل صباح من أخبارها من حدوث تدمير مدنية بكاملها نتيجة بركانات عديدة أو زلازل عالية الدرجة في أرجاء الأرض، أو نزول خوارق آتية من السماء على من طغى عليها كما حدث للأقوام القديمة.

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة التي بثها الله سبحانه وتعالى في الكون، ومن المعلوم أن الزلازل تفرع أبواب المدن بغتة دون إنذار ولا يتمكن الإنسان أن يتنبأ بموعد وقوعها في أكثر الأحيان، وهي تنبئ عن القيامة الكبرى التي سوف يفاجئ الإنسان في يوم من الأيام على غفلة منه[2].

2. أما بالنسبة لهذا الفضاء الموغل في العمق والارتفاع الذي تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها، وهي (السيارات والنجوم) في مداراتها وأفلاكها بسرعة عالية، ويمكن أن يتحول هذا الدوران في أي يوم إلى اصطدام عظيم لا يمكن تصوره، وفي تلك اللحظة يكون ما في الكون أشبه بالآفة بل ملايين من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهي تواصل رحلتها في الجو ثم تصطدم كلها مرة واحدة، وهذا ممكن وليس بغريب وهو غير واقع الآن، بل تسير على نظامه الثابت ذلك لأن هناك قدرة وراء تنظيم هذه السيارات النارية تمنع الاصطدام، وتؤكد دراسات علم الفلك إمكان اصطدام الأجرام السماوية، فإذا حدث الاصطدام حلت نهاية الكون[3].

3. فقدان الجسم لفاعليته، وانتهاء عملية الأجزاء التركيبية وتجمد الأنسجة العصبية وانتشار سموم بكتريا الأمعاء في الجسم، وعودة الإنسان إلى الضعف الذي يصيبه عند بلوغه أرذل العمر، وكذلك موت الخلايا وتجددها في جسم الكائن الحي إذ

---

(1) - الإسلام يتحدى، ص: 82.

(2) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) - الإسلام يتحدى، ص: 83.

يعد الجسم بمثابة مقبرة للأموات ومدينة مكتظمة بالسكان للأحياء، وأن المواد الزلالية التي توجد في خلايا دمائنا تتلف كذلك ثم تتجدد، وكذلك كل الخلايا في جسمنا إلا الخلايا العصبية، وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد كليا خلال ما يقرب من أربع سنين كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنسان في بضع سنين، ويتضح من ذلك أن الجسم الإنسان ليس هيكلا وإنما هو كالنهر الجاري في جريان وعمل مستمر، وهو لا بد أن ينتهي في يوم من الأيام (✍).

4. إن الكون خلق لهدف معين، لم يخلق عبثا يقول تعالى: (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**) [1]، ويقول: (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**) [2]، ونهاية هذا الكون المتتبعة لقيام الآخرة ذات هدف عظيم هو المجازاة على أعمال الدنيا أن خيرا فخير وإن شرا فشر وهذا الجزاء يتضح جليا حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل وتصور بصورة مستمرة وبغير توقف يرافقه شريط مسجل إلهي وكاميرة متجولة معه يسجل [3]، ويصور [4]، كل حركاته من خير ومن شر سرا كان أو جهرا ويرفع على شكل تقارير ليحفظ في ملفه الخاص كما يحفظ أوراق الموظف خلال عمله الوظيفي، فيحفظ كتاب الأبرار في عليين، وكتاب الفجار في سجين.

وللإنسان ثلاثة أبعاد وهي بنيته، وقوله، وعمله، وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها (**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**) [5]، ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحتظ في شكلها الكامل ولسنا قادرين على محوها أبدا، وأن الشخصية الإنسانية لا تتحصر فيما نسميه الشعور، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية تبقى وراء الشعور[6].

---

✍ الإسلام يتحدى، ص: 80.

[1] - سورة الدخان الآية: 38.

[2] - سورة المؤمنون الآية: 115.

[3] - لقوله تعالى: (**هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) ، الجاثية الآية: 29.

[4] - لقوله تعالى (ليروا أعمالهم) الزلزال.

[5] - سورة ق الآية: 18.

[6] - الإسلام يتحدى، ص: 86 ج.

## بعض الأمثلة على نهاية الكون في القرآن الكريم:

لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأن الجبال والبحار والأجرام السماوية كلها يلحقها الدمار الشامل قبل يوم القيامة.

1. **فأما الجبال**: فالقرآن الكريم يتكلم عن فنائها في إحدى عشرة آية إعلاما بنهاية الكون وبمجيء الساعة موزعة في سورة [1]، ويقول تعالى: (**وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**) [2]، فسير الجبال حدث من الأحداث التي تقع بين يدي الساعة فلا يبقى للجبال أثر، ويقول أيضا: (**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ**) [3]، فنسفها إزالتها وجعلها هباء[4].

ويقول الله تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ﴿﴾ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً**)[5]، فالنسف والتسيير ظاهرتان تختلفان من حيث الحقيقة، فأما إن يقعا على التعاقب، فتسير الجبال ثم ينسف، وأما على التقسيم فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر، ولكن الاحتمال الأول تمنع منه أية سورة النبأ (**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً**) [6]، إن الجبال بعد أن انتهى بها التسير إلى أن تفنى وتكون سرابا لا يمكن أن يلحق بها نسف وقد انعدمت بالفعل، فلم يبق إلا الاحتمال الثاني ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصا ببعض الجبال، والفناء عن طريق النسف خاصا بالبعض الآخر، وهذا يقتضي أن تكون الجبال صنفين:

**أحدهما**: يقبل بفطرته أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيبا مهيلا.

---

[1] - موزعة في سور: المزمل، والتكوير، والقارعة، والمرسلات، وطه، والكهف، والطور، والحاقة، والمعارج، والنبأ.
[2] - سورة التكوير الآية: 3.
[3] - سورة المرسلات الآية: 10.
[4] - الإعجاز العلمي للقرآن، تأليف محمد أحمد، الغمراوى، ص: 265.
[5] - سورة طه الآية: 105-107.
[6] - سورة النبأ الآية: 20.

**والثاني**: يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سرابا[1].

وفي آيتي المعارج والقارعة ما يؤيد أن الجبال صنفان، لأنهما تذكران تحولا تصبر إليه الجبال يخالف ويقابل ما تصير إليه من كثيب مهيل كما في آية المزمل [2]: (**وَكَانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً**). وعلى هذا فالجبال التي تصير كالصوف: (**وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ** ). في تكوينها وطبيعتها غير الجبال التي تصير كثبا مهيلا يوم الرجفة كما وصف الله هذا الصنف من الجبال في سورة فاطر ويقول: (**ومِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ** ) [3]، حيث أن هذه الجبال هي التي تصير بالقارعة كالصوف المسبوغ، وإن (من) التبعيضية في آية فاطر تدل على أن الملون من الجبال هو الذي يصير كالعهن لا مطلق الجبال.

2. **البحار قبل يوم القيامة**: إن هذه البحار والمحيطات الضخمة لا تنجوا من هول ذلك اليوم حيث خلق الله فيها قابلية الاشتعال واستجابة نداء الله إيذانا بنهاية الدنيا وما على الأرض من الماء وغيره، يقول الله تعالى: (**وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ**)[4]، ويقول: (**وَالْبَحْرِ المَسْجُورِ**)[5]، ويقول: (**وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ**)[6].

فقال مجاهد والحسن بن مسلم في معنى (سجرت) أوقدت وقال ابن عباس يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها وتعسير وتصير نارا تتأجج[7].

وقال محمد محي الدين عبد الحميد في تفسير (سجرت): وقد اختلف العلماء في بيان المراد منه، فذهب قوم إلى أن تحسجيرها معناه إيقادها واشتعال النيران فيها. وقال آخرون أن معناها فجرت واختللت ماء بعضه ببعض[8]، وقال القاضي البضاوى في معنى (سجرت) أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحرا واحدا، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه[9].

---

(1) - الإعجاز العلمي للقرآن، ص: 271.
(2) - المصدر نفسه.
(3) - سورة فاطر الآية: 27.
(4) - سورة التكوير الآية: 6.
(5) - سورة الطور الآية: 6.
(6) - سورة الانفطار الآية: 3.
(7) - تفسير ابن كثير، ج 4، ص: 476.
(8) - بصائرة جغرافية، ص: 334.
(9) - تفسير البيضاوي، تأليف القاضي بيضاوي، المتوفى سنة (791هـ)، ج 2، ص: 572.

ومعنى فجرت أي فتحت وشققت جوانبها نزال ما بينها من البرزخ واختلط العذب بالأجاج [1]. ويمكن أن يكون معنى (سجرت) تفجير عناصرها وانفصال الهيدروجين عن الأوكسجين فيها، أو تفجير ذراتها على تفجير الذرة وهواشد هؤلاء حين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار، وإذا انفجرت على هذا النحو فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول، وتصور النار ا لهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة[2].

وقد توصل العلماء إلى أنه يقع في أعماق المحيطات أيدروجين طليق يتكون من ذرات ثقيلة، ومن الممكن تحطيم هذه الذرات بفعل ضغط كهربي من صاعقة أو حرارة شديدة تندلع بصورة مفاجئة من باطن الأرض الملتهب عبر شق يحدثه انكساره في صخور القاع النارية [3]، وإذا حدث هذا في ذرات الهيدروجين فإن خاصية الاشتعال السريع التي يتمتع بها ستحول المياه جميعا إلى نار وجحيم وتجف كلها في وقت قصير.

وبذلك يثبت أن ما جاء في الآية الكريمة: **(وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ )** هي الحقائق التي توصل إليها العلماء، عندما أسدل الله الستار عن الغيب الذي سمح للإنسان. إن يطلع عليه ويتضح له الأمر فيما بعد، فكل ذلك واقع لا محالة عندما تأتي النهاية.

3. **السماء**: يقرر القرآن أن السماء هي الأخرى لا تنجو من هو ذلك اليوم، وتوحي بخضوعها لوقوع الحق عليها، ويقول تعالى: **(فَلَوْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ )**[4]، ويقول: **(فَـإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ )** [5]، ويقول:**(وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ)**[6].

---

[1] - تفسير روح المعاني للألوسي، ج 3، ص: 63، الإنفطار.
[2] - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3839.
[3] - الظواهر الجغرافية، ص: 79.
[4] - سورة الدخان الآية: 10.
[5] - سورة الرحمن الآية: 37.
[6] - سورة الحاقة، وآيات أخرى في سورة التكوير والانفطار والقيامة.

ويقول ابن كثير في تفسير آية الدخان:أنه من المنتظر المرتقب (وهو واضح بين يراه كل واحد) [1]. وقال في تفسير آية سورة الرحمن: أن السماء تذوب كما يذوب الدردى[2] والفضة في السبك العظيم[3].

لقد ذكر الله تعالى أن مادة الكون قبل خلق السموات والأرض كانت دخانا ثم يعيدها الله إلى نفس المادة الأولى قبل الخلق، إذ يقول تعالى: ( **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**)[4] ، ويقول القاضي البيضاوي: (نعيدها خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجادا عن العدم أو نعيد مثل الذي بدأنا، وعلينا إنجازه لا محالة) [5]. فسجل السماء يطوي بعوالمها كما يطوي السجل، والولايات التي وردت في نهاية الكون تشير إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن [6]، فالقمر يخسف ويطمس نوره والشمس تنطفئ شعلتها والنجوم تنكدر وتنطفئ شعلتها وتنتهي جميع الأشياء وتموت الأحياء ولا يبقى إلا الباقي وينادي: (**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**) [7].

**والذي يستثنى من هذا الدمار الشامل على ما يبدو ثلاثة أشياء:**

1.الأرض التي تتغير شكلها وتبدل:(**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ**) [8].

2.العرش الذي تحمله الملائكة: (**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**) [9].

3.صحائف الأعمال التي يدون فيها أعمال العباد: (**هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ**)[10].

---

(1) - تفسير ابن كثير، ج 4، ص: 139.
(2) - الدردى: الزيت وغيره ما يبقى أسفله.
(3) - المصدر نفسه، ص: 275.
(4) - سورة الأنبياء الآية: 104.
(5) - تفسير البيضاوي، ج 2، ص: 80.
(6) - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3456.
(7) - سورة غافر الآية: 16.
(8) - سورة إبراهيم الآية: 48.
(9) - سورة الحاقة الآية: 17.
(10) - سورة الجاثية الآية: 29.

# الفصل الرابع

# نظرة القرآن إلى الكون

# المبحث الأول
# مخلوقية الكون

لو تأملنا في هذا الكون الفسيح نرى أنه بكل ما يحتويه من أجرام مضيئة منتشرة في فضائه كأنها مصابيح معلقة في أعمدة عالية غير مرئية وكائنات وذرات قائمة على أساس ثابت لا يضطرب، وتسبح هذه الأجرام في أفلاكها كل في مدارها الخاصة وبسرعة مقدرة بها لا يحيد عن مدارها قيد شعرة مما يدل على أنه حادث وأن له محدثا أجرى فيه هذا النظام ويحوله من هيئة إلى أخرى، وكلما تقدم العلم أكثر أعطى الدليل بوجه أدق وأكثر إقناعا على هذه الظاهرة، إذ أن وضوح الأدلة وتعاضدها لم يبق مجالا للشك فيما ذكرنا وقد اعتقد الناس قديما بأزلية الكون وعبدوا الشمس والكواكب وانه هو خالق نفسه[1]، غير أن قانون الديناميكا الحرارية يؤكد على أنه لا بد أن يكون لهذا الكون بداية، فإذا كان له بداية فلا بد له من مبدأ من صفته القدرة الإرادة والقدم[2] فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية، ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوي فيها حرارة جميع الأجسام وينضب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون[3].

واستدل (فرانك الآن) عالم الطبيعة على عدم أزلية الكون بقانون الحرارة ويقول: (كثيرا ما يقال أن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجد ونشأ ونشأته؟) ويقول فرانك في الإجابة على هذا السؤال: هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

1. إما أن يكون هذا الكون مجرد وهم خيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.

---

[1] - الله، سعيد حوى، ص: 22.
[2] - الله، يتجلى في عصر العلم، ص: 4.
[3] - الله، سعيد حوى، ص: 22.

2. إما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم وهذا ما لا يتفق مع الوجود أيضاً.

على هذه التحولات سوى الإذعان والانقياد لا مر من يديره، وإن مادة الكون التي تدخل السرعة في قوامها على ذلك النحو إيجادا وإعداما هي الأخرى لا محالة متغيرة حادثة وليست أزلية، لأن الأزلية والحدثان متضادان متطاردان في برهان العقل، ألا ترى أن الأزلية نفي الحدوث، وإن الحدوث شفي الأزلية فيستحيل أن يكون الشيء أزليا وحادثا معا[1].

لقد أشار القرآن الكريم في آيات كثير إلى أن الكون مخلوق من العدم وفسح المجال للإنسان أن يلتمس الدليل النظري على مخلوقيته، نذكر من ذلك التوازن بين طاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية فالمشيئة الإلهية طليقة لا يرد عليها قيدما، مما يخطر على الفكر البشري جملة[2].

ثم يوجه الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون والنظر في عواقبها وجريها وفق نظام دقيق، وترابط حوادثه بعضها ببعض، ما بين نظام سابق ونظام لاحق بانتظام واطراد يدلان على أنها تتبع سننا ثابتة وقوانين مطردة في حدوثها وحركتها، ويقول تعالى: (**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ∃ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ∃ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**) [3].

إن قوانين التوازن والجاذبية والنسبية والحركة في قانون الله العام للكون متناسقة كل منها يؤدي دورة بإتقان محكم، وهذه القوانين كما تصدق على دوران الأرض حول الشمس في النظام الشمسي حول مركز المجرة والمجرة حول مركز الأفلاك جميعا، تصدق أيضا في أصغر خلق الله تعالى الذي نعرفه حتى الآن وهي الذرة التي تحتوي على نظام الدوران المدهش الموجود في النظام الشمسي والمتكرر في عوالم المجرات، هذا النظام في حركته ودورانه صورة مصغرة من تضامن

---

(1) - مجمع الأشتات، تأليف د. عبد الله مصطفى النقشبندى، ص: 69.

(2) - خصائص التصور الإسلامي، ص: 137.

(3) - سورة يس الآية: 38-40.

الشمسي، مكون من إلكترونات تدور بسرعة رهيبة داخل الذرة حول النواة، دون أن يصطدم إلكترون بآخر والعجيب أن هذه الالكترونات تدور حول النواة ملايين المرات في الثانية الواحدة في نظام واستمرار ودقة مقدرة تقديرا إليها[1].

إن هذا النظام الدقيق الجلي للناظر وتعاقب الليل والنهار وإرساء الجبال واستقرار الأرض وتجدد الحياة عليها بالأمطار واستمرارها بالهواء والحرارة والغذاء وغير ذلك ينطلق بالحق الذي لا ريب فيه وهو أن هذا الكون مخلوق من العدم وله بداية بدأ فيه، ولا يرتقي إلى مرتبة الإلوهية كما اعتقده القدماء واتخذوا من كل عنصر من عناصره إليها، ثم قسموه بين الهتهم المتعددة، وخصوا كل قسم منه باله، كما كان لدى البابليين والمصريين والفرس وغيرهم من الحضارات كما أشرنا إلى طرق منها، غير أن هذا الكون كله ملك لله سبحانه وتعالى وتحت تصرفه: (**أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ** )[2]، لا ينازعه في ملكه أحد، يقول تعالى: (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**)[3]، ثم هيأ هذا الكون للحياة وسنحره للمخلوقات وخاصة الإنسان يقول تعالى: (**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**)[4] ، ويقول: (**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً** )[5]، وكل هذا الخلق الحادث المسخر والكائنات للإنسان (**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ**)[6].

---

(1) - المنهج الإيماني للدراسات الكونية، ص: 33.
(2) - سورة الأعراف الآية: 54.
(3) - سورة الأنبياء الآية: 22.
(4) - سورة الجاثية الآية: 13.
(5) - سورة البقرة الآية: 29.
(6) - سورة الملك الآية: 2.

# المبحث الثاني
# نشوء الحياة في الكون

## المطلب الأول
## إعداد الأرض للحياة

لا تزال قضية الحياة غامضة أما العلماء والوسائل لا يمكنهم إماطة اللثام عنها مهما تطورت الأسباب، لأن ذلك يفوق الطاقة البشرية وأوكل الله حقيقة الحياة إلى علمه إذ يقول: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**) [1]، ولقد حظيت الأرض بخلق خاص لتكون حاملة للكائنات الحية التي يخلقها الله تعالى عليها، وخلق كل مستلزمات الحياة في المادة التي انفصلت عن مادة السماء الأولى ثم بسط مادتها: (**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ) [2]، ولفظ (دحا) معناه، الشيء بسطه، ومدحى النعامة موضع بيضها[3]، **اللفظ يدل على شيئين:**

1. البسط مع الاتساع.
2. التكوين في التكوين[4].

والله سبحانه وتعالى أبرز الجبال فوقها لتستقر وتثبت ليمكن الحياة عليها، لأن الله تعالى جعل إمكان الحياة على الأرض مقرونا ببسط الأرض ونصب الجبال ورفع السماء وخلق الجاذبية بين الأجسام المادية المسخرة في الكون.

---

[1] - سورة الإسراء الآية: 85.
[2] - سورة النازعات الآية: 30.
[3] - مختار الصحاح، ص: 200، طبعة 1983.
[4] - الأعجاز العلمي في الإسلام، ص: 64.

ثم أخرج منها ماءها وغطى به أكثر الأرض وخلق في الأرض جاذبية تمنع الماء أن تهجر سطحها، وجعل مياه المحيطات راكدة عميقة مقابل القارات لتتوازن معها، وجعلها مالحة لتحافظ على صفاء الهواء ونقائها على الرغم من وجود غازات سامة وأخرى قاتلة على سطحها، ولكي لا تتعفن مياهها وتكون صالحة لحياة الحيوانات فيها ويقول سيد قطب: (ودحو الأرض وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للأنيات وإرساء الجبال، وهو نتيجة لاستقرار سطح، الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة ...). ويقول: (هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية، وإن الأرض نمط فريد بين الكواكب في المجموعة الشمسية الذي يجعلها صالحة للحياة[1].

ويقول (كريسي موديسون): (وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر ومعظمها سام فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغيير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة المتوازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء[2]، ويتبخر الماء باستمرار وتتجمع في الفضاء ليكون سحابا على قمم الجبال [3]، القريبة من البحر ثم يسوقه إلى البلد الميت ويسقيه وينبت به الزرع والنبات ليأكل منها كل حي.

وخلق الله في الأرض قوة جذب داخلية تجذب كل جسم على ظهرها ولولا هذه الجاذبية لما كان للأجسام عليها ثقل ولا وزن ولطارت هذه الأجسام عن الأرض بالحركة ولما عادت إليها، وينزل المطر من السحاب إلى الأرض بواسطة جذب الأرض وإلا لبقي السحاب معلقا في الفضاء مهما كبرت قطرات مائه، أي لم يعد إليها

---

[1] - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3816-3817.

[2] - العلم يدعو للإيمان، ص: 66.

[3] - إن وظيفة الجبال تتمثل في النقاط التالية:

أ. تثبيت الأرض.

ب. حدوث توازن بين القارات والمحيطات والمناطق الباردة والحارة مما أدى إلى استقرار الأرض كما بينا.

ج. تكوين السحاب فوقها وإرسالها إلى أماكن أخرى.

د. أنها منابع للمياه لتجرى لمنفعة الناس.

بعد أن فارقها متبخرا بحرارة الشمس، ولجفت جميع المياه على سطح الأرض في النهاية، فلا يكون عليها بحر ولا نهر، ولانعدمت الحياة بانعدام الماء [1]، لأن الحياة مقرونة بوجود الماء قال تعالى: (**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** )[2].

وكذلك سخر الله الجاذبية للإنسان في أجزاء الأنهار تسير رويدا إلى سطح البحر، ومنع البحر أن يطفي بمائة الأجاج على النهر أو اليابسة، فهي - الجاذبية - دائما تحسبه في مستقره الذي هو فيه، فالبحر لا يستطيع أن يفارق مركزه إلا بقوة أخرى تغلب قوة الجاذبية فيجاذبه القمر تحدث ظاهرة المد وبجاذبية الأرض تحدث ظاهرة الجزر، وسخر الشمس والقمر لتمدا الأرض بالحرارة والإضاءة، ويعرف من

عليها المواقيت والفصول وخلق البارئ بين الأرض والقمر والكواكب الأخرى جاذبية لموازنة الأجرام السماوية ومنعها من السقوط والزلازل كما اعترف العلماء بوجود قوة وراء الكون تحرك هذه الأجسام الكونية وهي قدرة الله تعالى، وكل ذلك لتكون الأرض مهدا آمنا للحياة ولتجد الإنسان كل ما يحتاجه عليها من مستلزمات الحياة ليعمر الأرض بالعمل والعبادة.

## الغلاف الجوي للأرض:

يحيط بالأرض غلاف غازي له علاقة مباشرة بصميم الحياة، إذ أن جميع ما عليها من نبات وحيوان وإنسان وطيور وحشرات وغيرها متصل بالجو الهوائي بطريق مباشرا وغير مباشر، إذ لولا وجود هذا الغلاف الهوائي لم تحصل الحياة بشكلها المعروف وتشابهت الأرض ببعض الأجرام السماوية حيث لا يوجد غلاف غازي، أو يقل إلى حد تنعدم الحياة على سطحها[3]، فلو اختل هذا التوازن الذي خلق الله بين الغازات الموزعة في الغلاف الهوائي وتغلب أحد الغازات على الأخرى لا نتفن الحياة على الأرض كما انتفى على الكواكب الأخرى.

فالغلاف الجوي درع منيع وحزام قوى لحفظ الحياة على الأرض ويشتت الشهب والنيازك والأجسام الساقطة عليها فيصلها على شكل الغبار أو أحجام صغيرة

---

[1] - في سنن الله الكونية/ محمد أحمد الغمراوي، ص: 29.

[2] - سورة الأنبياء الآية: 29.

[3] - بصائر جغرافية، تأليف عبد رشدي العامري، ص: 107-108.

يحدث فيها ضررا، وكذلك يحافظ على توازن الأرض في الفضاء ويمنع الماء من التسرب إلى الجو، ويتخلخل فيه الأشعة القاتلة الآتية من الشمس، فما تصل إليها إلا ما يعطي للأرض الحياة وقد شبه الله من فسدت فطرته وساءت نفسه إذا طلب منها ينظر إلى الدين وفي ملكوت الله فإنه يجد في نفسه ضيقا بالصاعد في السماء فإنه كلما ارتفع وخف الضغط عليه شعر بضيق في النفس وحرج في القلب، فالعلاقة بين المشهدين، أن المفسد فطرته يشعر بضيق شديد وحرج كثير كمن يصعد في طبقات [1] الجو [2]، كما يقول تعالى: (**فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ) [3]، ويتصلب جانب البر وجريان الأنهار وكثرة المياه المالحة وثبات الأرض ومنعها من الاضطراب والهزات وإطلاق الهواء النقي وجعل السماء سقفا محفوظا وخلق الجاذبية بين الأرض والكواكب وبين الأرض والأجسام الموجودة عليها كل ذلك أعطى الأرض قابلية قبول استقبال الحياة فأصبحت مهدا معدا للحياة.

## من أين جاء الحياة؟ وكيف بدأت؟

---

[1] - أ. تربوسفير: وعمقها حوالي 8-6كم، حيث تكون فيها الغازات كثيفة إلى عمق 8كم، وهي مهمة لوجود الحياة.
ب. الستراتوسفير: وعمقها 150كم، وتتضمن طبعة الأوزون التي تكون حزاما واقيا للكرة الأرضية من الاشعاعات الكونية الضارة التي تصل الأرض من الفضاء الخارجي، وتختلط الغازات في الهواء اختلافا ميكانيكيا وليست ممزوجة مزجا كيماويا فلولا ذلك لتحولت إلى غاز واحد بعد التفاعل ولما أمكن أن يكون له من تنوع الخواص والمؤثرات ما للهواء الحالي.
ج. طبعة الايونوسفير: وتمتد إلى حوالي 400كم، ومن خواصها عكس الموجات الراديوية والتلفزيونية إلى الأرض وتوجد الذرات بشكل أيوني.
د. طبقة الميزوسفير: وهي امتداد لطبعة الايونوسفير حيث تكون فيها الكثافة الغازية قليلة جدا.
هـ. طبقة الاكسوسفير: وهي الطبقة الخارجية من الجوء، وتوجد فيها ذرات الهواء بصورة طليقة وحرة بحيث تتمكن من الإفلات من جو الأرض، نقلا عن كتاب المجموعة الشمسية، ص: 20، وبصائر جغرافية بتصرف، ص: 109 وما بعدها.

[2] - تفسير الواضح، ج 1، الطبعة الأولى، ص: 291.

[3] - سورة الأنعام الآية: 125.

إن المتفق عليه عموماً هو أنه البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيموية والطبيعية تخلقه المصادفة، ويمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود[1].

وقد اعتقد بعض العلماء، أن الحياة جاءت من بعض الكواكب الأخرى في شكل جرثومة انسلت دون أن يصيبها تلف، وبعد أن بقيت زمانا غير محدود في الفضاء استقرت على الأرض ومن ثم تسلسلت الحياة على تلك الجرثومة، أو يقولون أنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا[2]. أن هذا القول لا يستقيم أمام القوانين التي تحكم الحياة، إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حبة في درجة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها وإذا بقيت حية فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم والظرف المناسب حتى توالدت فبدأت الحياة، وفي حالة نزولها عن طريق النيازك فكيف سلمت أثناء الاشتعال الذي يحدث عندما يصطدم النيزك في جو الهواء بالغازات المحرقة للنيازك والأجسام الغريبة[3]، وإذا أسلمنا ذلك فكيف بدأت الحياة على الكوكب الأول؟

إن الخلية الواحدة على بساطتها ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة من تغذية وتنفس وتغير وحرارة معينة ونمو وتكاثر وتلائم مع البيئة، ولذلك فإن الخلية من التعقيد والتصميم لا تقل أبدا عن أي كائن آخر، واعترف بهذه الحقيقة كثير من العلماء الماديين أمثال (بخنر) من أنه لا يمكن أن ينشأ الكرية الأولى من المادة.

وإذا تأملنا في المادة والطاقة و(الامبيا) والخلايا ندرك أن الله وراء سر الحياة ابتداء وانتهاء نشأة وأنواعا إذ نشاهد آلاف الأنواع من الكائنات في مختلف البيئات والأجواء برا وبحرا ما لا يدع مجالا للقول بالنشئة من المصادقة أو عن طريق التولد الذاتي[4]، لأن التوازن العجيب بين الزرع وحياة الحيوان إنما استقر بهذا التقسيم، أي

---

(1) - العلم يدعو للإيمان، ص: 97.

(2) - الله، سعيد حوى، ص: 57.

(3) - المصدر نفسه، ص: 58.

(4) - يقول الله تعالى في سورة الرعد: ( **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ∃ وَفِي الأَرْضِ**

بين ما يحتاجه الحيوان من بعض الغازات وما يحتاجه النبات من الغازات الأخرى، فلو كانت الحياة كلها حيوانية لاستنفدت الأوكسجين إلى الآن، ولو كانت كلها نباتية لاستهلكت كل ثاني أوكسيد الكربون وفي كلتا الحالتين كانت تنتهي هذه الحياة من الوجود[1]، ولأن المصادقة العمياء الخالية عن الحياة لا تكون مصدرا للحياة، وهذا النظام المتوازن الدقيق في الكون.

لقد أثار القران الكريم إلى نشأة الحياة وبدئها من العد ولكنه لم يتعرض لتفاصيل الإنشاء فهو سبحانه وتعالى يقول: **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ)**[2]، ويقول:**(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً)**[3]، فبدأ الله تعالى خلق الكائنات من ماء وأودع فيه سر الحياة وبين في هاتين الآيتين بأسلوب تقريري وحقيقة عامة وأسلوب اختصاصي: أن هذا هو الماء المطلق الذي تعرفونه جميعا خلق منه المخلوقات فاخلقوا أن استطعتم منه بشيرا[4]، وكائنا ضعيفا، فالحياة والخلق والأمر لله تعالى، وما ينسبون إليه الخلق من مظاهر الكون ليس لها من الأمر شيء يقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ∃ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }**[5]، ويقول: **(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ )**[6]، ومما يبدو من استعراض هذه النصوص أن الكون مخلوق لا خالق، ونشأة الحياة التي هي أخفى الخفاء مع بداهتها لا يمكن تعليلها إلا بإيجاد القدرة القادرة (الله) لها تلك القدرة التي حتمت وجودها بدائع صنع الكون واختلاف الأكوان والأنواع والأجناس، وسلمت بها العقول السليمة، وما في هذه الحياة آية من آيات الله الدالة على عظمته.

---

**قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** .

[1] - الإنسان لا يقوم وحده، ص: 100.

[2] - سورة النور الآية: 45.

[3] - سورة الفرقان الآية: 54.

[4] - سنريهم آياتنا، تأليف د. أحمد شوقي إبراهيم مؤسسة الطبع للنشر والتوزيع، ص: 106.

[5] - سورة الحج الآية: 73-74.

[6] - سورة الأعراف الآية: 191.

# المطلب الثاني

# الحياة على الكواكب الأخرى

ليس هناك ما يمنع من وجود حياة بوجه من الأوجه على سطح بعض الكواكب الأخرى، وثبت للعلماء من خلال دراساتهم للأجرام السماوية أنه ما من عنصر موجود في تركيب هذه العناصر به إلا وله شبيه في الأرض ما يقابله، فالذرة مثلا بكهاربها وبروتوناتها وما يجري فيها من حركات تشبه النظام الشمسي والنظم الشمسية الأخرى[1].

ولو تأملنا في الآية السادسة من سورة طه لوجدنا أنها قسم الوجود إلى أربعة أقسام:

أ- ما في السموات .                ب- ما في الأرض.

ج- ما بين السموات والأرض.         د- ما تحت الثرى.

حيث قوله تعالى: (**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**)[2] ، وخص كل قسم منها بنوع من الحياة يختلف عن الأخرى وأعد الأرض لحياة الأحياء، وهيأ فيها ما يحتاجون إليه من مستلزمات بحيث لا توجد مثيلها على الكواكب الأخرى، وهناك بعض الآيات تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات:

أ. مخلوقات في السماء، يسبح له من في السموات.

ب. مخلوقات في الأرض، ومن في الأرض.

ج. مخلوقات بين السماء والأرض [3]، ومن فيهن، وقد قرر علماء الفلك أن الحياة ممكنة على نحو 100 ألف كوكب على الأقل في السموات[1]، ولكن بشكل ليس

---

[1] - الكون العجيب، قدري حافظ، ص:82.

[2] - سورة طه الآية: 6.

[3] - الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص:165.

كحياتنا البشرية بل بهيئة أخرى يعلمه الله تعالى، لأن الكوكب الوحيد الذي احتضن الحياة بهذه الخاصية المعروفة هو الأرض، وأن احتمال وجود حياة شبيه بحياة الإنسان على أي كوكب آخر ضمن مجموعتنا الشمسية لم يثبت علميا لحد الآن، لأن مجالات الكيمياء الحيوية على أغلب هذه الكواكب أي ضمن المجموعة الشمسية لا يزال يخالف تماما ما هو كائن على الأرض[2]، وكذلك لم يعرف وجود حياة كحياتنا على الكواكب الأخرى خارج المجموعة الشمسية في المجرات الأخرى، لأن جاذبية الثقوب السوداء وكثرة الشهب المتطايرة تمنعان وجودها، على هذه الكواكب، وكذلك عدم وجود حزام هوائي وقائي كحزام الأرض يمنع النيازك والشهب وكذلك عدم وجود درجة الحرارة المناسبة عليها يمكن لبعض الحيوانات أن تبقى حية في جوها المناسب، ولو تأملنا في أول آية من سورة الفاتحة لوجدناه أنها أوضحت أن العوالم متعددة وكثيرة إذ يقول: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) [3]، فالعالمين شبه جمع للعالم وهو اسم لما يعلم به الشيء وهو كل ما هو سواه من الأعيان[4].

**وقد ورد بمعان متعددة منها:**

أ. قد بقصد السموات والأرض: (**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ∃ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**) [5].

ب. الثقلين، الإنس والجن:(**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**)[6].

---

[1] - النجوم تأليف أن ترى هوايت ترجمة إسماعيل حقي، المطبعة الخامسة، 1981، دار المعارف مصر، ص: 130.

[2] - الله والكون تأليف د. محمد جمال الدين الفندي، طبع سنة 1976م، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص:415. ينظر النجوم والناس والذرة، ص:129-131.

[3] - تكرر لفظ العالمين 73 مرة في القران الكريم، نقلا عن القران والعلم الحديث عبد الرزاق نوفل، ص:129.

[4] - مواهب الرحمن، ج 1، ص:73.

[5] - سورة الشعراء الآية 23-24، وكذلك آية فصلت رقم:9 ذلك رب العالمين.

[6] - سورة الفرقان الآية: 1.

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي: ( أن العالم في آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم الإنس والجن أو عالم الحيوان والنبات والجماد ولكن هو العالم الفلكي الذي يتبادر إلى الذهن من اللفظ) [1].

وقد جاء علم الفلك فبين أن المجموعة الشمسية التي نحن فيها ليست في هذا العالم المجرى شيئا مذكورا وبين أن هناك عوالم مجربة أخرى تعد بالآلاف ولكن لم يهتد العلم الحديث في هذه العوالم المجربة الأخرى إلى أرض كأرضنا حتى الآن، ولو أنه من الممكن أن يكون في ملايين من العوالم المجربة الأخرى عوالم ولو قليلة يتحقق فيها ما هو متحقق لنا في هذا العالم الذي جمعه الله تعالى في أية الفاتحة ليكون ذلك إشارة للناس إلى أسرار هذه الكلمة ليطلبوها[2].

وإذن فسكان ما بين السموات والأرض هو تلك المجرات والعوالم الكثيرة من الشموس والكواكب، دبت فيها الحياة بشكلها الخاص لتوفر الظروف الملائمة عليها، ولا يلزم أن تكون من نفس مادة جسم الإنسان [3]، وكذلك فرق الله بين الأرض والكواكب الأخرى من أن على الأرض حياة كما هو معلوم، وكما نص على ذلك أية فصلت رقم ( 9-12) وآية النازعات (**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** )الآيات وآية 29 من البقرة (**هُ وَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعا** ً) وأن الكواكب ليس عليها الحياة كحياتنا، وثمة دليل آخر على تفرد الأرض بنوع خاص من الحياة هو ذكر الأرض مفردة مقابل السموات، يقول تعالى: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...**) [4].

فكل المجرات والكواكب ساجدة منقادة لله تعالى، ويسبحونه بلسان الحال كما قال الله سبحانه وتعالى: (**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**)[5]، فكلمة التسبيح يجوز أن يحمل على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده

---

[1] - الإسلام في عصر العلم، ص:225-226.
[2] - المصدر نفسه، ص: 224، وينظر: الكون تأليف دافيد برجاميني، سلسلة لايف العلمية، ص: 78.
[3] - الله والكون، ص: 460.
[4] - سورة الأنعام الآية: 1.
[5] - سورة الإسراء الآية: 44.

إلى ما يتصور منه اللفظ وإلا ما لا يتصور منه [1]، ويقول تعالى في سجود سكان السموات والأرض (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**)[2]، السجود هنا الانقياد الكامل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من خاصة بالعقلاء، أو عامة لهم ولغيرهم[3]. وإن انقياد الأجرام السماوية مشهودة حيث لا يصطدم أي جرم بالآخر كل يجرى في فلكه، وكلها تحت التسخير.

والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع، فكل هذه المخلوقات فيها الحياة والحركة، لكن لا كحياتنا بل بشكل آخر يعرفها الله كما بينا، وكما دب في الأرض حياة الإنبات والتأثر بالماء وأماتتها في مواسم معينة في فصول السنة.

فلو تم التعمق بالنظر في الآيات التي تتناول الحياة على الكواكب الأخرى لا تضح أن سكان السموات هم الملائكة [4]، أولا كما قال تعالى: (**لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى**) [5]، أي السموات ومن فيها من الملائكة[6]، كما قال رسول الله ρ في حديث عطاء بن أبي رباح (أما من في السموات فالملائكة...) الحديث [7]، ثم الجن [8]، الذين يصعدون على الكواكب الأخرى ويذهبون ويخرجون إلى العالم الخارجي، ويقول تعالى: (**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ**)[9].

أما قوله تعالى:(**وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً**)[10]، فهم الملائكة العقلاء الذي لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكل الكائنات تحت سلطان الله تعالى شاء أو أبى، كما أن السموات والأرض بما فيها وما عليها اتيا

---

[1] - ينظر: تفسير البيضاوي، ج 1، ص: 572.
[2] - سورة الحج الآية: 18.
[3] - فتح القدير، ج 3، ص: 443.
[4] - أجسام لطيفة نوارنية تتشكل بأشكال مختلفة غير الكلب والخنزير، ينظر: تحفة المزيد، ص: 131.
[5] - سورة الصافات الآية: 8.
[6] - ابن كثير، ج 4، ص: 3.
[7] - رواه الطبراني، الحديث في تفسير ابن كثير، ج 1، ص: 378.
[8] - أجسام لطيفة نورانية تتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخزير.
[9] - سورة الجن الآية: 9.
[10] - سورة آل عمران الآية: 83.

طائعين لجلالة ويسبحون بحمده، فالكواكب والنجوم وذرات الهواء والأثير وغير ذلك خلق الله فيهم، الحياة وهم جند الله في السموات ويتحركون بهذه الطاقة والروح التي خلق الله منهم، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله: (**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** )[1]، فالدابة كل ما يتحرك سواء أكان على الأرض أم في السماء ويطلق على كل ما يسبح في السموات وهم منقادون لأمره ويسيرون حسب إرادته ويقول الشوكاني (له وحده يخضع وينقاد لا لغيره ما في السموات جميعا وقد دخل في عموم ما في السموات وما في الأرض جميع الأشياء الموجودة فيهما، وإنما خص الدابة بالذكر لأنه قد علم من قوله تعالى: (**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ**)انقياد الجمادات [2].

فإن هذا الكون الفسيح الذي لا يعرف الإنسان إلا جزءاً قليلا منه تعج بالحياة والسكان، ولا يعرف حقيقة ذلك إلا الله تعالى كما يقول: (**عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً**)[3]، وخلق من الكائنات ما تعرفنا عليها بالمشاهدة وما ذكره لنا في كتابه الكريم وإلا نعلم من خلقه، ويخلق ما لا تعلمون، ولا مانع من أن الله تعالى خلق أرضين أخرى شبيهة بأرضنا في غير مجموعتنا الشمسية، وخلق عليها حياة كحياتنا، غير أن الإنسان هو الكائن الوحيد في هذا الكون الكلف بالواجبات مع الجن ليجزيهم على أعمالهم كما يقو الله تعالى: (**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَا تِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** )[4]، الأمانة الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب [5]. وقال القرطبي: (والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور) [6].

ويقول محمد جمال الدين الفندي: (ولا نعرف حقيقة الحياة على الكواكب الأخرى البعيدة عنا لأننا لم تتح لنا فرصة زيارة السموات والاتصال الفعلي بسكانها،

---

[1] - سورة النمل الآية: 49.
[2] - فتح القدير، ج 3، ص: 166.
[3] - سورة الجن الآية: 26.
[4] - سورة الأحزاب الآية: 72، علي بن أحمد بن محمد مفسر عالم بالأدب توفي سنة (468هـ).
[5] - فتح القدير الشوكاني، ج 2، ص: 308.
[6] - المصدر نفسه.

ولا يمكننا الإحاطة بملكوت الله تعالى ولا الاطلاع على حقيقتها إلا ما يرينا الله من معجزات خلقه) [1].

## الإطباق الطائرة [2]:

على الرغم من أن بعض الناس يعتقد أن مخلوقات ذكية جاءت إلينا في إطباق طائرة لاستكشاف الأرض وزيارتها والتعرف على أهلها، فلا تزال لغزا من ألغاز العلم الحديث، وأشبه ما تكون بقصص الخيال العلمي [3]، أما كيف تدار هذه الأطباق الطائرة؟ وكيفية الإشراف عليها، فقد قرر أصحاب بعض البلاغات التي أذيعت أنهم شاهدوا مخلوقات في هذه الأطباق الطائرة، وتجتمع أراؤهم على أن هذه المخلوقات من أشباه البشر إلا أنهم قصار القامة إلى درجة كبيرة بحيث لا يزيد طول الواحد منهم على 90سم أو يبلغ طولها قدمين أو ثلاثة أقدام فقط [4]، وإن ألوانهم أقرب إلى اللون الأسمر ولهم أسنان بيضاء، يرتدون أردية زرقاء أو خضراء وعلى رؤسهم قلنسوات معدنية وفي صدورهم مصدر لجهاز يشع، وهناك من البلاغات ما يصفهم أنهم على ضخامة كبيرة[5]. إلا أنه لم يعرف عن حقيقة الأطباق الطائرة شيء إلى اليوم وما نشر في أوصافهم المختلفة واختلاف الآراء حولهم يجعلنا في شك من أمرهم، ولا مانع من قدرة الله أن يأمر الملائكة بأن يظهروا للناس على هيئة البشر ولها أشكال مختلفة في الطول والقصر ويقول تعالى: **(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ)** [6]، أو أن الجن يتحولون إلى هذه الأجسام الغريبة ليعلم الإنسان أنه لو تمرد عن القانون الإلهي سيتعرض لهجوم من قبل جند الله المخلصين الذين تركوا أثار الدمار على من طغى على هذه الأرض، وهكذا يتضح عظمة الله في خلقه وإن كونه الفسيح تعج بأنواع المخلوقات لا يعلم عددها وكنهها إلا الله تعالى خالق هذه المخلوقات

---

[1] - الله والكون، ص: 417.

[2] - أطبق الشيء أي غطاه وجعله مطبقا فتطبق.

[3] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 760، وينظر: النجوم، الناس الذرة تأليف هاينز هابر، ترجمة عبد العزيز عثمان، ص: 118.

[4] - النجوم، النا، الذرة، ص: 188.

[5] - السماء وأهل السماء، عبد الرازق نوفل، ص: 112.

[6] - سورة الأنعام الآية: 9.

وما علينا إلا أن نتأمل في خلقه وتبديع نظامه ويقول تعالى: **(قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ)** [1].

---

[1] - سورة يونس الآية: 101.

# الفصل الخامس

# خالق الكون في القرآن الكريم

# خالق الكون في القرآن الكريم

إن أهم ما يحتاج إليه الإنسان في المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه، وإن خالقنا خبيرا يعجز الناس عن إدراك كنهه يسير المسرحية الكونية إلى غاية نبيلة بما فيها من الأجرام المماثلة السابحة في الفضاء، والظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض والليل والنهار والظلمات والنور، وخلق الإنسان من العدم، وأنشأ تلك المخلوقات العجيبة التي تدب حول الإنسان على الأرض على اختلاف أنواعها وأشكالها، والأديان السماوية التي تعاونت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى وإرشادها نحو الحق اجمعوا على أن خالق هذه العقلية هو الله الواحد الأحد، غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقاليم مختلفة، أما عقيدة الإسلام فترى أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعا وتعلن وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة، فخالق الكون في القرآن هو منشئ الحياة وموجد الكون، وهو يحي الأرض بعد موتها ويخرج منها من كل الثمرات[1].

يقول تعالى: (**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**) [2]، أي فإذا أنزل الله المطر على الأرض اهتزت وتحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها من الثرى ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزرع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها[3]، فلو منع قطر السماء وحبس نبات الأرض وأوقف نشاط الحياة فمن يقدر على تسيير شيء أوقفه الله تعالى؟ ولهذا بلغت أنظار الناس إلى التأمل في هذه الخيرات التي بها قوام حياتهم ويقول: (**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ∃ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَباً ∃ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاً ∃ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَباً ∃ وَعِنَباً وَقَضْباً ∃ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ∃**

---

(1) - قصة الحضارة، ج 3، ص: 54.
(2) - سورة الحج الآية: 5.
(3) - ابن كثير، ج 3، ص: 208.

**وَحَدَائِقَ غُلْباً ∃ وَفَاكِهَةً وَأَباًّ ∃ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**)[1]، ويقول أيضا: (**وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَباًّ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ...** )الآيات [2].

وأنه تعالى خالق لأصل وجود الكون ومقدر لسننه ونظامه، ويقول: (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**) [3]، وهو مالك له ومتصرف فيه وقادر على توسيعه وزيادته، وعلى إبادته وإفنائه وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك حاكم ببقائه واستمراره [4]، (**أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ**)[5].

فإذا تأملنا في الكون وما يحتوي عليه من موجودات صغيرة يؤدي بنا إلى الإيمان بوجود خالق له، إذ أنه من المستحيل عقلا أن تكون هذه المخلوقات قد وجدت من تلقاء نفسها[6]، وقد أشار القرآن إلى هذه الدلالة في آيات كثيرة منها قوله: (**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلاَ هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ** ) [7]، بين القرآن الكريم فكرة الخلق، وقال: إن الله خلق كل شيء من لا شيء وأوجد العالم من العدم وفند فكرة قدم المادة وأشار إلى بدء الزمان كما بين نهايته[8]، ويقول تعالى: (**اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** )[9] ، يقول: (**قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** )[10]، وهو مبدئ الكون وخالق الأسباب والعلل وقوانينها ويقول الأستاذ محمد المبارك:

(وعلى هذا فالكون أو الطبيعة وما في ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلوماتها كلها مخلوقة وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من

---

[1] - سورة عبس الآية: 24-32.
[2] - سورة يس الآية: 33.
[3] - سورة الفرقان الآية: 2
[4] - الإسلام يقينا لا تلفيقا، تأليف د. صابر طعيمة، الطبعة الأولى ( 1399هـ) ( 1979م)، دار الجليل، بيروت، ص: 139.
[5] - سورة الأعراف الآية: 54.
[6] - مجلة كلية الشريعة بالإحساء، ص: 417.
[7] - سورة الزمر الآية: 5.
[8] - دراسات إسلامية معاصرة، تأليف أنور الجندي، الطبعة الأولى (1402 - 1982)، ص: 72.
[9] - سورة الروم الآية: 11.
[10] - سورة يونس الآية: 34.

وجودها وهو وجود الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها وأسبابها ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب ولا علة لأنه خالق الأسباب والعلل ومقدر سننها وقوانينها[1].

والله تعالى إله القوة[2]، يقول تعالى: (**وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**) [3] ويقول: (**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**) [4]، ونرى الأجرام السماوية سابحة في السماء دون أن يستند أعلى أعمدة كما يستند سقف البيت على جدران أو أعمدة، فالله تعالى خلق بقدرته أعمدة غير مرئية وهي ما بثه في الكون بين الأجرام في الجاذبية ورفع بها السموات وأجرامها، وأمسكه بقوته وقدرته ويقول تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورا**)[5]، ويقول:(**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ** )[6]، وإن دوام السموات والأرض على هذا النظام الذي أجراه الله في الكون دون اختلال في أية صفحة منه دلالة واضحة وبرهان جلي على قدرته تعالى، ولئن أزال الله السموات والأرض، أو أوقف ما يحتاجه الكائنات في الحياة فمن غير الله قادر على إعادة السموات والأرض أو يوفر الغذاء للأحياء؟ [7]، وهذه الأمور من لوازم وجوده، فلو لم يكن كذلك لم يكن خالقا ولو صم بالنقص والله تعالى منزه عن النقص ومتصف بكل صفات الكمال.

وخالق الكون إله واحد ويقول تعالى: (**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ**)[8]، ولقد أثبت العلم الحديث وحدانية الله بالنظر في وحدة

---

[1]- نظام الإسلام العقيدة والعبادة،تأليف محمد المبارك، الطبعة الأولى، ( 1388هـ) (1968م)،دار الفكر، بيروت،ص: 52.
[2] - قصة الحضارة، ج 13، ص: 54.
[3] - سورة الشورى الآية: 19.
[4] - سورة لقمان الآية: 10.
[5] - سورة فاطر الآية: 41.
[6] - سورة الروم الآية: 41.
[7] - هناك آيات كثيرة في هذا الموضوع منها آيتا الرعد: 2-3، وآية الكرسي، والحج: 5-7، والأنعام: 46و 61-62، وأخرى كثيرة.
[8] - سورة المائدة الآية: 73.

النظام الكوني وذلك من خلال التعرف عليه ومن خلال التشابه والتماثل في هذا الوجود وبهذا أثبتت حقائق العلم أن الكون على اختلاف مظاهره واحد متماسك متكامل مما أدى إلى جعل وحدانية خالق الكون فوق شك المشركين [1]، ولأن التعدد مدعاة للفساد والخلاف والتعالي[2]، ويقول تعالى: (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ) [3]، ويقول: (**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**)[4]، ولو كان في السماء والأرض آلهة أخرى غير الله لفسدتا لأن هذا يريد إيجادا وهذا يريد فناء فلا يتفقان، وإذا اتفقا فالاتفاق يدل على العجز، والعجز يتنافى مع الإلوهية، ولهذا يؤمن المسلم بوحدانية الربوبية، فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف سوى الله، ولا معبود ولا مستعان غير الله تعالى [5]، وكل من اتخذوه إلها لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فكيف يمكن أن يشرك بالله، وإن ينسب إلى هؤلاء صفة الإلوهية؟ فوحدة الكون ووحدة النظام، والانسجام التام بين المادة والطاقة يفند دعوى إلوهية المادة والوثنية ويدعو إلى وحدانية الله تعالى، (وفي كل شيء له آية ـ تدل على أنه واحد).

والله تعالى مع سلطانه وعدله رحيم أبدا، فكل سورة من سور القرآن تبدأ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) عدا سورة التوبة، وأنه يرزق كل حي أينما كان، وأنه أعد لنا الأرض مضيفا رائعا وعمر وجهها بآلا ف الهدايا، وفرش بتلك الرحمة مائدة تحوى عشرات الآلاف من مختلف الأطعمة اللذيذة المعدة على تلك المائدة[6]، يقول تعالى: ( **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**)[7]، ويقول: (**وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ** ) [8]، وإن الرحمن بواحدية تلك الرحمة وبإحاطتها يظهر هيبة جلالة على الكون كله وعلى الأرض كلها، فإنه يتجلى

---

[1] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 50.
[2] - أنور الجندي، ص: 76.
[3] - سورة الأنبياء الآية: 22، والآيات التي تليها إلى 25.
[4] - سورة الإسراء الآية: 42.
[5] - أنوار الجندي، ص: 66.
[6] - الآية الكبرى سعيد النورسي، ص: 139.
[7] - سورة هود الآية: 6.
[8] - سورة العنكبوت الآية: 60.

أحديته في كل ذي حياة وخاصة الإنسان، يعلن رأفة بجماله ويعرف تمركز أنواع أحسانه في الإنسان[1].

والله تعالى ينفرد بالتشريع والحاكمية، وأنه لا مشرع ولا حاكم إلا الله، ولا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وبني الإنسان من جنسه إلا الله، فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع ومنهج الحياة ونظام المعيشة وقواعد الارتباط[2] ولهذا يربط القرآن الكريم بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الضمير وفي الحياة ربطا وثيقا ويرتب على وحدانية الالوهية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود ما يكلفه المسلم، سواء ما يكلفه من شعور أو من شعائر العبادة أو من التزام في الشريعة [3]، والحاصل أن الوحدانية الشاملة الوحدانية الذات ووحدانية الصفات ووحدانية الأفعال تنفي كموما خمسة [4]، الكم المتصل [5]، في الذات، والكم المنفصل [6]، وهذان الكمان منفيان بوحدة الذات، والكم المتصل في الصفات وهو التعدد في صفاته من جنس واحد والكم المنفصل في الصفات وهو أن يكون لغير الله صفة تشبه صفته وهذان الكمان منفيان بوحدانية الصفات، والكم المنفصل في الأفعال وهو أن يكون لغير الله فعل من الأفعال على وجه الإيجاد، وهذا منفي بوحدانية الأفعال[7].

والله تعالى في العقيدة الإسلامية مخالف للحوادث ويتصف بصفات الكمال المطلق غير مماثل لصفات المخلوق المحدود الذي تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت ويطرأ عليه زيادة ونقص وضعف ونسيان ونو وافتقار إلى الغير وهو سبحانه وتعالى لا يعتز به نسيان ولا نو وعلى غفلة ونقص ولا يتحدد بحدود مكانية أو زمانية ولا يتصف بولادة ولا قرابة ونسب[8]، ويقول بول كليرانس ابرسولد: (أنني لا أستطيع أن أتصور

---

(1) - الآية الكبرى، ص: 141.
(2) - خصائص التصور الإسلامي، ص: 222.
(3) - المصدر نفسه.
(4) - تحفة المزيد، إبراهيم اللقاني، ص: 59.
(5) - وهو ما تركب من أجزاء.
(6) - بأن يكون هناك إلهان فأكثر.
(7) - تحفة المريد، ص: 59-60.
(8) - الإسلام يقينا لا تلقينا، ص: 138.

الله تصورا ماديا بحيث تستطيع أن تدركه الأبصار أو أن يحل في مكان دون الآخر، أو يجلس على كرسي أو عرش) [1]، ومن هنا يتميز الخالق عن المخلوق من أن الخالق موجود الأسباب والعلل والمكان وهو خارج عن دائرة المخلوق، أما المخلوق فحادث ضمن دائرة الحوادث والمخلوقات، ويقول تعالى: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**) [2]، ويقول: (**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ) [3]، وكذلك أن الله تعالى يحيط بكل شيء علما، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: (**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ) [4]، ويقول: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ** ) [5]، (**يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**)[6].

وأنه تعالى يعلم المستقبل كما يعلم الماضي والحاضر، وأنه يعلم ما سيحدث في المستقبل وقرر كل شيء منذ الأزل بإرادته مهما كان ضيقا أو صغيرا وهذا ما يشير إليه في قوله تعالى: (**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ∃ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ** ) [7]، أي ان الله تعالى يعلم حملها ( **وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ** ) الغيض النقص أي يعلم الذي تغيضه الأرحام أي تنقصه[8] وقد أثبت للعلم الحديث أن الجنين لا يخلق من كل ماء الرجل والمرأة وإنما في جزء منه حيث تفرز بويضات في المبيض وتستعد واحدة للتلقيح ويتسابق ملايين حيوان منوي في ماء الرجل نحو البويضة ويفوز واحد من بين هذه الملايين في السباق وينال الجائزة[9].

ويموت الباقي عند اصطدامهم بجدار الرحم عندما أغلقت بابها هذا سر قوله تعالى: (**وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ**) ، (**وَمَا تَزْدَادُ**)، أي ينمو في الرحم ويزداد الجنين ويدخل

---

(1) - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 39.
(2) - سورة الشورى الآية: 11.
(3) - سورة الإخلاص الآية: 4.
(4) - سورة غافر الآية: 19.
(5) - سورة ق الآية: 16.
(6) - سورة التغابن الآية: 4، وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم.
(7) - سورة الرعد الآية: 8-9.
(8) - فتح القدير، ج 3، ص: 68.
(9) - مقتبس من محاضرة مسجلة في الإعجاز العلمي للقرآن للشيخ عبد المجيد الزاندي.

في أطواره من تحول النطفة إلى العلقة إلى المضغة[1] وهكذا، وعقب ذلك بقوله (**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**)، والتناسق واضح بين كلمة مقدار وبين النقص والزيادة[2] أي كل شيء من الأشياء المذكورة عند الله بمقدار، والمقدار: هو القدر الذي قدره الله ويقول تعالى:(**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**) [3]، أي كل الأشياء جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه ولا يخرج عن ذلك شيء.

وكذلك قوله تعالى: (**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ**)[4]، فسبحان من تفرد بسلطانه وقدرته وانه الواحد الأحد العليم القدير المتصف بكل صفات الكمال.

---

(1) - يقول تعالى: سورة المؤمنين الآية: 12-14.
(2) - في ظلال القرآن، ج 4، ص: 2049.
(3) - سورة القمر الآية: 49.
(4) - فتح القدير، ج 3، ص: 68.

# الفصل السادس

# وصف الكون في القرآن الكريم

# وصف الـكـون فـي الـقـرآن الـكـريـم

أن تعبير القرآن عن الكون وأسراره يفوق كل التعبيرات البشرية عن مختلف الجنسيات والقوميات، حيث أعجز العرب البلغاء عن الإتيان بمثله أو بأقصر سورة من سوره عندما تحد أهم في ميدان البلاغة والفصاحة، وأعجز غير العرب في مجال العلم والثقافة عندما عجزوا عن خلق أي شيء شبيه بخلق الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى يقول: (**يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ∃ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**) [1].

فالقرآن الكريم عندما يشير إلى الظواهر الكونية إنما يشير إليها على سبيل إيقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرها تفسيرا صحيحا، فعباراته أشبه شيء بالومضات القوية التي تنير أمامه، العقل: السبيل ليدرك نظام الكون وقوانينه [2]، وهو عندما يصف الكون بصورة للإنسان تفسيرا حيا تنجذب إليه الفطرة السليمة وتتعظ به العقول النيرة والبصيرة النافذة ويجد تناسقا بين اللفظ والمعنى ما لا يجده في وصف الشعراء والأدباء.

وصف الـلـيـل:

إن الله سبحانه وتعالى في ظاهرة من ظواهر الليل والصبح يقول: (**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ∃ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**)[3]، فمعنى عسعس: إذا أظلم، ولكن وصف الليل بهذه الكلمة يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى[4]، وهو إيحاء عجيب واختبار لتغيير رائع، وكذلك قوله تعالى: (**وَالصُّبْحِ إِذَا**

---

(1) - سورة الحج الآية: 73.

(2) - الإنسان والكون في الإسلام، د. أبو الوفا الغنيمي التغنازاني، طبع سنة ( 1975)، دار الثقافة للطباعة والنشر.

(3) - سورة التكوير الآية: 17-18.

(4) - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3841.

**تَنَفَّسَ** ) فهو أزهر حيوية وأشد إيحاء، فالصبح حي يتنفس، وأنفاسه النور والحياة والحركة التي تدب في كل حي بحثا عن الرزق هو تصوير لانفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه[1]، ويمكن أن نجزم بأن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لاتحتوي نظيرا لهذا التعبير عن الصبح الذي عبر عنه القرآن، فرؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه يتنفس بالفعل، ثم يصور القرآن هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح والمتذوق بجمال التعبير والتصوير ليدرك أن قوله تعالى: (**فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ∃ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ∃ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ∃ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**) هو ثروة شعورية وتعبيرية بديعة تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر الأخذة بالألباب وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر[2].

وهناك لغة سرية بين مشاهد الكون وظواهره وبين القلب الإنساني وبينهما تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت، وهي تنطق القلب وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ويجد عندها الإنس والمناجاة والتجاوب[3].

والقرآن الكريم عندما يصف الكون ويصوره يضع معالم بسيطة أمام العقل الإنساني، لترسم الصورة في مشاعره وبصيرته ليؤمن بوجود من أتقن كل شيء خلقه.

وصف الأرض:

وفي الأرض بالنقصان يقول تعالى: (**أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغَالِبُونَ**) [4].

ويقول: (**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**) [5]، نلمح فيهما فكرتين متميزتين ينبغي أن نأخذ كلا منهما على حدة.

**أولاً**: الفكرة الأولى: أن الأرض ذات طابع هندسي، حيث عين شكل الأرض ضمنا في أطرافها أي جوانبها [6].

---

(1) - التعبير الفني في القرآن، تأليف الشيخ أمين البكري، دار الشروق، (1972)، ص: 179.
(2) - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3842.
(3) - المصدر نفسه، ص: 3916.
(4) - سورة الأنبياء الآية: 44.
(5) - سورة الرعد الآية: 41.
(6) - ينظر: تفسير الواضح، ج 1، ص: 508.

الفكرة الثانية: أن الأرض ذات طابع آلي، حيث قال (ننقصها) ومن الواقع أن لفظه (أطراف) تقتضي فكرة عن شكل الأرض، ولكن أي شكل هو؟ أن الأرض لا توحي بداهة بشكل خيطي في الفضاء أو بشكل مسطح أو مربع الخ إذ أن أقل نتؤ توحي بفكرة الأبعاد الثلاثة[1].

وبالتالي بشكل هندسي ممتد في الاتجاهات الثلاثة أيضا ولكن جميع الأشكال الهندسية في الفضاء لا تتفق مع فكرة الأطراف، وأقرب الأشكال إلى التصور حين يأخذ اللفظ (انتقاص الأطراف)، وحين نساير معارف الهندسة الأرضية عن دحو القطبين الشكل البيضوي[2].

وإن وصف القرآن لشكل الأرض بالانتقاص من الصورة البديهية أمام العقل البشري الذي يبحث عن الدليل العلمي للترقي بمدراج العلم للوصول إلى الحقيقة التي يحدثنا العلوم الجيولوجية والجغرافية عن تأثير قشرة الأرض بالماء والهواء وترسبها في البحار إذ تأخذ مياه الأمطار كمية كبيرة من تراب قشرتها منذ ملايين السنين وينتقص أطرافها إلى أن يحدث فيها الفزع الأكبر وتبدل الأرض غير الأرض.

ولو عدنا إلى حركة الأرض في الوصف القرآني لها نجد أن القرآن يصف حركتها ويقول: (**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** )[3]، هذا الوصف لحركة الأرض تعد جوهرية في ذاتها، لأن الجبال تسير قبل يوم القيامة مثل السحاب التي تظهر للعيان ثابتة، لأن لها حركة تابعة لحركة الأرض، وتستنتج من هذا الوصف فكرة محور الحركة وبالتالي فكرة القطبين اللذين عينهما لفظ (أطراف) ودهوهما[4].

## وصف القمر:

---

[1] - الطول والعرض والعمق.
[2] - الظاهر القرآنية، مالك بن بني، ص: 344.
[3] - سورة النمل الآية: 88.
[4] - ينظر: الظاهرة القرآنية، ص: 345.

ومن أسلوب القرآن الكريم في تقريب الصورة إلى الذهن أنه شبه معالم الكون ببعض الظواهر المحسوسة ليدرك حقيقة المشبه الدال على عظمة الخالق وقدرته، ففي قوله تعالى: (**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ) [1]، وصف الله تعالى القمر بالضعيف عندما يعود في لياليه الأخيرة وشبهه بالعود اليابس المنحني [2] ويبدو في الليلالي الأولى وكأن فيه نضارة وفتوة وفي الليالي الأخيرة يطلع وكأنها يغشاه سهوم ووجوم[3]، ويكسوه ذبول، وكأنه طفل يقبل بنشاطه على الحياة ويرتقي حتى يصل إلى الضعف الذي كان عليه حال الطفولة.

ومن يعش مع القمر دورة كاملة لا ينجو من تأثرات بالجمال الذي تشير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية عميقة، ويتلك القدرة المدبرة للأجرام بهذا النظام سواء أكان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أم لا يعلم، فالمشاهدة وحده كفيلة بتحريك القلب وأثارة التدبير والتفكير ليلاحظ دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام السابحة في مداراتها وأفلاكها، دون أن يصطدم أحد هذه الأجرام بالأخرى، فلا ينبغي للشمس أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار[4].

فالإنسان المفكر في أحوال الكواكب المتناثرة التي وصفها الله تعالى بالسابحات في الفضاء الفسيحة حولها ليدرك تماما أن الإنسان لا يساوي شيئا في هذا الكون إذا قيس بحجم الكواكب أو كوكب واحد الجاري على نظام ثابت منقاد لأمر خالقه، ولكن الإنسان مع ضالته وعجزه يرى نفسه أكثر مما خلق عليه فيسعى جاهدة لتضليل الفكر والابتعاد عن جمال الكون وتناسق خلقه الدالين على عظمة الله سبحانه وتعالى.

وقد اتخذ القرآن أسلوب التصوير في وصف الكون لتحقيق أهدافه وتقريب المعاني الغيبية الذهنية في صور حسية رائعة إلى الأذهان لتجرى مجرى الأمثال، وهذا ما تلمسه في قوله تعالى: (**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ∃ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن**

---

[1] - سورة يس الآية: 39.

[2] - كالعذق الذي يكون البلح من النخلة.

[3] - الذي اشتد حزنه.

[4] - في ظلال القرآن، ج 5، ص: 2969.

**كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** [1].

هذا تصوير واضح أمام الوجدان الإنساني وهو يقف أمام مشهد الكون المنظور، إذ جمع الله دولة الكون ونظامه الثابت وهو قادر على إدارته ليرجع الإنسان بصره عمد إلا الله، ثم يحدثنا عما في تلك البنيان المرفوعة من مهارة وإتقان، وعما وراءها من القدرة الحقة التي لا يتطاول إليها خيال الإنسان[2].

تناسق الآيات مع وصف الكون:

ومنجهة التناسق بين آيات القرآن الكريم مع وصف الكون نجد أنه يوجه الإنسان إلى ملكوت الله[3]، حيث شبه الحياة على الأرض بكل عيبوها بماء أنزله من السحاب المسخر بين السماء والأرض، حتى تألقت الأرض بالزينة وأخذت الأرض زخرفها وظن سكانها أنها ازدهرت بجهدهم ولا يغير عليهم أحد ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب وفي نشوة هذا الفرح وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس إذ يقول تعالى: **(إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** [4]، فجمال الحياة مرهون بجمال الأرض ونزول الأمطار وتنوع الأزهار والثمار مما يزيد العاقل حيرة وتعجبا بحكمة من يدير هذا الكون وأن التناسق في التغيير القرآني وسر الجمال الفني في الاستعارة القرآنية يعود إلى:

اختيار الألفاظ المتناسقة في اللفظ والمعنى حيث يقول: **(وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)** [5]، فإن كلمة (نسلخ) تصور للعين ذهاب الضوء

---

(1) - سورة الرعد الآية: 2-3.
(2) - في ظلال القرآن، ج 4، ص: 2044.
(3) - التعبير الفني في القرآن، ص: 231.
(4) - سورة يونس الآية: 24-25.
(5) - سورة يس الآية: 37.

ومجيء الظلمة كالسلح من الشيء [1]، وإذا تراجع الضوء وظهر ما كان مختفيا من ظلمة الليل[2]، فهذه استعارة بليغة وكلمة مناسبة لهذا المقام، وكذلك اختار القرآن كلمة (ذلولا) في مناسبة أخرى إذ يقول: (**هُ وَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ) [3]، لينظر الإنسان تحت قدميه ويعرف أن الأرض ذلولة من ناحية:

1. جاذبيتها لكل ما عليها نحو مركزها وشدهم أثناء حركتها التي يحددها ميل محورها بزاوية 23.5 لأن هذا الميل هو الذي تنشأ منه الفصول الأربعة.

2. بسط سطحها وتكوين تربتها لينة فوقها، وجعل الهواء المحيط بها محتويا على العناصر التي تحتاج إليها الحياة بنسب لازمة دقيقة لو اختلت ما قامت الحياة وقد أعطى كلمة (ذلولا) تعبيرا دقيقا وتواضعا للأرض التي أعدت للحياة وصور فيها تغيرات الحياة ومراحلها المختلفة ابتداء من الطفولة إلى الشيخوخة والفناء والعودة إلى الله، وخلق الله فيها جمالا وزينة ونقشها بالجبال والوديان، وطرزها بالأنهار والعيون، وزين السماء بزينة الكواكب كأنها ليال عرس زينت بمصابيح ملونة[4]، حيث أفتتن كثير من الناس بجمال الطبيعة الخلابة ومعادن وكنوز دون أن ينتبهوا إلى من صور هذا الجمال وألبس الطبيعة هذه الحلل السندسية الخضراء والذي لا يغفل عنه لحظة واحدة. حيث يأمر الإنسان العاقل أن ينظر إلى طعامه كيف ينبت شجرته في الأرض وتنمو وتؤتي أكلها ويقول:( **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ∃ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَباًّ ∃ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاًّ ∃ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباًّ ∃ وَعِنَباً وَقَضْباً ∃ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ∃ وَحَدَائِقَ غُلْباً ∃ وَفَاكِهَةً وَأَباًّ ∃ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**)[5].

(1) - فتح القدير، ج 4، ص: 769.
(2) - التعبير الفني في القرآن، ص: 197.
(3) - سورة الملك الآية: 75.
(4) - في ظلال القرآن، ج 6، ص: 3638.
(5) - سورة عبس الآية: 24-32.

# الفصل السابع

# الحضارة الناشئة من القرآن الكريم

# الحضارة الناشئة من القرآن الكريم

إن كل حضارة إنسانية تنبثق عن مفهوم للوجود وتصور للإنسان يحدد موقعه في الوجود وعلاقته بالكون وبما وراءه، وتنطلق هذه الحضارة من اعتقاد يؤمن به الإنسان في هذا المجال.

فالعقيدة سواء أكانت دينية أم فلسفية فكرية هي الأساس الذي تقوم عليه حضارة أولئك الذين يدينون بتلك العقيدة أو الفلسفة، بل تقوم عليه جميع الأنظمة الاجتماعية في تلك الحضارة، لذلك فمن العسير أن تفصل نظام الحكم في الإسلام عن عقيدته، إذ تعد الحاكم عبد الله اختير ليسوس الجماعة الإسلامية سياسية تطبق فيها أحكام الإسلام بالتشاور مع أهل الرأي من المسلمين[1].

فهذه النظرة إلى الحاكم والمحكومين من عامة الناس وما بينهما من صلة، منبثقة عن التصور الإسلامي الذي يعد البشر متساوين أمام الله تعالى، يقول تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**)[2].

وإن الله استخلف بني آدم في الأرض دون أن يخص منهم أفراد أو أسرة أو طبقة بهذا الاستخلاف، وإن أمير الجماعة ليس إلا إنسانا يخطئ ويصيب وكذلك البشر كلهم وإن معالم الهداية حددها الله تعالى كما حدد للكون سننه وللطبيعة قوانينها، وإن الاستهداء بها وحسن تطبيقها راجع إلى الجماعة كلها لا إلى رأي فرد، لذلك كانت الشورى أساسا للنظام الإسلامي، يقول تعالى: (**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** )[3]، ويقول: (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**)[4]، وكانت مسؤولية الحاكم بارزة في هذا النظام[5].

---

(1) - نظام الإسلام محمد مبارك، ص: 37.

(2) - سورة الحجرات الآية: 13.

(3) - سورة الشورى الآية: 38.

(4) - سورة آل عمران الآية: 159.

(5) - نظام الإسلام، ص: 37.

ولا بد للإنسان في المجتمع الإسلامي أن يقيم لمجتمعه نظاما من عقيدة وفلسفة، فما هي العقيدة التي هي أساس نظام الإسلام وما هي نظرته العامة إلى الوجود؟ وما موقع هذه العملية بين المسلمين؟.

أولاً: لو رجعنا إلى القرآن الكريم بخصوص أسس الحضارة الإسلامية والنظام الذي بني عليه لوجدنا أنه يعطينا جوابا كافيا وقاعدة حضارية لم يصل إلى مستواه أية حضارة منذ ظهور البشرية على الأرض.

لقد كان خطاب القرآن الكريم موجها منذ البداية إلى الإنسان بوجه عام، لا إلى قبيلة أو قوم بوجه خاص، ويجلو ذلك في نداء الله تعالى بني البشر في آيات عدة كقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) و (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ** )، ويبدو من هذا الخطاب أن الناس كلهم عباد الله، وكلهم من آدم وآدم من تراب، وكلهم متساوون أمام الله، وميزان المفاضلة التقوى لا المال ولا الجاه والسلطان وليس في الحضارة الإسلامية مشكلات لونية أو عرقية[1]، لذلك دعا القرآن الإنسان إلى الإيمان بالله خالق الإنسان من العدم، والإيمان بيوم الآخرة التي تعرض فيها أعمال البشر ويجد فيها الإنسان جزاءه أن خيرا فخير وإن شرا فشر.

إلا أنه حين دعاه إلى الإيمان انطلق به للنظر إلى الكون الذي يعيش فيه، كما دعاه للنظر إلى نفسه إذ يقول: (**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ∃ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** )[2]، ولفت نظر الإنسان إلى التأمل فيما حوله من الآيات ثم ينتقل به إلى التأمل في نفسه ليرى فيهما آثار الله على قدر استطاعته وعلمه، ليتضح له سر قوله تعالى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ) [3]، ولذلك نجد أن الكلام يتكرر فيه عن الإنسان ومشاهد الكون على أنهما طريق الوصول إلى ما وراء الطبيعة.

**ثانياً**: أن الكون المعروض في القرآن الكريم عام يشمل الأرض التي نعيش فوقها وما عليها من الجبال والبحار والأنهار ثم يتجاوزها إلى النجوم والكواكب، وإلى

---

[1] - الإسلام يقينا لا تلقينا، ص: 225.
[2] - سورة الذاريات الآية: 20-21.
[3] - سورة فصلت الآية: 52.

الشمس والقمر وما يبصره الإنسان وما لا يبصره من المجرات، يقول تعالى: (**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ∃ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ∃ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ∃ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ∃ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوَارِثُونَ**) [1].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: (**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**) أي بسطناها وفرشناها، (**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُون** ) أي أنبتنا في الأرض مقدار معلوما من كل شيء فعبر عن ذلك بالوزن لأنه مقدار تعرف به الأشياء، (**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**) تعيشون بها من المطاعم والمشارب وجميع أسباب الرزق مدة الحياة، (**وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** ) وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش كالأطفال ومن يعيلهم، (**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ**) إن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها أي شيء، ( **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**)، أي بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه، ( **وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ** ) أي تحمل السحاب وتلقحه ثم تمر به وتنزله، ( **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** ) أي من السحاب ماء المطر وجعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم وليست خزائن عندكم [2]، ويرنا القرآن كذلك أن كل تقلبات الكواكب وحوادث الأفلاك ذات صلة بالأرض والحياة، (**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ∃ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ...** ) [3]، ويخرجنا في نهاية المطاف من باب النتيجة إلى أن هذا الكون العام بنظامه وتقلباته يخضع لسلطات الله وقدرته وسخر فيها الأرض للإنسان من أجل أعمارها وتنفيذ حكم الله فيها. ويوضح هذه الظاهرة قوله تعالى: (**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**) [4]، وقال تعالى: (**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ**

---

[1] - سورة الحجر الآية: 19-23.
[2] - فتح القدير، ج 3، ص: 126-127.
[3] - سورة يس الآية: 37-40.
[4] - سورة الملك الآية: 15.

**الأَنْهَارَ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)**[1]، فمادة الكون خلقها الله للإنسان ويسر له أسباب تسخيرها واستخدامها لصالحه، فإذا رد هذا الفضل إلى الله فهو من عباد الله، وإن رده إلى الطبيعة أو العقل غير الله تعالى فهو ظلوم كفار[2]، فالكون في نظر القرآن ليس عدوا يحارب، ولكنه مجال عمل وميدان نشاط يبذل فيه الإنسان الفكر والجسم ليعمره، وهذا التسخير والتلائم مربوط بتكريم الإنسان وحمله في البر والبحر لقوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**) [3].

**ثالثاً** : الكون كما يعرضه القرآن الكريم تجرى على مسرحه حوادث تتبدل وتتغير، وتتميز بعضها عن بعض بالحركة وتنتقل من طور إلى طور مما يدل أن عناصر الكون مخلوق، ويقول القرآن الكريم: (**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ) [4]، ويقول: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ** ) [5]، وكذلك أطوار خلق الإنسان: (**وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً** ) [6]، وإن هذه الحوادث مرتبط بعضها ببعض ما بين سابق ولاحق بانتظام واطراد، ويدل على أنها تتبع سننا مطردة في حدوثها وحركتها [7] يقول تعالى: (**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ) [8]. وكذلك اختلاف الثمرات والألوان والجبال، يقول تعالى في اختلاف الثمار: (**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ**

---

(1) - سورة إبراهيم الآية: 32-34.
(2) - الإسلام يقينا لا تلقينا، ص: 225.
(3) - سورة الإسراء الآية: 70.
(4) - سورة الحج الآية: 5.
(5) - سورة النور الآية: 43.
(6) - سورة فاطر الآية: 11.
(7) - نظام الإسلام، محمد المبارك، ص: 42.
(8) - سورة الأعراف الآية: 54.

**صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** [1]، وإن هذه الثمار متشابه وغير متشابه، ويقول تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَباً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**[2].

وحول اختلاف الألوان يقول تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ)** [3]، ويقول تعالى: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)**[4]، ولو تأملنا في هذه الآيات لا لفينا أن القرآن يرينا الدلائل المنظورة والمشاهدة على مخلوقية الكون مما نراه من الحوادث المتعاقبة عليه واختلاف الثمار والأشجار والأطعمة المسقاة بماء واحد واختلاف الأنواع والأجناس وألوان البشر وألسنتهم وطبائعهم واختلاف ألوان الجبال والتناسق التام بين حوادث الأفلاك والأكوان كل ذلك دليل لمن له عقل يتدبر في الكون المنظور، ويريد أن يؤمن بخالقه ومن يحدث فيه هذه التغيرات ولم يتعلم أسرار ما كشف الله له من خلقه ويغويه الفلسفات التي لا تستند على دليل علمي صحيح، كما قال تعالى: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)** ، وفي آية أخرى: **(يُؤْمِنُونَ)** ، وفي آية أخرى: **(لِّلْعَالَمِينَ)**، وكل هذه أدلة على أنه تعالى أحدث في الكون هذه التغييرات الطبيعية والفلكية.

رابعاً: لقد ربط القرآن الكريم خلق الكون وما فيهما بالحق في ثنايا بعض الآيات ليكون ذلك برهانا على أن الكون لم يخلق عبثا وأن وراءه خالقا أوجده لغاية، يقول تعالى: **(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ )** [5]، ويقول تعالى: **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ∃ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ )** [6]. قال الشوكاني في تفسير الآية الأولى: أي للدلالة على قدرته

---

[1] - سورة الرعد الآية: 4.
[2] - سورة الأنعام الآية: 99.
[3] - سورة الروم الآية: 22.
[4] - سورة فاطر الآية: 27.
[5] - سورة النحل الآية: 3.
[6] - سورة الدخان الآية: 38-39.

ووحدانيته[1]، ويقول ابن كثير في تفسير الآية الثانية: (يقول تعالى مخبرا عن عدله وتنزيه نفسه عن اللعب والعبث والباطل بقوله تعالى:(**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ) [2]، وقال تعالى: (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ∃ فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**) [3])[4]. وهكذا نجد أن القرآن ينفي العبث عن خلق الكون وما فيه وجعله موضع تأمل وتفكر، ويدعو الإنسان إلى استعمال حواسه وعقله ليدرك بهما أسرار الكون إدراكا أعمق، وكذلك جعله موضع انتفاع واستثمار ومتعة وجمال، ودعاه إلى إحقاق الحق وإقامة العدل في الأرض لينظم إلى وحدة النظام الكوني الذي لا يحيد عن نظامه قيد شعره كما أوضحنا.

**خامساً** : أن الكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته، يقول تعالى: (**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**)[5]، خاضع للاله الأحد المفرد لا يشاركه في الهيمنة عليها مشارك [6]، وهو مالكه: (**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**) [7]، ويقول: (**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**) [8]، وملكه منتظم لا فوضى فيه، ولكن انتظامه واستمرار هذا النظام منوط ومرتبط بإرادته وقدرته حسب ما يقتضيه مشيئته، وكل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل، وليس القانون موجدا للحادثة من العدم، ولا يتصف بالوعي الهادف وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة[9] لذلك كان الإيمان بالله الخالق متمما ومكملا لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين، فهي محتاجة إلى وجوده، ومفتقرة إلى

---

(1) - فتح القدير، ج 3، ص: 147.
(2) - سورة ص الآية: 27.
(3) - سورة المؤمنون الآية: 115-116.
(4) - ابن كثير، ج 4، ص: 145.
(5) - سورة البقرة الآية: 117.
(6) - الطبيعة في القرآن الكريم، تأليف د. ياسر كاصد الزبيدي، ص: 49.
(7) - سورة البقرة الآية: 284.
(8) - سورة الحديد الآية: 5، وآيات كثيرة غير ذلك كـ(آية الكرسي، وآية الصافات، وآية السجدة وآية الرعد) وآية (17-18) المائدة وغير ذلك كثير.
(9) - نظام الإسلام، محمد المبارك، ص: 56.

استمرار إمداده وعنايته مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره [1]، (**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**) .

سادساً: الإنسان أحد هذه المخلوقات الكونية التي أسكنها الله في هذه الأرض وهو يشارك بعض هذه المخلوقات في صفاتها مما يدل على أن حياة الكائنات بما فيها الإنسان تكونت منها بقدرة الله الجبار، فهو يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه وقبول الحياة والإنبات، يقول تعالى: (**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ) [2]، فالأرض الميتة ينزل عليها الماء بأمرين، فإذا بها تستجيب لداعي لحياة فتتبت من الأصناف ما يبهج النفوس [3]، فجعل الله علاقة بين الماء والأرض كما جعل بين الإنسان والأرض علاقة وهذه العلاقة سنة من سنن الله في الكون في إخراج شيء بسبب شيء، ولننظر إلى سر قوله تعالى: (**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ) [4]، مع قوله تعالى: (**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**) [5]، فالماء كالرجل في علاقته بالأرض والأرض كالمرأة في استجابتها له وما ينبت منها أشبه بالنسل الذي يتولد من تزاوج الرجل والمرأة، فالأحياء بالماء أيضا ليس بعيدا عن تكوين الإنسان الأول من التراب الذي لا حياة فيه، ولكن القدرة الإلهية هي التي بثت فيه الحياة وخلقت فيه الروح فإذا هو بشر سوى. هذه الصورة في إنبات النبات بالماء وظهوره متدرجا من طور إلى طور، مشابهة بنشوء الحيوانات والإنسان وتدرجه من نطفة ثم إلى مضغة ... بقدرة الله ومشيئته هذه الصورة الحية تدل على ما ورائها من القدرة المحركة لذلك كله[6]، ثم ربط هذا بمراقبة الله في تنفيذ أحكامه وأداء شعائر العبادة في السر والعلانية لتطهير النفس من الدنس والخطايا والأرض من الجور والفساد لإقامة الإحسان فيهما (أنك تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، ثم ربطه بالآخرة لينال جزاء عمله أن خيرا فخير وإن شرا فشر.

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 56، والإسلام يقينا لا تلقينا، ص: 140.
[2] - سورة الروم الآية: 20.
[3] - الطبيعة في القرآن الكريم، ص: 88.
[4] - سورة البقرة الآية: 223.
[5] - سورة الحج الآية: 5.
[6] - الطبيعة في القرآن الكريم، ص: 88.

# الفصل الثامن
# المقارنة بين
# حضارة القرآن والحضارات القديمة

# المقارنة بين
# حضارة القرآن والحضارات القديمة

إن المقارنة منصبة على بعض المعتقدات والآراء المكونة حول الكون وخالقه في الحضارات القديمة والعقائد الدينية السماوية التي أصابها التحريف والتبديل، وحضارة القرآن الكريم التي جاءت مصححا لهذه التحريفات والتغييرات التي تعرضت لها العقائد السابقة:

1. ينظر القرآن إلى أن الكون وجميع عناصره من الشمس والقمر والكواكب والذرات والأرض ملك لله تعالى ولا يشاركه أحد في ملكه بقول تعالى: (**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ∃ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُواً كَبِيراً** ) [1]، يتصرف في ملكه كيف يشاء يقول تعالى: (**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** ) [2]، ويقول: (**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ) [3]، (**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**)[4].

أما الحضارات القديمة تجعل الأجزاء الكونية مقسمة بين آلهة متعددة كما هو الحال في حضارة بابل وآشور ومصر إذ جعلوا لكل عنصر إلها خاصا به أو بين الهين كما في حضارة فارس إذ جعلوا الكون مقسما بين يزدان وأهرمن.

2. أن عناصر الأجرام السماوية والقمر والكواكب آيات من آيات الله الدالة على وحدانيته، وهما - الشمس والقمر - مسخرتان بأمره يجريان إلى أجلهما المسمى في علم الله، خلقهما لتسهيل الحياة للإنسان وغيره، من أجل أن يبتغي الرزق في النهار، ولمعرفة عدد السنين والحساب، ويسكنوا إلى الراحة وإعادة النشاط والقوة للقيام بالعبادة على الوجه المطلوب، يقول تعالى: (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ**

---

(1) - سورة الإسراء الآية: 42-43.

(2) - سورة طه الآية: 6.

(3) - سورة الحديد الآية: 2.

(4) - سورة الحدية الآية: 5.

**اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** ) [1]، ويقول: (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ∃ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**) [2].

أما الحضارات القديمة فتعد الشمس والقمر الهين اله النهار والحياة واله الليل والظلمة، فالديانة المصرية صوروا الشمس على شكل نسر يقطع الفضاء في سفينته ويغيب وراء الأفق ليولد من جديد، وكانت الشمس نور الالهة الذي يقضي الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه، فيصعد في السماء كاللهب ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء، ولم تكن الشمس إلا عجلة في مركبتها النارية وقدسوا من الحيوانات التمساح والصقر والخفاش وابن آوى والكبش والعجل، وعلى رأسه صورة الشمس، أو أن الشمس عيني موريس ينظر بهما إلى أهل الأرض ليرعاهما[3].

3. أن الكون بما فيه من العناصر والمخلوقات ساجدة لله تعالى (كل له قانتون) لا يخالفون أمره وقوله تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**) [4]، ويستمدون العون والقوة منه تعالى الذي أنشأ الكون من العدم وسخره لجلاله، وكل المخلوقات بما فيها الإنسان ينفذون أمره تعالى، ويتفق التشريع الكوني والبشري عند الخالق تعالى، لأن منشئ الكون ونظامه هو المنزل للتشريعات البشرية وتعاليمهم بواسطة الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله من البشر.

وآخر هؤلاء الرسل وأشملهم رسالة هو محمد بن عبد الله، فوحد طريق العبادة بعبادة الله الواحد الأحد وأبطل ما عداه من العبادات لغير الله.

أما الوجه العبادة في الحضارات الأولى فمتشابهة لدى الإنسان القديم - البدائي - في نشأة الديانات وفي صور الإلهة، في مصر ويونان وسومر والهند والصين وفارس، في تعدد الالهة وعبادة العناصر الطبيعية، لأن هذا التشابه أمر لأن تحتمه

---

[1] - سورة الإسراء الآية: 12.

[2] - سورة النبأ الآية: 10-11.

[3] – الله ذاتا وموضوعا،عبد الكريم الخطيب،الطبعة الثالثة، 1395-1975،دار المعرفة للطباعة والنشر،بيروت،ص: 80

[4] - سورة الحج الآية: 18.

الشعور بين الناس في حياتهما لأولى ووحدة الحياة التي كانوا يحبونها، ففي مصر كانت الهة الفراعنة تملأ الأرض، والشمس عندهم الأب الذي لقح الأرض بأشعة الحرارة والضوء فأخرجت في بطنها هذا الخير الكثير [1]. وكذلك أقدم آلهة بابل أنو السماء الثابتة، الشمس والقمر.

4. أن عناصر الكون في القرآن الكريم ليست أزلية، بل هي مخلوقة من العدم، وعبر عن هذا الحدوث بألفاظ كثيرة نذكر منها:

أ. الخلق: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**) [2].

ب. فطر: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) [3].

ج. الإنبات: (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**) [4].

د. أنشأ: (**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**) [5].

هـ. بديع: (**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) [6]. إلى غير ذلك من الألفاظ الدالة على أن للكون بداية وأن الله أنشأه من العدم وهو يريده ويقلبه كيف يشاء، ومن نظر بين العقل لادرك حدوث الكون كما أثبت العلم الحديث أنه كان يوما لم يكن له وجود ثم وجد، وقد استدل إبراهيم υ على مخلوقية الكون بالبحث والاستدلال ليصل من خلال النظر إلى عناصره والتغييرات الحادثة فيه إلى الموجد الأول للكون.

**يقول القرآن الكريم:**

**(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ ∃ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ∃ فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ∃ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا**

---

[1] - الله ذاتا وموضوعا، ص: 78-79.
[2] - سورة الأنعام الآية: 1.
[3] - سورة فاطر الآية: 1.
[4] - سورة نوح الآية: 17.
[5] - سورة يس الآية: 79.
[6] - سورة البقرة الآية: 117.

**تُشْرِكُونَ ∃ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ∃ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ∃ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)** [1].

وقد نقل القرآن لنا هذه المناظرة لا لمجرد السرد القصصي بل لإشعار الإنسان وإفهامه بطريقة تدليلية على حدوث الكون وعدم أزليتها، وأن الأقول أدل دليل على حدوث الكون لمن يعتبر [2]. أما في منظور الحضارات القديمة فإن عناصر الكون أزلية وأنها هي آلهة ونشأت عن طريق التولد الذاتي.

5. أن الكون وما فيه من الأجرام والحياة في نظر القرآن ليس لبديل أنه فإن، وينتظر نهايته، يقول تعالى: **(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ )** [3]، فالفناء والهلاك يشمل الكائنات كما نراها في حياة وفناء مستمرين، وليست الشمس والقمر والكواكب والجبال والبحار والنباتات بمعزل عن هذه المخلوقات بل أنها ليصيبها ما يصيب الكائنات من الفناء والهلاك والتبديل، يقول تعالى: **(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ∃ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ∃ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ∃ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ∃ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ∃ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ .....)** [4]، وكذلك آيات أخرى تدل على فناء الكون في يومه الموعود[5].

أما في الحضارات القديمة فإن الكون وعناصره من نجوم وكواكب أبدية غير قابلة للفناء، وإن البابليين والمصريين واليونانيين يؤمنون بأن الشمس والكواكب الهة سرمدية لا تقبل الفناء.

---

[1] - سورة الأنعام الآية: 75-81.
[2] - الطبيعة في القرآن الكريم، ص: 59.
[3] - سورة القصص الآية: 88.
[4] - سورة التكوير الآية: 1-6.
[5] - كما في سورة الانفطار والزلزال والقارعة والواقعة والقيامة.

6. إن أجزاء الكون العلوي والسفلي في تناسب وتناسق تأمين وليس بينهما صراع أو شر وفساد، وكل ما في الأرض عامل خير لمصلحة الإنسان فلا تحكم الأرض قوى الشر والشياطين كما يعتقده الفرس والمصريون القدماء وغيرهما، فالحوادث على الأرض واختلاف الليل والنهار وإنزال المطر والبرد ذات علاقة فيما بينها ومتممة لديمومة الحياة، يقول تعالى: (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**) [1]، وهذه التغيرات المتكررة والعلاقة بين الأرض والسماء تجعل الأرض صالحة للحياة بصورة مستمرة، ومرد هذه التغيرات إلى الله لا إلى الحركة الكواكب أو النجوم، أما في الحضارات القديمة فإن عناصر الكون في صراع دائم بين قوى الخير والشر، اله الخير والشر، كما بين الاله موريس وسيت في الحضارة المصرية ويزدان وأهرمن في الحضارة الفارسية والاله الحافظ والاله المدمر عند الهند، وهذا ما حدث عندهم - الهند - فقد انقسمت الحياة إلى قسمين قسم يقدس الحياة والهها (قشنو) وقسم آخر يقدس اله الفناء (شيفا) [2]، وإن التغييرات والحوادث التي تحدث في الأرض مرده إلى الكواكب.

7. أن البشر كلهم على اختلاف شعوبهم وألوانهم وطبقاتهم عباد الله، فليس أحد منهم باله سواء أكان فردا أم جماعة، وكل تقديس أو استعلاء لفرد أو طبقة أو هيئة أو أسرة يناقض هذا الأساس يعتبر ضربا من الشرك والتالية لغير الله[3].

أما في الحضارات القديمة أن الملوك والكهان هم نواب الهة السماء ينفذون حكمه بين الناس في الأرض.

8. أن الاله في القرآن اله واحد وكل ما سواه مخلوق له وخاضع لقدرته يتصرف فيه كيف يشاء وأنه إله العالمين كما صرح بذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) [4]، ويتصف بجميع صفات الكمال، ويتنزه عن كل

---

[1] - سورة البقرة الآية: 22.
[2] - الله ذاتا وموضوعا، ص: 84.
[3] - نظام الحكم في الإسلام، تأليف د. محمد عبد الله العربي، ص: 8، دار الفكر، بيروت.
[4] - سورة الفاتحة الآية: 1.

نقائض، وهو عالم بالغيب والشهادة، يقول تعالى: (**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ**) [1]، ويقول: (**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**) [2].

أما في الحضارات القديمة فلكل مدينة أو قبيلة اله خاص يحميه، كما أن فلاسفة اليونان تصوروا الاله مادة هيولانية خلقت الحياة وليس للاله المعطل إلا التنظيم، أي عندهم المادة والاله المعطل.

9. أن الاله في العهد القديم يتخذ من عناصر الكون مكانا لسكناه، فهو يسكن الجبال والكهوف والضباب والسحاب والهواء وغير ذلك من عناصر الطبيعة، تقول التوراة: (جبل الله جبل باشان جبل اسمه جبل باشان لماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدن الجبل الذي أشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد مركبات الله، زيوات ألوف مكررة الرب فيها) [3].

وتقول: (قال سليمان: قال الرب أنه يسكن في الضباب وأنا بنيت لك بين سكني مكانا لسكناك إلى الأبد) [4]، هذا مثال واضح في تحريف التوراة على أيدي الكهنة وفي الافتراء على الأنبياء وحاشاه أن يصدر منه مثل هذا الكلام.

أما في القرآن الكريم فالله تعالى لم يتلبس بعناصر الطبيعة، وأنه غير محتاج إلى سكن يستقر فيه، وكل ما في الكون من عناصره سماوية وأرضية مسخر للإنسان وتعد الرياح والسحاب رحمة للإنسان بتسخيرها له وتصريفها من أجل منفعته، وكذلك الجبل خلق من أجل استقرار الأرض وتكوين السحاب فوقها، وليكون منابع الأنهار [5] كما بينا سابقا.

وكذلك انه تعالى مستغن عن الحوادث فهو يقول: (**اللَّهُ الصَّمَدُ**) ، فالصمد معناه استغناؤه عن جميع الحوادث، وكلها محتاجة إليه تعالى، وكذلك أنه غير مماثل

---

[1] - سورة يونس الآية: 61.
[2] - سورة الأعراف الآية: 54.
[3] - المزامير: 68 - 15 - 16 - 17 .
[4] - أخبار الأيام الثاني: 6، 1-2، وكذلك سفر أيوب 22: 12-13.
[5] - وقد سجل غوستاف لوبون هذه الملابسة في كتابه (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى)، ص: 86.

للحوادث، فهو يقول: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) [1]، وتدل هذه الآية على عدم مماثلته لغيره، ، (**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**) وهو متصف بصفات الكمال منزه عن النقص، فلو احتاج إلى مكان لكان ناقصا وحادثا، والله تعالى واجب الوجود ومرجع لكل الحوادث وهو الأول والأخر، وجامع الكمالات، أما ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: (**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) ، فمعناه على رأي السلف الصالح استواء لا نعلم كيفيته، وبشكل يليق بكماله، وعلى رأي المؤولة أنه تعالى استوى بقدرته على العرش وجرى حكمه في ملكوته ومخلوقاته، ولكن الذين قالوا أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كما ينزل الإنسان على المنبر، خرجوا عن التأويل وشبهوا الله بالمخوقات كما ذهب إلى ذلك المجسمة وهذا لا يليق بكمال الله تعالى، ويخالف قوله تعالى: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**).

10. إن خلق عناصر الكون السماوية والأرضية في العهد القديم أتعب الاله، حتى استراح في اليوم السابع، تقول التوراة: (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله في اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله عمل الله خالقا) [2].

غير أن القرآن الكريم ينكر هذا المفهوم أشد الإنكار، فالسموات بما فيها والأرض وما عليها ليست شيئا إزاء عظمة الخالق وقدرته التي لا تفنى عند حد معين، ولا يفنى دونها شيء في التصور القرآني، ولذلك فإن إيجادها وتكوينها لا يمكن أن يمس الخالق القدير بما يمس به المخلوق الضعيف من اجهاد وتعب عند أداء عمل شاق أو صعب، فالقرآن يصغر الطبيعة مهما عظمت في الحس، ويجعلها شيئا صغيرا هينا إزاء عظمة الخالق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء [3] يقول تعالى: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ) [4]،

---

[1] - سورة الشورى الآية: 11.
[2] - التكوين، الإصحاح الثاني: 1-3.
[3] - الطبيعة في القرآن الكريم، ص: 163.
[4] - سورة ق الآية: 38.

ويقول: (**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [1].

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم جاء مصححا للآراء الخاطئة ومرشدا نحو حقيقة الكون ومبطلا جميع معتقدات الوثنية والتلابسات بين الطبيعة و الخلق، وتتفق آيات القرآن مع الحقائق العلمية الصحيحة حول الكون.

---

[1] - سورة الأحقاف الآية: 33.

////////////////
////////////////

# الـبـاب الـثـانـي

# الـكون فـي مـنظور الـحضارة الـحديـثـة

**ويشتمل على ستة فصول:**

**الفصل الأول:** الكون والمصادفة.

**الفصل الثاني:** نظرة الماديين إلى الكون.

**الفصل الثالث:** نظرة المثاليين إلى الكون.

**الفصل الرابع:** خالق الكون في الحضارة الحديثة.

**الفصل الخامس:** الحضارة الناشئة من النظرة المادية.

**الفصل السادس:** المقارنة بين حضارة القرآن والحضارة الحديثة.

////////////////
////////////////

# الفصل الأول
# الكون والمصادفة

# الـكـون و الـمـصـادفـة

إن كل ما في الكون ابتداء من بناء الذرة حتى أعقد أشكال الحياة يشير إلى التصميم والقصد في بناء الكون والحياة، ولكن هناك شبهة تدور في ذهن البعض وهي رد كل شيء إلى (الصدفة)، غير أن هناك فرق بين شيئين الأول هو خلق الشيء، والثاني ترتيب الشيء أو تركيبه، ولا يمكن أن تدخل فكرة المصادفة في المبحث الأول، لأن الوجود لا تحكمه قانون المصادفة بحال من الأحوال، أما تركيب الأشياء فقد يبقى موضوع بحث، كما أن حركة الشيء لا يمكن أن يرد إلى المصادفة، وهكذا نجد أن قانون المصادفة يبقى مشوها مبتورا من الأساس، ولو تجاوزنا عالم المادة وتناولنا فكرة الحياة وحدوثه لوجدنا أن قانون المصادفة يبقى عاجزا عن إعطاء أي تفسير عنها ذلك لأن ترتيب المواد بكيفية ما قد يوضع في مدار البحث، ولكن انبثاق الحياة من الموات أمر يبقى العلم عاجزا عن تفسيره وشرح حقيقته وكيفيته [1].

ويتناول هذا الفصل مناقشة هذه النظرية ونظريات أخرى مشابهة في مباحث:

---

[1] - ينظر: الطب محراب الإيمان، خالص جلبي كنجو، أبحاث في العلم والإيمان، طبع سنة (1397هـ) (1977م)، مؤسسة الرسالة: 14/13/1.

# المبحث الأول

# قانون المصادفة والكون

الصدفة لغة من صدف بمعنى عدل أي أعرض [1] وصِدْفَة هي المصادفة والاتفاق وجمعه صُدف[2] وصادفة مصادفة أي وجده ولقيه على غير قصد، وتقول العامة صدفة إذا لقيه اتفاقا[3] واصطلاحا:

عرفه محمود أبو الفيض المتوفى صاحب كتاب (الوجود) وقال: (الصدفة لفظ فارغ يدل على الجهل أو التجاهل لما وراء الصدفة أو الحوادث الوجودية من علل وأسباب وما يترتب على تلك العلل والأسباب والنظم من نتائج وغايات) [4].

أو هي (ترتيب الحوادث والوجود اتفاقا من غير قصد، دون تدخل إرادة خارجية في إيجاده). ويمكن أن تقع المصادفة بين شيئين إذا كانت عدد الأشياء المتزاحمة قليلة، ويقل حظ المصادفة كلما كثر عددها، ويقول قانون المصادفة: (أن حظ المصادفة من الاعتبار يزاد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة) [5].

فإذا كان التزاحم بين شيئين متكافئين يكون خط المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين)، وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد عشرة)، لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة أخرى[6].

---

(1) - لسان العرب، المجلد التاسع، ص: 187، مادة (صدف).

(2) - القاموس الجديد للطلاب، تأليف علي بن هادية، الطبعة الرابعة، 1983، الشركة التونسية للتوزيع، ص: 554، مادة (صدف).

(3) - محيط المحيط، تأليف بطرس البستاني: طبع سنة ( 1977، مكتبة لبنان، ص: 502، مادة (صدف)، وفاكهة البستان، تأليف الشيخ عبد الله البستاني اللبناني، طبع سنة ( 1930) المطبعة الامريكانية، بيروت، ص: 780.

(4) - كتاب الوجود مباحث في (الله - والطبيعة والإنسان)، ص: 52.

(5) - قصة الإيمان، ص: 293.

(6) - المصدر نفسه.

ولو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون، وافترضنا أيضا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها، فلا نجد أساسا لنقيم عليه هذه الافتراضات، ففي تلك الحالة لن نظفر بتفسير الكون، لأن صدفة أخرى تحول دون طريقنا، وكذلك الرياضيات التي تعطينا افتراض الصدفة هي التي تنفي أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون الصدفة[1].

وقد وقع كثير من العلماء الماديين في تناقض في حديثهم عن نشأة الكون عن طريق المصادفة، وهذا (جارلس دارون) [2] صاحب نظرية التطور، يفسر حدوث الكون والحياة نتيجة الصدفة، ويقع في بتناقض منطقي عجيب إذ يقول: (نستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان ولكننا لا نستطيع الإدعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صدفة المحار من صنع كائن عاقل) [3].

ولا يمكن أن يرد إدعاء دارون بعبارة أبلغ وأوجز من عبارة هو، فعندما يذكر أن مفصل أي باب بسيط معمول من قبل الإنسان ولكن المفصل الحي الذي يصفه بأنه (مدهش) ليس إلا نتيجة للصدفة، يقع في تناقض صارخ يندر أن يشاهد في دنيا العلم. والسبب الذي دفع دارون إلى شرح كل شيء وتفسيره بالصدفة، بهذه الدرجة من البساطة فضلا عن ضعف منطقة ضحالة عمله بالرياضيات إذ يقول: (إن قابليتي محدودة في مجال الفكر المجرد والتأمل الطويل لذا لم أوفق أبدا في الرياضيات وفي العلوم الميتافيزيقية) [4].

ولكي يتضح أن الكون ليس محلا للصدف نأخذ مسألة ترتيب الأعداد من (واحد إلى عشرة) ونكتب هذه الأرقام على عشرة دراهم ثم نضعها في كيس ونخلطها ثم نسحب درهما واحدا، وإن احتمال ظهور رقم واحد هو بنسبة واحد في عشرة، واحتمال ظهور الرقمين (واحد واثنان) بالترتيب واحد في الماء واحتمال ظهور الأرقام (1، 2، 3، 4) بالترتيب هو احتمال واحد في العشرة آلاف، واحتمال ظهور

---

[1] - الإسلام يتحدى، ص: 73.

[2] - عالم طبيعي، ولد سنة (1809)، وهو من سكان لندن، وتوفي سنة (1882).

[3] - داروين ونظرية التطور، تأليف شمس الدين آق بلوت، ترجمة أورخان محمد علي، مطبعة الزهراء الحديثة، موصول، (1404هـ) (1984م)، ص: 14.

[4] - دارون ونظرية التطور، ص: 15.

الأرقام من واحد إلى عشرة بالترتيب هو احتمال واحد في عشرة بلايين من المحاولات[1].

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير (كريسي موريسون) ثم استطرد قائلاً: (والغرض من هذا المثل البسيط هو أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة، ولا بد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة، بحيث يصبح من المحال حسابيا أن تتوافر كلها بالروابط الواجبة بمجرد المصادفة على أي أرض في أي وقت، لذلك لا بد أن يكون في الطبيعة نوع من التوجيه السديد، وإذا كان هذا صحيحا فلا بد أن يكون هناك هدف) [2].

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوي كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح فرضية الصدفة؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير لإيجاد (الجزئ البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟ وإن إمكان حدوث الجزئ البروتيني (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون حتى يمكن تحريكها وضخها، أما المدة التي يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من $10^{243}$ سنة أي مائتان وثلاثة وأربعون صفرا أمام عشر سنين [3]، ولنتأمل بعدما تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يمكن حدوث (جزئ بروتيني) فيها صدفة، فكيف جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من 200.000 نوع من النباتات وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض، ثم كيف جاء من ضمن هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟ فإن احتمال التغيير من جنس آخر كما حسبها العالم الرياضي (باتو) يستغرق مليونا من الأجيال وقال العالم الأمريكي (مارلين بكريدر):

---

[1] - الإسلام يتحدى، ص: 73، والعلم يدعو للإيمان، ص: 51، والكون والمصادفة فرحان البغدادي،
ص: 27-28، والطب محراب الإيمان، ص: 14.

[2] - العلم يدعو للإيمان، ص: 51.

[3] - الإسلام يتحدى، ص: 74.

(إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء) [1].

[1] - المصدر نفسه، ص: 77.

# المبحث الثاني

# التولد الذاتي[1]

لقد اعتقد بعض العلماء الماديين أن الكون حدث نتيجة (التولد الذاتي) من غير تأثير خارجي من اله، ومن أشهر القائلين بذلك العالم البايولوجي الألماني (هيجل) ويقول: (إن الكون مؤلف من المادة، والمادة مؤلفة من الذرات، ومن هذه المادة ظهر كل ما في الكون من أحياء وغير أحياء، وحركة العالم هي حركة تطور دائم يبتدئ من أبسط الذرات وينتهي إلى أرقى الكائنات، فهذه الكائنات كلها، حيها وجمادها تتألف من عناصر واحدة، لا فرق في ذلك بين حي وغير حي، لأن عناصر المواد العضوية موجودة بذاتها في المواد غير العضوية، وإن بالإمكان تحضير بعض مركبات عضوية بطريقة صناعية) [2].

ويرى هيجل أن أصل الحياة نشأ من توازن نسبي بين مقادير خاصة من العناصر المادية، ولكن هذا التوازن دقيق جدا إلى حد أنه قد يكون نقص جزء واحد، وزيادة جزء واحد من أحد العناصر سببا في نشوء الحياة أو تعطل نشوءها [3]. ولكنه يقف هو وغيره من الماديين عاجزا عن معرفة سر هذه النشأة للحياة الأولى من الجماد، حتى أن (بخنر) [4] الذي هو من أشد المؤيدين لمذهب التطور قد وقف أمام خلق الحياة من الجماد حائرا كذلك إذ قال: (إن البت في أمر التولد الذاتي للكرية الأولى التي ينشأ منها الأصل أمر غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتوليد الكريات الأولى تولد ذاتيا غير معروفة والكرية ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع

---

[1] - هو: أن ينشأ الحياة من خلية واحدة بالإنشطار ويصير خليتين، ثم أربعة وهكذا حتى تكون منه هذا الكون بمادتها وحياتها.

[2] - قصة الإيمان، ص: 188.

[3] - قصة الإيمان، ص: 188.

[4] - طبيب ألماني ومن أكبر دعاة الداروينية، ولد سنة (1824)، وتوفي سنة (1899).

معه صدورها من الجماد مباشرة، بل أن ظهورها من الجماد ليعد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعدا عن العقل من ظهور الأحياء العلياء من الجماد رأسا) [1].

غير أن نظرية التولد الذاتي بنيت على مشاهدة نشوء الديدان على جثث الحيوانات وبعض الثمار وكومة النهاية وكان أصحاب هذه النظرية يفتشون الزبالة ليجدوا دودة مخلوقة فيها، ليبرهنوا على نجاح نظريتهم، (كما كان يعتقد بعض قدامى اليونانيين بأن الجرذان نشأت من أكوام الزبل، أي أنهم كانوا يعتقدون بإمكانية النشوء الذاتي) [2]، وإن فكرة نشوء الديدان من اللحوم عند تركها كانت سائدة في القرون الوسطى، حتى جاء العالم الإيطالي (فرانسيكو ويدي) [3] أوضح خطأ هذه الفكرة وقال: (إن الديدان لا يمكن أن تنتج من اللحوم إذا منعت الأخير من وصول الذباب إليها).

فقد أحضر (ربدى) قطعتين من اللحم ترك أولهما معرضة للهواء الجوي بينما غطى الثانية بقطعة من الشاش وتركها فترة من الزمن كافية لظهور الدود في القطعة الأولى التي تمكن الذباب من أن يضع بيوضة فيها، كي يفقس ويتحول إلى يرقات، بينما ظلت الثانية كما هي لم يصبها التغير [4]، وكذلك ترك اللحم في مكان معرض للهواء بسبب تكاثر الجراثيم عليه، وهو يسبب تعفنه وظهور الديدان عليه، فلو منع اللحم من الجراثيم لبقي طرياً كما يرى في وضع الحية في زجاجة من الكحول.

وقد استر العلماء بأبحاثهم في دحض نظرية النشوء الذاتي فقام العالم (تندل) [5] بتحوير وتطوير أبحاث وتجارب (لويس باستر) ليناقش الانتقادات الموجهة إليه من قبل المؤمنين بفكرة النشوء الذاتي والمدافعين على هذه الفكرة.

وهذا عالم آخر وهو (لويس باستير) يردد ما صرح به الإمام الرازي [6] بعد مرور (700)سنة ويقول: (إن الكائنات لا يمكن أن تتولد إلا من كائنات حية مثلها) [1]

---

(1) - الإنسان والدا رونية، ص: 171، وقصة الإيمان، ص: 189.
(2) - قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، ص: 65.
(3) - 1665م.
(4) - قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، ص: 66.
(5) - أحد العلماء المعترضين على نظرية داروين، وفند أرائهم وأقام الأدلة العلمية.
(6) - المتوفى سنة (606هـ).

وهكذا دحضت فكرة النشوء الذاتي بعد أن سادت وسيطرت على عقول كثير من الناس ردحا من الزمن، وبقي سر الحياة وطريقة نشوئها خفيا غامضا حير الباب العقلاء، وتاهت في ظلمات تكهنات الحكماء، وعرقت في أعماق بحرة نظريات العلماء، ولم يهتدوا إلى الحقيقة، لأن الحياة موكول أمره إلى الله، فلم يبق المجال أمام أصحاب هذا الرأي إلا الإذعان للحقيقة والركون إلى أن لهذا الكون خالقا أوجده من العدم، ويتصرف في ملكه كيف يشاء.

---

(1) - قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، ص: 66.

# المبحث الثالث
# هبوط الحياة على الكواكب الأخرى

لقد سادت نظرية أخرى ترى أن الحياة هبطت على كوكب الأرض من السماء محمولة على ظهر النيازك والشهب فوجدت لها مرتعا خصبا على كوكب الأرض فنمت وتكاثرت دون مزاحم ولا منافس، غير أن هذه النظرية تواجه صعوبات وانتقادات علمية حتى حكم عليه بالفشل للاعتبارات التالية:

1. أن أي جسم كوني يدخل الغلاف الغازي المحيط بالأرض يسخن لدرجة حرارية عالية كفيلة بالقضاء على أية حياة فيه إن وجدت، وقد يحترق فيه.
2. إن الإشعاعات الكونية المميتة الموجودة في الطبقات العليا كفيلة هي الأخرى بقتل أي بذرة للحياة تمر من خلالها.
3. إن المسافات بين الكواكب شاسعة جدا، وليس من المحتمل أن تعبر بذور الحياة هذه الأمد الطويل تحت ظروف قاسية كالتي توجد في الفضاء الكوني قبل أن تصل إلى الأرض[1].

يقول (أ. كريسي موريسون) [2]: إن افتراض نشأة الحياة على الأرض نتيجة جرثومة هبطت إليها من بعض الكواكب في ذلك الماضي السحيق غير مسلم، لأنه كان من العسير على تلك الجرثومة أن تبقى حية في درجة حرارة الصفر المطلق في الفضاء، وإذا استطاعت البقاء رغم ذلك فإن الإشعاع الكثيف للموجة القصيرة كان كفيلا بقتلها، هذا فضلا عن أنه من المتفق عليه عموما أنه لا البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيميوية قد تلحقه المصادفة،

---

[1] - قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، ص: 68، نقلا عن قصة الحياة ونشأتها على الأرض، للدكتور أنور عبد العليم.

[2] - العالم الأمريكي الشهير والرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، صاحب كتاب (العلم يدعو للإيمان).

يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود ... ويسأل ويقول: فإن بإمكاننا أن نسأل كيف بدأت الحياة على أي كوكب من الكواكب، إذ أن مسألة أصل الحياة لغز من الألغاز العلمية ولكن في الاستطاعة أن نشير إلى شيء حدث عند بدء الحياة على الأرض، ذلك أن خلية واحدة قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس في حل مركب كيموي واصطناع غذاء لها ولأخواتها من الخلايا، ولا بد أن لدات أخريات لخلية أصلية أخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الخلية، وأصبحت حيوانا، في حين صارت الخلية الأولى نباتا، والنبات التي هي نسل هذه الخلية هي التي تغذى جميع الكائنات الحية الآن، فهل يمكن أن نعتقد أن كون خلية قد أصبحت حيوانا وأخرى قد أصبحت نباتا إنما حدث بطريق المصادفة؟، غير أن التوازن العجيب بين الزرع وحياة الحيوان من تغذى النباتات على غاز ثاني أوكسيد الكربون، وتنفس الحيوانات على غاز الأوكسجين استقر بهذا التقسيم، ويمضي الأستاذ موريس في سوق الأدلة المبطلة لهذا الافتراض السالف حتى ينتهي إلى القول بأنه هو نفسه لا يعرف كيف جاءت الحياة إل هذه الأرض ولكنه يؤمن بأنها جاءت تعبيرا عن القوة الالهية، وبأنها ليست مادية[1].

ويقول الدكتور (توماس دافيزباركس) [2] في مقال له تحت (الماء يروي لك قصة): (أنني أقرأ النظام والتصميم في كل ما يحيط بي من العالم غير العضوي، ولا أستطيع أن أسلم بأن يكون كذلك ذلك قد تم بمحض المصادفة العمياء التي جعلت ذرات هذا الكون تتألف بهذه الصورة العجيبة، وأن هذا التصميم يحتاج إلى مبدع ونحن نطلق على هذا المبدع اسم (الله) ) [3].

وهكذا يتبن لنا بالأدلة العلمية والرياضية وبالتجارب أنه ليس للصدفة مكان أو وجود في تفسير الحياة أو الطبيعة أو الكون بجانب الطفرات العشوائية التي تعني خلو الحياة من القصد أو التدبير على حد زعم بعض الملحدين، وإنما هناك عقل وتدبير محكم في نظام الكون، وكذلك اتضح لنا أنه ليس للمذهب الآلي أو التولد الذاتي أو

---

(1) - ينظر: العلم يدعو للإيمان، ص: 96-104.

(2) - أستاذ الكيميا ء ورئيس قسم الكيمياء بمعهد بحوث ستانفورد سابقا وأخصائي في النظريات الكهربية والأشعة السينية.

(3) - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 45-45.

نزول الحياة على كوكب أخر أي أثر في الكون، وإنما كل شيء منظم بنظام محكم وبقدر معين مبعث للتفكير[1].

---

(1) - الإنسان والداروينية، ص: 164.

# الفصل الثاني

# نظرة الماديين إلى الكون

# نظرة الماديين إلى الكون

يبدو أن فكرة المادية لازمت الإنسان منذ القدم، ومن الصعب تحديد بداية وجود هذه الفكرة بزمان أو مكان معينين.

والقرآن الكريم يطلق القول في سرد أقوال الماديين دون الإشارة إلى ذلك الزمان أو المكان فيقول تعالى في محكم كتابه الكريم: (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**) [1].

فالماديون حددوا الموجودات بما يمكن مشاهدته والإحساس به، إلا أن المصادر المتوفرة لدينا تشير إلى أن فكرة المادية ظهرت على شكل أسس علمية عند فلاسفة اليونان أمثال (طاليس) [2]، و(أناكسيمان) [3] وغيرهما من الفلاسفة فوضعوا أسسا عقلية لتفسير الكون، ليصلوا من خلالها إلى المادة الأساسية للوجود، ودرسوا العناصر المكونة والمشتركة بين أجزائه، فانتهى بهم الدراسة على اختيار عناصر أربعة: (الماء، الهواء، النار، التراب) وجعلوها أصلا للوجود كل حسب فكرته وطريقة بحث، فحاول هؤلاء الفلاسفة منذ القدم أن يردوا الوجود إلى هذه العناصر المذكورة، غير أنهم وقفوا مكتوفي الأيدي حيال إثبات وإيضاح علاقة هذه العناصر بالفكر والإنسان، حتى جاء (هيرقليط) [4] فوضع المادة أساسا للصراع القائم بين هذه الأضداد ليأمن ضمان ديمومته وينسجم مع اتجاه عصره ويقول: (إنك لا تمس جوهرا في حالة مرتين) [5].

وإن المادة عنده في حركة دائمة، كما سار على هذا النهج فلاسفة كثيرون كديمقريطس إذ يقول بالذرة ويعتبرها عماد الوجود، فيها الحركة مستمرة يغذيها دفع

---

(1) - سورة الجاثية الآية: 24.
(2) - مؤسس المدرسة الأيونية فينيقي الأصل المتوفي سنة (550 ق.م).
(3) - ولد في ملطية، (588 ق.م) وتوفي (524 ق.م) تقريبا.
(4) - ولد في أنس (475-355 ق.م).
(5) - ماركس والخلق دراسة تحليلية للفكر الماركسي، تأليف طلال جرجيس، دار الصراع الفكري في بيروت، لبنان، 1957، ص: 76.

وجذب دائمين وسببها يكون التطور والخلق وباختلاف أشكالها تختلف طبائعها وتبدل لونها[1].

وقد تلقى ماركس هذه الفكرة هو قليط وسار بالمادية من المبدأ القائل: (إن العالم بطبيعته مادي وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة وإن العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضا بصورة متبادلة كما تقررها الطريقة الديالكتيكية [2] هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وإن العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة إلى عقل كلي) [3].

ويقول انجلس[4]: (إن الطبيعة بأجمعها من اضأل الأجزاء إلى أكبر الأجسام من حبة الرمل إلى الشمس ومن البروتست - وهي الخلية الحية الابتدائية = إلى الإنسان هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال في مد لا ينقطع، وفي حركة وتغيير مستمرين أبديين) [5]. فإنهما اكتفيا بهذه الظواهر الطبيعية، إلا أنهما نسيا أن محرك المادة هو الله تعالى.

ويقرر كارل ماركس أنه لم تكن أبدا حالة كانت فيها المادة بلا حركة، بل إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ليست في واقعها العلمي إلا ثمرة الحركة، والحركة هي نمط وجود المادة، في أي زمان أو مكان[6].

وقد امتد جذور المادية من العصور القديمة حتى وصل إلى عصرنا الحاضر والتف حولها أناس كثيرون من المتعلمين وبدوا يروجونها ويقدمون فكرتها في كل عصر بثوب جديد وبأسلوب يختلف عن أساليب السابقين، حتى أصبحت المادة أول الموجودات وأقدمها وكل الموجودات التي ظهرت فيما بعد نتيجة وثمرة للمادة، كالروح والفكر والإحساس ونحو ذلك.

---

[1] - المصدر نفسه.

[2] - إن كلمة الديالكتيك، أخذت من الكلمة اليونانية (دياليغو) ومعناها المحادثة والمجادلة، وكان الديالكيتك يعني في عهد الأولين فن الوصول إلى الحقيقة باكتشاف التناقضات التي يتضمنها استدلال الخصم وبالتغلب عليها.

[3] - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين ترجمة خالد بكداش، الطبعة الثانية، 1959، منشورات دار البديع.

[4] - نقض الأوهام، 17.

[5] - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص: 14، نقلا عن الديالكتيك الطبيعة، ص: 491.

[6] - ينظر: نقض أوهام المادية الجدلية، ص: 39.

## أزلية المادة:

إن الماديين يعدون المادة قديمة أزلية[1] وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور، فالجديد من المادة إنما هو أشكالها وأطوارها وظواهرها، أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها، وكذلك تكون أبدية الذات أيضا، وستظل تستبدل ظاهرة بأخرى وطورا بغيره، ولكن جوهر المادة باق يتحدى الزوال، وما الزمان والمكان إلا شكلان أساسيان لكل الوجود. وإن الأجرام السماوية ليست في حقيقتها إلا من جوهر هذه المادة التي نعرفها[2]. ويرون أن العالم واحد هو هذا العالم المادي الخاضع لإحساس الإنسان وشعوره، فليس وراءه أو قبله أو بعده عالم أخر مما يسمى عالم الغيب، أو ما وراءه المادة.

ويعدون أن المادة هي الشيء الأول، والإحساس والفكر والشعور هي الأشياء النابعة من المادة أي أنها أسبق من وجوده ووعيه وإدراكه، يقول ليني: (إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية ...، الخ ويعني بالمادة المنظمة تنظيما معينا ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، فالمادة هي الشيء الأولي والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين) [3].

ولهذا يرون أن المادة هي الخالقة لكل شيء، أزلية أبدية وإن فنيت منها مواد بأعيانها فهذه المواد الفانية باقية بأجناسها أو أصنافها، ولهذا يرون أن المادة موجودة أزلا وأبداً[4]. غير أن الماديين أنفسهم يعترفون في العصر الحاضر بأن المادة حادثة كما أثبتته العلوم، غير أنهم يقولون أنها حدثت صدفة، وليس لها دون الصدفة خالق، بل هي تتجدد وتبقى إلى الأبد كما أسلفنا، ولكن نسأله عن الصدفة هل هي الخالقة؟ فإن أجاب بالإيجاب فعليه تعيين ذات الصدفة وصفاتها بعد أن جعلها هي الخالقة وإن أجاب بالنفي لم يبق مغزى لأصل كلامه (وجدت بالصدفة)، وإن قصد بأن المادة وجدت

---

[1] - موقف الدين من العلم، علي فؤاد باشكيل، ترجمة أورخان محمد علي، الطبعة الثالثة، مطبعة الخلود، 1988، ص: 54.

[2] - ينظر: نقض أوهام، ص: 40.

[3] - المادية والمذهب التجريبي النقدي، لينين، ترجمة فؤاد أيوب، ص: 43.

[4] - ينظر: مجمع الأشتات، ص: 107.

بذاتها صدفة وجودا ذاتيا فقد ناقض اعتراف نفسه بحدوث المادة بادئا، فإن الحدوث والوجود الذاتي متضادان[1].

## وجهة الماديين الديالكتيكية

**المادية الديالكتيكية تقول:**

أ. إن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق، ويزعم ماركس أن كل ما في الكون مادة متطورة، وليس الله وللعقل والروح وجود مستقل في هذا العالم [2]. ذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية ويعتبرونها أول الموجودات وأقدمها.

ب. ملازمة المادة للحركة،أن أن كل الأشياء التي تبدو أمام أبصارنا ساكنة خامدة لها في أعماقها حركة لا تهدأ، وليست ظاهرات المادة إلا أثرا متطورا من آثار حركتها.

ج. سرمدية العالم ووحدته، ويعتبرون أن المكن لا نهاية له، وكذلك الزمان لا بداية ولا نهاية له أيضا، وحكموا على العالم المادي المنبسط في جميع الجهات بلا نهاية وممتد خلال سائر الأزمان بلا أول ولا آخر.

د. الوعي والفكر وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ، وعدوا أن الوعي هو الأفكار والإحساسات والتصورات والإرادة، وهي جميعها من أعراض الإنسان، فإذا لم يوجد الإنسان فلا وعي، وهذا يعني أنه لا يوجد وعي بدون مادة.

هـ. تفاعل السبب والمسبب، أي بينهما تفاعل مستمر [3] ويتم هذا التفاعل تحت سلطان قوانين الطبيعة ومقتضياتهما الكامنة فيها.

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 111.

(2) - الشيوعية تناقض الدين، تأليف محمد الموسوي النورى، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان، نجف، 1379هـ، ص: 61.

(3) - ينظر: نقض أوهام، ص: 38-42.

**ونناقش فيما يأتي من الكلام هذه الأقوال ونقول:**

إن اعتبار المادة أساس الأشياء وأنها موجودة منذ الأزل أمر باطل، لأننا ندرك بإحساسنا أن الأشياء المدركة محتاجة إلى غيرها، وأنها لا تستطيع التصرف والانتقال من حال إلى أخرى إلا بغيرها، فالنار تحرق إذا كانت المادة فيها قابلية الاحتراق، وإذا لم تكن فيها قابلية الاحتراق لا تحرقها، فالمادة لا تستطيع أن تتصرف أو تنتقل من حالة إلى أخرى إلا ضمن وضع قاصر على حالات معينة، فهي إذن محتاجة. وكذلك الأشياء التي في الكون لا يحصل من اجتماعها شيء يحصل فيه الاستغناء، ولا يوجد شيء يتكون من مجموع ما في الكون حتى يوصف بأنه مستغن أو محتاج، ولو وصف بذلك لكان ذلك وصفا لشيء متخيل الوجود لا لشيء موجود، والبرهان يقوم على حاجة شيء معين موجود لا مجموعة أشياء يتخيل لها الاجتماع[1].

وكذلك أجزاء الكون لم تكن موجودة من قبل فوجد، فهذا الإيجاد ينفي استغناء الكون عن الخالق والتناسق والخضوع برهان طاعته له.

أما بالنسبة للكون والإنسان والحياة في المادية الديالكتيكية التي تنص على تطورها ماديا دون وجود خالق ولا مخلوق فنجد أن الكون عبارة عن مجموعة أجرام وكل جرم منها يسير بنظام مخصوص لا يملك أن يغير مساره المرسوم له، وهذا النظام إما أن يكون جزاء منه، أو خاصة من خواصه، أو شيئا آخر غيره.

أما كونه جزاء منه فباطل، لأن سير الكواكب يكون في مدار معين لا يتعداه، كالطريق هو غير السائر، والنظام الذي يسير به ليس مجرد سيره فقط بل تقييده بالسير في هذا المدار، ولذلك لا يمكن أن يكون النظام جزاء منه.

أما كونه خاصية من خواصه فباطل، لأن النظام ليس هو سير الكوكب فحسب بل سيره في وضع معين، وإلا لكان من خواصه أن ينظم سير نفسه، وحينئذ يستطيع أن ينظم نظاما أخر ما دام من خواصه التنظيم، ولا يقال أن كون الكوكب مسير في مدار معين هو خاصية ناتجة عن اجتماع الكواكب مع بعضها في جسم واحد هو جزء

---

[1] - ينظر: نفض الاشتراكية، تأليف غانم عبده، طبع سنة (1963)، ص: 10-11.

لا يتجزأ من هذا الجسم فينتج عن اجتماعها خاصية كون السير في مدار معين، كالايدروجين وحده له خاصية والأوكسجين وحده له خاصية فإذا اجتمعا معاً صارت لهما خاصية أخرى بخلاف الكواكب، لأن الأوكسجين والايدروجين حين اجتمعا كونا جسما أخر فصارت له خاصية أخرى، فهي خاصية جسم لا خاصية جسميها السابقين في الكون، أما الكواكب أو الكوكبين لم تكن لكل منهما خاصية تختلف عن الأخرى، ثم صارت له خاصية أخرى بالاجتماع في جسم واحد، بل ظلت منفردة بهذه الخاصية[1].

أما الحياة فإن احتياجها إلى الماء والهواء ومحدوديتها ملموسة ومحسوسة وإن مظهرها فردى، فلا فرق بين الحياة في الإنسان والحيوان وهي تنتهي فيه، فما دامت تنتهي هذه الحياة في الفرد فمعناه أن جنس الحياة تنتهي.

وكذلك الإنسان محتاج إلى الطعام والمكان وغير ذلك فهو محدود أيضا، وعليه فإن الكون والحياة والإنسان كلها محتاجة قطعا، ومدلول كلمة (محتاج) يعني أنه مخلوق وعاجز عن إيجاد شيء ما من العدم[2] مما يفند مزاعم الماديين الذين يذهبون إلى عدم مخلوقية المادة، كما يقول بعض كتاب السوفيت في كتاب المادية الديالكتيكة: (وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ويدل على أزلية المادة وحركتها) [3].

وكما ذهب الكاتبان السوفيتيان (سيبركين وباخوت) [4] إلى القول بأن المادة وجدت دائما ومنذ الأزل، ثم يستشهد أن بقول العالم الروسي م. ف تومونوسوف على ذلك أن يقول: (في الطبيعة لا ينشأ شيء من لا شيء ولا يختفي أبدا بلا أثر، ولكن إذا كان الأمر كذلك فإن المادة وجدت دائما، لأننا إذا سلمنا بأنه في وقت من الأوقات لم يكن هناك شيء من العالم فمن أين لها أن تنشأ، ولكن أينما توجد المادة فهذا يعني أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات بل وجدت دائما وستوجد دائما[5].

---

(1) - نقض الاشتراكية، ص: 13-14.

(2) - نقض الاشتراكية، ص: 15.

(3) - المادية الديالكتيكية، ص: 8.

(4) - كاتبان من الماديين السوفييت.

(5) - أسس المادية، ص: 30.

فلو تأملنا في النصين والنصوص الأخرى المشابهة لهما لوجدنا أنهما لا يستندان إلى دليل أو برهان، ويتشكك الكاتب في أزلية المادة كما يسأل نفسه، إذا لم أقل بأزلية المادة، فعلى أن أتحرى لأعرف كيف ومن أين نشأت؟

ويلجأ هذا الافتراض في: أن المادة الأولى غير معلولة الوجود من أجل أن يحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات، ولكنهم نسوا أن الكلام على أنه في مبدأ الكون (كانت المادة، ولا شيء غير المادة، وأن المادة سابقة في الظهور إطلاقا) هو اللجوء إلى عالم الغيبيات التي نشأ في الكون دون أن يعرف كيفية إيجاده، ويقول الدكتور فرانك الن أستاذ الطبيعة الجوية بكندا بهذا الصدد: (أن الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية، وإذاً فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى اله حي يخلق) [1].

وقد عضد (دالتون لاوازية) العالم الكيميائي المعروف فكرة أزلية المادة وأبديته [2] بأن المادة لا تنفى ولا تستحدث من العدم، فترة من الزمن، ثم اعترف بوجود الخالق وقال: (إن المادة لا تخلق من تلقاء نفسها) [3]، وكما نقل السيد رمضان هدارة فكرة (عدم فناء الطاقة)، من أنه لا يمكن خلق الطاقة من العدم، وأصبح هذه المبدأ من أهم المبادئ التي يسير عليها الكون، وذكر أن الفيزيائيين يرفضون الآن أي تفسير لظاهرة من الظواهر يبدو مخالفا لهذا المبدأ[4].

غير أن فكرة أزلية المادة وأبديتها قد فندت بعد اكتشاف الالكترونات وحقائق الذرة وأضداد المادة [5]، لأن المادة لا تقتصر على الأشكال والأنواع التي نراها حوالينا، بل يوجد شكل أخر له خواص معاكسة تماما لخواص أشكال المادة التي

---

[1] - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 8.
[2] - الكون الغامض، سير جيمس جينز، ترجمة عبد الحميد حمدي مرسي، ط 2، القاهرة، ص: 156.
[3] - التكامل في الإسلام، أحمد أمين، الطبعة الثالثة، دار النعمان، للطبع والنشر، ( 1383هـ)، 62/2.
[4] - الكون ذرة وحركة، سيد رمضان هدارة، ص: 21، وينظر: الكون الغامض، ص: 54.
[5] - التكامل في الإسلام، ص: 62.

نعرفها، وتسمى (المادة المضادة أو المادة النقيضة) ومع أن الجسيمات النقيضة لها خصائص مناقضة للجسيمات الاعتيادية لا يمكن تميز أحداها عن الأخرى ذلك لأن الجسيم الاعتيادي والجسيم النقيض لهما نفس الكتلة، ويقومان بنفس الوظائف كلا في عالمه الخاص[1].

فالخواص المتضادة تتجلى في الشحنة الكهربائية وأحيانا في اتجاه الدوران، فمثلا أن نقيض جسيم يحمل شحنة موجبة، هو جسيم يحمل شحنة سالبة، أي لا يوجد فرق في الكتلة بين الجسيم وبين نقيضه، (فالبروتون النقيض) تساوى كتلته تماما كتلة (البروتون) ولكنه يحمل شحنة كهربائية سالبة مثل الإلكترون، وكذلك نقيض الإلكترون ويدعى (البوزترون) فإنه يملك نفس كتلة الإلكترون ولكنه يحمل شحنة موجبة[2].

وإذا قمنا بجمع البوزترون والالكترون معا في مكان واحد نرى أنهما يدوران أحدهما حول الآخر مشكلين ذرة (البوزترونيوم) لمدة قصيرة جدا تقدر بجزء من عشرة ملايين جزء من الثانية، يخرجان بعد ذلك من عالم المادة، أي عندما يتقابل الإلكترون (- E) مع البوزترون (+E) يفنى الاثنان[3]، وهذه القاعدة شاملة وسارية بالنسبة لكافة المواد مع نقائضها، ويدل ذلك بوضوح على فناء المادة ونهاية أجزاء الكون عندما يريد الخالق نهايته، وما دام المادة تؤول إلى الفناء فهي إذن مخلوقة من العدم، فكان الطبيعة حاملة بذرة إفنائها معها منذ أن خلق من العدم، وفي تغير مستمر، ويجمل أن نذكر هنا قانون النسبية وهو: (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء).

الناتج: هو أن المادة والطاقة هما متغيرتان ليستا بازليتين البتة بل هما حادثتان وقابلتان لطريان التغير[4].

---

[1] - أسرار الذرة أميد شمشن، ترجمة أورخان محمد علي، الطبعة الأولى، مطبعة الحوادث، بغداد، (1406هـ)، (1986م)، ص: 41.

[2] - أسرار الذرة، ص: 42.

[3] - المصدر نفسه، ص: 43، وينظر: مجمع الأشتات، ص: 70.

[4] - مجمع الأشتات، ص: 71.

**وأثبتت البحوث النظرية أن كتلة كل جسم متحرك تتغير تبعا لسرعة حركته، لأن كتلة جسم المتحرك يمكن أن تكون مكونة من قسمين:**

1. ثابت يحتفظ به الجسم في حالة سكونه.
2. متغير وهو يتبع سرعة حركة الجسم، وهذا يتناسب مع طاقة حركته، فكتلتا كهربين أو جسمين آخرين تختلفان بمقدار ما يكون بين طاقتيهما من فروق[1].

ويبدو من هذا أن المادة المتغيرة حادثة من العدم المسبوق بعلم الله الذي ألبسها ثوب الوجود، وتعود إلى العدم ثانية وخلق الكون بقصد وإرادة، والحياة تابع له.

يعد الماديون أن الروح والفكر والإحساس ثمرة من ثمار المادة، داخلة في ماهيتها كما أسلفنا في موضوع المستلزمات. غير أن هذا القول لا يستند إلى برهان علمي، إلا أنهم يقولون أن الحياة عن الحرارة، والحرارة تنشأ عن الحركة [2] أي: (الحركة + حرارة = حياة).

من الذي جمع بين هاتين الظاهرتين فاستخرج منهما حقيقة الحياة؟ ولا بد أن نذكر خبر المؤتمر الذي تم عقده بين ستة من أجلة علماء الحياة في نيويورك عام (1959)، آملا في الوصول إلى فهم شيء عن أصل الحياة ونشأتها على ظهر الأرض أو إلى معرفة مدى إمكان إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وكان من بين المؤتمرين العالم الروسي (الكسندر ايفانوفيتش أوبارين) أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفيتية، حيث قرروا في نهاية بحوثهم بالإجماع (أن أمر الحياة لا يزال مجهولا، ولا مطمع في أن يصل إليه العلم يوما ما، وإن هذا السر أبعد من أن يكون مجرد بناء مواد عضوية معينة وظواهر طبيعية كيميائية خاصة) [3].

---

[1] - وينظر: الكون الغامض سير جيمس جيز، ترجمة عبد الحميد حمدي مرسي، الطبعة الثانية، مطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1943، ص: 61.

[2] - المادية والمذهب التجريبي النقدي، ص: 24.

[3] - كبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 104، دار الفكر، 1395، ط 5.

فأين النشاط العلمي والدليل التطبيقي على صدق هذا التصور الذي يقضي بكل بساطة بأن (الحركة + الحرارة = الحياة).

ولا نشك في أن الحرارة والحركة من أبرز خصائص المادة ولكن خواص شيء ما ليست تعبيرا عن الجوهر الذاتي الذي يقوم به، ومن الواضح أن الحياة لا تنشأ إلا حيث يتوافر كل من الحركة والحرارة، وهما من خصائصها الدالة عليها، ولكن جوهر الحياة ذاتها شيء آخر نبهت إلى وجودها كل من هاتين الخصيصتين، فالحرارة والحركة والعناصر الأخرى الأساسية للحياة كالايدروجين والكربون والأوكسجين والازوت والفسفور والكبريت، هذه كلها لا يمكن أن نقول أنها منشئ الحياة، بل الحياة تتخذ من هذه العناصر مظهرا لها كالضياء الساطع على صفحة جدار فلا يمكن أن يكون الضياء هو صفحة الجدار ذاتها ولكنها مظهر له أو شرط لتجلية[1] ولوان المادة هي ينبوع الروح لقضى العقل بحكم البديهة أن يكون الإنسان أسبق إلى فهم الروح وأسرارها منه إلى فهم المادة وذراتها وكهاربها، لأن العقل إذا أدرك أصل الشيء وحقيقته فهو أحرى أن يدرك ثمراته وفروعه بأقل جهد، ولكن أحدا من العقلاء لا يستطيع أن يتصور أن رجلا أتيح له أن يفهم أصل الحياة، فلم يفهم منه ظاهرا ولا باطنا، وبقي سرا غامضا لم يهتد منه إلى شيء.

يقرر الماديون أن الحركة هي وسيلة وجود المادة ولم توجد مادة بلا حركة، وإن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ليست في واقعها العلمي إلا ثمرة الحركة، فالتيار الكهربائي ليس إلا أثرا لحركة الالكترونات[2].

إن الحركة إن كانت وسيلة وجود المادة فمعناه أن الحركة أسبق من المادة في الزمان، لأن ما كان وسيلة لوجود شيء متقدم على ذلك الشيء زمنيا في الوجود، وبذلك تصبح الحركة هي الموجود الأول - حسب فكرتهم - والمادة متأخرة في الوجود والظهور[3]، فيكون ذلك تناقضا مع فكرتهم بأزلية المادة.

---

[1] - ينظر: نقض أوهام، ص: 99.

[2] - ينظر: نقض أوهام، ص: 39، نقلا عن المادية والمذهب التجريبي للبنين، ص: 170.

[3] - المادة بين الأزلية والحدوث، ص: 36.

ومن الملاحظ أن الماديين يهتمون باكتشافهم للحركة على أساس أنها اللبنة الأولى في صرح الصورة التي تبنتها الفلسفة المادية للكون والعالم، ويعتبرونها المنطلق الذي يسير منهجهم الفكري على ضوئه نحو غايته الموسومة.

ولكن المتأمل في المادة نجد أنه ليس كل شيء في المادة يتحرك ثم يتغير، هذا إلى جانب دليل آخر وهو انفصال جواهر الأشياء وماهياتها عن بعضها البعض، فبين الحجر والشجر والإنسان والحديد تغاير باق مستمر على مر الأزمنة والدهور وهذا التغاير ليس إلا أثرا لما هو ساكن في بنية هذه الأشياء وذراتها، وهو الذي أكسب كل شيء جوهره الخاص به، فكان ثابت هذا الجوهر غير منفك لسكون ما هو ثابت لا يتغير في بنية تلك الأشياء[1].

ولو افترضنا أن كل شيء في المادة يتغير لاضطررنا إلى القول بأن الماهيات الكثيرة المختلفة في هذا الكون يجب أن تتماذج وتتحد بحيث تنعدم الحدود الفاصلة بينها، فلا يستبين حجر من شجر أو حديد من عظام ولحم وهكذا، وإلا فكيف يجيبنا دعاة كل شيء يتغير ويتحرك عن: ما الذي يمسك ماهيات الأشياء أن يبقى كل منها ضمن غلافه الخاص به دون تغيرا أو تبديل؟

**وما الذي جعل هذه الأغلفة تتمازج ولا تتبدل[2]؟**

وإذن فإن المادة واقع موضوعي موجود بصورة مستقلة عن ذهن الإنسان، وأنها موجودة في مظهر الأرض والنجوم والكواكب وكثير من المظاهر الأخرى المشاهدة من قبل الإنسان، وأنها تحتوي على الجوهر أو الماهية، من شأنه أن يمسك خواص المادة وظواهرها ضمن حواجز من الأجناس والأنواع، وهذه الحواجز لا تمتد إليها أيدي الجدلية المادية، وستظل قائمة شاخصة تستعصي على أي نقص أو إنكار، وستكون مع الرأي القائل: (بأن في كل شيء من أشياء المادة حركة تبعث على

---

(1) - نقض أوهام، ص: 110.

(2) - المصدر نفسه.

تغيير ظاهراته ولا نقبل قول من يقول بأن المادة كلها في حركة دائبة وتغير مستمر) [1].

واعترف بهذه الحقيقة أحد كتاب بحث (المادية الديالكتيكية ويقول: (لا يمكن للمادة أن توجد إلا في الحركة، ولكن هذا لا ينفي إمكان حدوث فترات من السكون والتوازن أثناء السير العام المتواصل باستمرار للتبدلات المادية[2]) ويقول آخر: (لا بد من ملاحظة ان الحركة من حيث جوهرها عبارة عن تبدل ولكنه يحتوي في ذاته على لحظات استقرار وثبات) [3] وغير ذلك من الاعتراف بالسكون.

## تفاعل السبب والنتيجة

تقرر المادية الماركسية القول بأنه: لا تنبثق حركة الأسباب والمسببات ولا يتم تفاعل ما بينهما إلا تحت سلطان قوانين الطبيعة ومقتضياتها الكامنة فيها، ومن شأن خضوعها لهذه القوانين أن تكون الوقائع كلها ضرورية، وأن لا يبقى معها أي معنى للمصادفة إذا أريد بها عدم الضرورة.

وكذلك القول بأنه لا وجود لما يسمى بظاهرة (العلة الغائية) في تفاعل الأسباب والمسببات ولا مسوغ لتخيلها بالنسبة لعالم الطبيعة المادية بكل ما فيها من قابليات وإمكانات[4].

إن القول الأول يعني حتمية العلاقة بين السبب والمسبب فحيثما وجد السبب وجدت النتيجة، وإن ما يتوهم أنه جاء مصادفة لم يكن في واقع الأمر إلا مسبب عن سبب سواء أكان داخليا أي التي توجد داخل الأشياء المتطورة ويرصده الفكر ويتحقق من ضرورة أثارها أم خارجيا أي العوامل الخارجية التي تعز من الفكر ظهورها

---

(1) - نقض أوهام، ص: 115.
(2) - المادية الديالكتيكية، جماعة من كتاب السوفييت، ص: 93.
(3) - المصدر نفسه، ص: 103.
(4) - ينظر: نقض أوهام، ص: 155، و الدفاتر الفلسفية: 59/1.

واختفاءها، مع اليقين بأنها ضرورة لا بد منها لحصول نتائجها، وتقبل الماركسية ما يقع تحت تأثير الأسباب الخارجية مصادفة، كهلاك بستان بسبب اعصار علما بأن بين الضرورة والمصادفة قدرا مشتركا يتمثل في أنه لا يوجد شيء ما بدون سبب، ولا يأتي سبب ما إلا ويستنتج نتيجة، غير أننا إذا لم نؤمن بالمسبب الأول الذي تنبع القدرة والفاعلية من ذاته سنقف أمام سلسلة من العلاقات المتلاحقة أو المتصادمة (على حد تصور الميكانيكيين والديالكتيكيين) يستحيل أن تعتمد على منطق سليم، ثم تطلق على هذه العلاقات بين الأشياء التي لا يوجد فيها سلطان ذاتي صفة الحتمية والضرورة، فمن أين يأتي قرار الحتمية والضرورة إذا كنت لا تريد أن تشاهد إلا سلسلة من الظواهر المتدافعة، من غير أن تنتبه إلى من سلط هذه الظواهر - بقوة ذاتية من عنده - على بعضها، وإذا عبرت عن هذه الحتمية بكلمة (قانون) أو بالغاية والقصد فأنت مضطرب متهافت بعيد عن منهج العلم والمنطق[1].

فالسبب الأول لوجود الكون هو الاله الخالق القادر الذي يؤثر في كل شيء، فالموجودات كلها من ثمرة قدرته وإرادته تسير وفق نواميس وقوانين أحكم عليها الحاكم دون أن تحيد عنه منذ خلقها الله أو يصطدم بعضها ببعض.

أما رفضهم للعلة الغائبة [2]، فهم يرون أنه لا مكان لوجود رابطة الغاية بين شيء من موجودات المادة وظاهراتها، إن المتأمل في أرجاء الكون الفسيح العجيب يدرك في كل جزء من أجزائه آيات القصد والتنظيم أكثر من أي علم آخر، فابدأ بأصغر أجزاء الكون ابتداء من جزئيات الذرة أو الخلية وانتهاء من أضخم جرم من الأجرام الكونية، فتجد ظاهرة التناسق الذي لا ينبثق إلا عن إرادة وحكمة، وعلى سبيل المثال:

1. خلايا أجسامنا دائمة الانقسام للعمل على نمو الجسم أو لتعويض ما يفقد بين هذه الخلايا، إلا أن الخلايا العصبية لا تنقسم، لأنها لو انقسمت لحدثت كارثة مروعة حيث تتلاشى جميع معالم الذاكرة في الخلايا العصبية للمخ[3].

---

[1] - نقض أوهام، ص: 167-168.

[2] - هي القصد الذي يظهر أول الأمر في عماق الإرادة، بحيث يكون ظهور ذلك القصد ثمرة ونتيجة لها.

[3] - الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 34.

2. أجهزة جسم الإنسان ابتداء من بويضة الجنين وتلاقحها ثم انصرافها إلى مأمنها في الرحم والانتقال في مراحل خلقها وانتشار الحياة فيها وتأمين الغذاء لها، وتكون الجو الدقيق الذي ينسق مع طبيعة حياته من ظلمات الرحم والمشيمة حتى تحين ساعة الملائمة لانتقال الجنين من دينا الرحم إلى دنيا العمل فلا يكاد ينتقل حتى تتحول كل ذرة فيه إلى الاستعداد التام للاتساق مع الجو الجديد وما فيه من ضياء وهواء وغذاء وحركة، وتهيئة الثديين في الوقت المناسب لاستقباله بالغذاء الذي يتصف بأدق معاني الملائمة لحال الوليد الجديد وطبيعته..، وتفاصيل أخرى عن الفم وتناسق الأسنان والأضراس، والغدد اللعابية التي تمد الأسنان بطاقة النطق إذا تكلم والمضغ إذا أكل .. [1] ثم المعدة تقوم تلقائيا بتحليل ما نتناول من أطعمة على اختلاف أنواعها وتصنيفها وتصدرها باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا حسب احتياج هذه الخلايا وتخصصاتها لتكوين العظام أو الأظافر أو اللحم أو العينين ...الخ، وكذلك تكافح الجراثيم المعادية عليها .. [2].

3. كذلك التوازن الموجود بين الأرض ومن عليها وما حولها، وقوة الجاذبية بين الأرض والقمر والكواكب الأخرى، وكذلك الحركات الفلكية المعقدة المتألفة، مما هيأت الأرض للحياة، والتناسق بين حجم الأرض وكمية الهواء عليها ومنعها من الاضطراب كل ذلك ثمرة خالق مدبر نسق بين هذا وذاك، وهذه الحقيقة ينكرها الماديون ويبذلون على إنكارها جهدا شاقا من الاضطراب والمكابرة[3].

ولا يتسع المجال لذكر ملايين التنظيمات والتوافقات الرائعة في جسم الإنسان والتي تعجز عن الإلمام بها عقول العلماء، وكذلك التنظيمات الموجودة في كل كائن حي من الحيوانات والنباتات، وفي خلق الكون، مما يدل هذا التصميم على القصد والتدبير لمدبر هذا الكون الذي ألف بين تلك الأشتات وجرى فيه حكمه وقانونه بتنظيم يعجز المادي عن تصور كنهة والإحاطة بماهيته، ويفشل أمامه نظرياتهم القائلة بالصدفة والتولد الذاتي والانتخاب الطبيعي ولا بد أن توجد الكون كله بما فيه الأسباب

---

[1] - ينظر: نقض أوهام، ص: 171-172.

[2] - ينظر: الكون والإعجاز العلمي للقرآن، ص: 35.

[3] - ينظر: نقض أوهام، ص: 173-174.

والمسببات من وجود مسبب تنبع القدرة من ذاته، وليست تفيض عليه من غيره، ولا ضرورة للوجود خارج نطاق ما يقضي به مسبب الأسباب، ولا مصادفة بعد ثبوت قانون الحكمة وظاهرة العلة الغائبة في الأشياء.

وهكذا أنهار الرأي المادي وخاصة بعدما بدد إشعاع الراديوم واليورانيوم وغيرهما أوهام العلماء (✍) في بقاء المادة وثبات كتلتها، وسيعلمون فيما بعد أن كل ما في الوجود من قوة وإبداع وتنظيم وتنسيق أن هو إلا مجرد آثار لفاعلية الخالق الأعظم الذي خلق الأسباب والمسببات بما يجعل وحدات الوجود كلها كائنات احتمالية لا تملك من ذواتها لذواتها تصريفا أو تقنينا أو توقيتا[1].

ونختتم القول بحديث الدكتور (ايرفنج وليام) أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة (ميشيجان) حيث يقول: (فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية، فهو قائم على أساس التغيير ... والعلوم بطبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية، أو أن تدرك ذاته تعالى ...وإن عجائب الكون دعت كثيرا من علماء الفلك الأمناء إلى الاعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون ونظامه مدبرا لا نراه) [2]، وقد قال تشاد والسن أحد علماء الطبيعة: (إن ما يطلب من أي إنسان مؤمنا كان أم ملحدا، أن يبين لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون) [3].

## شهادة العلماء بزيف النظرية المادية:

**لقد أعلن كوكبه من العلماء بطلان النظرية المادية نذكر من بينهم:**

---

✍ الماديين القائلين بالمصادفة.

(1) - كتاب الوجود، ص: 237-238.

(2) - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 55.

(3) - المصدر نفسه، ص: 55.

أ. **فولتير**[1] **ويقول:** ما المتناقضات في الإنسان إلا العناصر الضرورية المركبة له من خير وشر ولذة والم وعقل، ويقول: إذا وجد شيء منذ الأزل وإنا موجود ولست موجود بذاتي فهناك موجود بالذات هو الله.

ب. **كانط**[2] **يقول:** (أنه ليس في الطبيعة صدفة أو علة عمياء، وإن كل شيء فيها يتوقف على شروط ويقع بموجب ضرورة معقولة ..) ويقول: الدليل الطبيعي الالهي يستنتج وجود الله من نظام العالم، بحجة أن النظام لا يمكن أن يكون وليد الاتفاق أو العلية المادية.

ج. **انماسير**[3] **ويقول:** (إن كل نوع من الأنواع خلق بواسطة فعل خاص من أفعال القوة الخالقة...).

د. **بطلر عالم إيطالي يقول** : (إننا نؤمن دائما بأن كل شيء راجع إلى فعل الطبيعة محتاج إلى ذات مدبرة مدركة تؤثر فيه تأثيرا متداركا) [4].

هـ. **الفرد روسيل وولاس** : عالم طبيعي انكليزي وبعد من عباقرة العلوم الطبيعية، ومن الباحثين في علم الأحياء ويقول: إن الماديين والطبيعيين يتجاهلون القوة المدبرة التي بفضلها تستطيع الخلية الحية من الدوران بسلسلة من التحولات التي لا تستطيع إيضاحها بداية طريقة كيمياوية أو آلية).

و. **باستور** عالم فرنسي وهو مكتشف الجراثيم المرضية وقد وضع القاعدة الآتية: (إن الحي لا يتولد إلا من حي مثله وقد أثبت ذلك بالبراهين والأدلة والتجارب العلمية) [5].

وكذلك علماء آخرون كثيرون من مختلف الاختصاصات يبطلون زيف النظرية المادية ودعواهم المضللة حول الكون وقوانينه ويؤمنون بوجود اله خالق قدير أوجد هذا الكون من العدم ويسير به إلى نهاية محتومة فيما بعد.

---

[1] - 1694-1778، وهو الكاتب الفرنسي.

[2] - 1724-1804، عالم ألماني وفيلسوف.

[3] - عالم سويسري ومن أشهر علماء الطبيعة في أوربا.

[4] - الإنسان والد ارويينة، ص: 185-187.

[5] - الإنسان والد ارويينة، ص: 187-188.

# الفصل الثالث

# نظرة المثاليين إلى الكون

# نظرة المثاليين إلى الكون

يبدو للباحثين أن معرفة العنصر الأول للكون من الأمور المستشكلة على الماديين والمثاليين مما اكتسب أهمية في المجتمع الأوروبي منذ زمن طويل، والخلاف نتج نتيجة البحث عن علاقة الفكر بالكينونة والروح بالجسد حيث ظهرت التفرقة بينهما نتيجة تجربة الموت، مما يحتفظ الجسد بشكله الخارجي ولكن يصبح بلا حركة كمادة جامدة يفقد فكرة.

ويعود تاريخ التمييز بين المادة والروح إلى (اناكساغوراس) [1] وهو أول من تحدث عن هذه التفرقة بوضوح وقال: (إن هناك فرقا جوهريا بين المادة والقوة التي تنظمها، وإن الروح هي النفس ... وهي حاصلة في ذاتها على مبدأ حركتها، والجسم يتحرك بواسطة النفس ... الروح ... العقل، وليست النفس مبدأ النظام الذي نشاهده فحسب، بل هي مبدأ كل معرفة كذلك والمادة لكونها غير متحرك بذاتها وحركتها تأتي من الروح فهي لا وجود، أما الروح فهي الوجود والروح هي الصورة وهي لا جسمانية) [2]، وقد انقسم الماديون والمثاليون إلى مدرستين كبيرتين لدراسة مبدأ الوجود والمحرك الأول للكون. فالماديون اعتبروا الطبيعة والمادة بمثابة العنصر الأول للكون ويقررون تقدم الطبيعة على العقل وينتمون إلى مختلف مدارس المادية ... وإن العالم المادي الذي تدركه حواسنا هو الواقع الوحيد، وإن المادة ليست من نتاج العقل، بل إن العقل نفسه نتاج المادة الأعلى[3].

أما المثاليون فيؤكدون تقدم العقل على الطبيعة ويجعلون ما هو روحاني هو أساس الكون، وهو مصدر الأشكال للمادية الجسمانية كافة.

---

[1] - اناكساغوراس (488-428 ق.م)، وذكر متى كريم أنه ولد سنة (500 ق.م). الفلسفة اليونانية.

[2] - القانون الحيوي للكون، تأليف رائق علي النقري، سلسلة مسائل تطبيقية للايديولوجية الحيوية، طبع سنة (1975)، دار الأنوار للطباعة، ص: 15.

[3] - ينظر: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، تأليف ستالين، ترجمة خالد يكداش، طبع دار البديع، مطبعة العاني، بغداد، ص: 18، وينظر: الشيوعية: تناقض الدين، ص: 62.

**وقد تفرعت هذه المدرسة إلى ثلاثة فروع:**

**أ. التصوريون.**

**ب. المثاليون.**

**ت. الروحيون.**

**فالتصوريون** : يعتقدون بان المثل مجرد صور ذهنية لا حقيقة لها خارج الذهن [1]، ولا يؤمنون بوجود روحية وراء الطبيعة كما يعتقده أصحاب المثل الأفلاطونية، وهم بذلك ما زادوا عن أراء الواقعين القائلين بأن واقعية الأشياء نفسها هي الحقيقة الموجودة، وإن لا مثل وراء الطبيعة ولا في الذهن وإنما هي أحاسيس الأشياء فقط.

**أما المثاليون** : فهم العقليون القدماء في صورة أخرى، فيقولون: ليس في الوجود إلا الفكر، وهو علة الوجود، وإن الأشياء في كتلتها وواقعيتها وصورها وسائر كيفياتها هي مجرد صورة للفكر، فإذا وجدنا وجدت الأشياء، وإذا عدمنا عدمت الأشياء باعتبار الإنسان محطة الفكر، كما يقولون أن ليس في الأشياء إلا تصورات الذهن [2]، ويتضح من هذا أن المثالية والمادية تهدم أحداهما الأخرى، وتمثل هذه المدرسة كانت[3] وأتباعه مثل هيجل[4] وشلنج[5] وهرثمان[6] ونيتشة[7].

**أما الروحين فهم قسمان:** قسم يؤمن بالله والروح وآخر لا يؤمنون إلا بوجود الحياة، وهم أصحاب مذهب التطور الخالق الذي يمثله (برجسون) [8] و (ستبورت مل) [9] و (وسبنسر) [1]، وإن هذه المدرسة لا تقول بعلة للوجود وراء الحياة في

---

(1) - كتاب الوجود، ص: 86.

(2) - ينظر: كتاب الوجود، ص: 87.

(3) - كانت (1724-1804م).

(4) - فيلسوف ألماني (1770-1831م)، ولد في استنجار.

(5) - فيلسوف ألماني ولد في وادتمبرج (1775-1854م).

(6) - هرتمان، فيلسوف ألماني، (1842-1906).

(7) - هنري برجسون، فيلسوف فرنسي ولد في باريس (1809م).

(8) - هنري برجسون، فيلسوف فرنسي، ولد في باريس (1809م).

(9) - فيلسوف انجليزي، (1806-1873م).

الوقت الذي لا يعلم عن أصلها شيء ولا عن مصدرها، وتجعل من المادة شبحا للحياة ومقاوما لها.

وإذا كانت هناك معرفة حقيقية على الإطلاق وجب أن تكون لها وجود حقيقي، وهذه الموجودات هي المثل، ذلك لأن كل نوع من الأشياء التي نراها بأعيننا يقابله مثال هو مصدره وعلته، وأنه النموذج الأصيل للصور الممكنة المولدة منها وغير المولودة على السواء ولا يتعرض - عالم المثل - للفناء كالعالم المحسوس بل هو فوق ما نسميه بالعمر أو الآجل المحدود[2].

## أصل الكون عند المثاليين:

يرى المثاليون أن الفكر هو الواقعة الأولى، وهو أولى المعطيات، لأن كل قضية تفترض وجود الفكر[3] واتخذ ديكارت[4] هذه الفكرة مذهبا له ويقول: (رأيت أن وجود هذا الفكر هو المبدأ الأول واستنبطت منها المبادئ التالية: أن هناك الها هو خالق كل ما في العالم، وأنه لم يخلق أذهاننا بحيث تكون عرضة للخطأ فيما تقرر من أحكام على الأشياء التي نتصورها. وكذلك، استنبطت مبادئ الأشياء الجسمانية [5]، أي أن لها أشكالا طولا وعرضا وارتفاعا وأن لها أشكالا تتحرك على صور مختلفة، ويقول في عرض نظريته حول أصل الكون: (إن هناك فكرة ممتازة أوسع من فكرتك هي فكرة الكائن اللانهائي، وإن في ذهنك صورة عن كائن لا نهاية له .. ويستحيل أن يكون قد نبعت في نفسك، لأنها أوسع منك وأنت كائن محدود على نقيضه، فلا يمكن أن ينشأ كائن لانهائي مطلق من كائن نهائي محدود، ولا بد لها من أصل يوازيها كمالا وعظمة لضرورة التكافؤ بين العلة والمعلول ومن هنا كان حتما علينا أن نسلم بوجود

---

(1) - فيلسوف انجليزي، ولد في مدينة دربي، (1820-1903).

(2) - ينظر: فلاسفة أوروبيون من ديكارت إلى برجسون، تأليف الدكتور موسى الموسوي.

(3) - رواد المثالية في الفلسفة الغربية، تأليف عثمان أمين، 1976، دار المعارف، ص: 9.

(4) - 1596-1950 أو 1659، فيلسوف فرنسي.

(5) - الفلسفة الحديثة، تأليف د. محمد علي أبو ريان، الطبعة الأولى، 1969، دار الكتب الجامعية.

اله جامع لكل صفات الكمال، وهو الذي خلق في الإنسان هذه الفكرة والهمة، فالله تعالى موجود وليس في وجوده شك) [1].

واستخرج بذلك اليقين من الشك وجعله سبيلا لإثبات وجود الله، وقال كلمته المشهورة (أنا أفكر، إذن أنا موجود) وبنى على هذه الكلمة قواعد برهانه على صحة الحواس وصدق العقل، وتوصل إلى إثبات وجود الله وعرف جميع صفات كماله المتوجبة عقلاً[2].

ومن علماء المثالية هيجل [3]: الذي ينادي بأن العقل أساس الكون كله، وأن العالم من خلقه، وأول عمل يقوم به هو تأليف تلك القوانين العليا التي تخضع لها حقيقة الطبيعة المادية كما تخضع لها الحقيقة العلمية، و كما نادى كانت [4] بان الحقيقة الواقعية هي من تصميم العقل، وإن كل معطيات الحس لا بد أن تدخل في إطارات من صنع العقل، وكذلك الزمان والمكان والعلة من إطارات قائمة في صميم العقل[5].

ويرى دعاة المثالية، أن المادة والصورة كلاهما ناشئان عن العقل، لأن المادة عندهم ليست بشيء ذلك لأن المادة إما أن تنشأ عن العقل أو العقل من المادة، ولما كان حدوث العقل عن المادة غير ممكن، فإن من الضروري أن نقرر (أن المادة تولد من العقل)، وهذا ما يقضي به الإدراك الفلسفي الذي يعرف الصلة بين الذاتي والموضوعي وبين التصور والعيان وبين الامتثال و الشيء، وبالجملة أن العالم اللامتناهي ليس شيئا آخر عقلنا الخالق في نتاجاته وانتساخاته ولا يبقى العقل مجرد مبدأ للذاتية فحسب بل يصبح طبيعة تنظم نفسها والمركز الأصيل لنظام العالم[6].

وايد شلنج [7] مبدأ كون العقل أصل الوجود، ويقصد بالعقل المطلق وهو الله تعالى[1]. وجملة القول أن المثاليين يعتبرون الفكر والعقل المبدأ الأول للكون والمادة

---

[1] - فلاسفة أوروبيون من ديكارت إلى برجسون، ص: 13-14.
[2] - ينظر: قصة الإيمان، ص: 127.
[3] - هيجل ولد في استتجار بألمانيا، (1770-1831م).
[4] - كانط فيلسوف ألماني ولد في كنجسبرج، ببروسيا، (1724-1804م).
[5] - ينظر: المثالية الألمانية عبد الرحمن بدوى، دار النهضة العربية، (1965م)، ص: 90-91.
[6] - المثالية الألمانية، ص: 212، وينظر: المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص: 9.
[7] - فيلسوف ألماني، ولد في (1775) في مدينة ورتمبرج، وتوفي سنة (1854م).

في نتاجه، وانشأ أو مبدأ الاثثينية[2] كعلة للوجود أو الواحدية فقط كالفكر فقط كما فعل كانت وهجيل أو المادية فقط كما فعل لوك[3] وأعقابه كـ (مولشوت) [4] و (هولياج) [5] وغيرهما، وحدث منه الكون نتيجة المتضادات في عناصره.

إلا أن الأساس الذي بني عليه مبدأ الأثنية والواحدية ضعيف للغاية، لأن شرائط العلة الأولى لم تتوفر فيهما، ولأجل ذلك القصور اضطر ديكارت أن يدخل الله في أول حركة للفكر ليحدث الألفة بين ما هو عقلي وما هو مادي، لشعوره بأن العلة التي فرضها في مذهبه تقصر عن أن تبلغ العلية المطلقة للوجود، ولأن الجوهر المادي والجوهر العقلي ضدان يقصران عن تعليل الألفة بين الروحية والجسمية في الإنسان وفي الوجود.

## بين المادية والمثالية:

ليس في الخبرة المطلقة الناشئة عن التجربتين الذاتية والموضوعية إذا اقترفتا معا ما يبرر كون الفكر علة للمادة ولا كون المادة عله للفكر، لأن واقعية الشيء تمنع عليه الفكر إذا ادعى ذلك، ثم إن عدم ثبات المادة كحقيقة عليه، وترتب جملة ظواهر لوجودها كتحولها لطاقة متحركة تنزل المادة عن عرش العلية أيضا.

وكذلك أن تضايق العقل للشيء ومحدودية كل منهما وقصوره وتضايقه وحاجة كل منهما للآخر ينبئنا بالبرهان القاطع على أن هناك علة عليا غيرهما فوق الفكر والمادة تعلل الألفة والانسجام بينهما، وذلك يفسر لنا سر العلاقة بين الجسم والعقل، والفكر والشيء، والروح والمادة كما لو كانت جميعها حالات ومظاهر لنشاط حقيقة أخرى تعللها وتؤلف بينهما[6].

---

[1] - المثالية الألمانية، ص: 215.

[2] - الحركة والمادة أو الفكر والمادة، ومع ذلك إن شكت في وجود الجوهر المادي اعتنقت المذهب المثالي، وإن شكت في المذهب المثالي فقد ارتدت إلى المذهب المادي ودانت له.

[3] - فيلسوف انجليزي، ولد في مدينة رنجتون،(1632-1704م).

[4] - (1822-1893م).

[5] - فيلسوف فرنسي ملحد، (1723-1789م).

[6] - ينظر: كتاب الوجود، ص: 75-76.

وإن القائلين بالجوهر المادي يجهلون أن المادة مقومة بحقيقة لا يعرفونها، وكذلك القائلين بجوهرية العقل يجهلون أن العقل يحتاج إلى المادة دائما ليظهر فيها ويتجاوب معها، ودليل ذلك أن الماديين يطعنون في جوهرية العقل وكونه مقوما للأشياء، مدعين أنه مجرد ظاهرة من ظواهر الأجسام.

وكذلك المثاليون يقولون أن الماديين لا يدركون من الأشياء إلا ظواهرها، وهم ينكرون وجود العقل، وتكون نتيجة ذلك أن كل واحد منهما ينفي ما يتصوره الآخر، ويدل ذلك على ما يبدو أن المثاليين لا يفرقون بين معنوية العقل وواقعية الشيء، ومن جهة الماديين أنهم لا يعلمون إلا ظواهر الأشياء.

ويشابه هذا الصراع بين الماديين والمثاليين موقف رفض اليهود دين النصارى وبالعكس أيام نزول القرآن الكريم مع تيقنهم بأن نبيهم مرسل من عند الله وقص القرآن هذه الحقيقة بقوله: (**وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ** ) [1]. حيث بين تعالى في هذه الآية تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم [2] كما يفعله أصحاب النظرية المادية والمثالية في العصر الحاضر.

وتداخلت المادية في المثالية فأخذت قادة الماديين نواة المثالية والبسوه ثوبا جديداً، ونقلوا طريقة (هيجل) الديالكتيكية إلى مادية واسعة النطاق، وأعطوه طابعا آخر، كما صرح ماركس في قوله: (أن طريقتي الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تماما، فحركة الفكر الذي يشحنه هيجل ويطلق اسم (الفكرة) هي في نظرة خالق الواقع وصانعه، أما في نظري فعلى العكس ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان مستقرة فيه) [3]، كما أن المذهب المثالي قد امتلاء بمحتوى وأفكار مادية ساعيا بواسطة مفهوم عن وحدة الوجود إلى إيجاد حل للتناقض بين العقل والمادة حتى أصبح

---

[1] - سورة البقرة الآية: 113.
[2] - تفسير ابن كثير، ج 1، ص: 155.
[3] - المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية، ص: 13-14، نقلا عن رأس المال، ج 1، ص: 29، ولودفيج فيورباخ، ص: 23.

منهج هيجل من حيث طريقته ومحتواه مادية واقفة على رأسها بشكل مثالي [1] وتلقى ماركس الفكرة الهيجلية فأقامها على رأسها بعد أن كان منتكسا على رأسها على حد تعبيره، ولكن تتميز المادية الهيجلية مع مادية الماديين من حيث الخطوط الأساسية التالية:

1. أن المثالية تعتبر العالم تجسدا لـ(الفكرة المطلقة) أو العقل الكلي. أما المادية فتعد أن العالم بطبيعته مادي، وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وإن العلاقات المتبادلة بين الحوادث هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة وإن العالم يتطور تبعا لقوانين حركة المادة، وليس بحاجة لأي عقل كلي[2].

2. إن المثالية تؤكد أن الشعور وحده هو الموجود واقعيا، وإن العالم المادي والكائن والطبيعة لا توجد إلا في إدراكنا وإحساساتنا.

أما المادية الماركسية فتقوم على أساس أن المادة والطبيعة والكائن هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك بصورة مستقلة عنه وأن المادة هي العنصر الأول وأن الفكر هو نتاج المادة، لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال، أي أن الفكر هو نتاج الدماغ، والدماغ هو عضو التفكير، فلا يمكن فصل الفكر عن المادة المفكرة لأن هذه المادة هي جوهر كل التغييرات التي تحدث[3].

3. إن المثالية تبعد إمكانية معرفة العالم وقوانينه، ولا تؤمن بقيمة المعرفة البشرية، وتعتبر أن العالم مملوء بأشياء قائمة بذاتها ولن يتوصل العلم أبدا إلى معرفتها.

أما المادية فتجعل معرفة العالم وقوانينه ممكنا، والتي تجرى اختبارها بالعمل والتجربة، هي معرفة ذات قيمة ولها معنى موضوعية، وليس في العالم أشياء لا تمكن معرفتها وإنما فيه أشياء لا تزال مجهولة بعد وهي ستكتشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل[4] وقد اقتصرت معرفة الماديين على الشكل الخارجي للمادة وما يشاهد

---

[1] - المادية والمثالية، مهدي الحافظ، طبع سنة (1974)، بغداد، ص: 57.
[2] - المادية الديالكتيكية، ص: 26.
[3] - المصدر نفسه، ص: 27.
[4] - المصدر نفسه، ص: 30.

بالعين أو ما يمكن إجراء التجارب عليها في المختبرات، ونفوا ما وراء ذلك من فلسفة المثاليين الذين نفوا بدورهم أراء الماديين وقد اكتشف العلم الحديث خطأ آراءهم ونظرياتهم حول الكون والمبدأ الأول الذي انبثق منه الوجود.

4. إن الجدل الأطروحة[1] وطباقها [2] وتركيبها [3] يتم بين الفكرة والمادة عند المثاليين، ويتم عند الماديين ضمن المادة ذاتها دون أي عامل خارجي من فكر وغيره، وإن الجدل سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها وهو تطور مستمر يسير باتجاه دائري لولبي يكرر الدائرة ذاتها كل مرة[4].

ومما يبدوا أن الحركة تنبعث عند هيجل من منطلق واحد إلى دائرتين مختلفتين دائرة ما بين الشعور والروح حيث تحيي فيها حقائق الدين والقيم الإنسانية، ودائرة ما بين الفكر والطبيعة، حيث تنمو فيها الوقائع والمشاهدات المادية بتطوراتها وان نظرية هيجل لا تستبطن الحادا، بل تؤكد على وجود الخالق وأنه خالق جميع المخلوقات ومدبرها، وإن كانت فكرته عن الله تعالى تسير وفق نظريته الشاملة.

وأما عند الماديين فهي رصد لصراع الأضداد ضمن المادة فقط ولا شأن لها بما بين الشعور والروح إطلاقا، وأما دور الفكر والشعور فثانوي لاحق، وكذلك تجعل من المادة وحدها إلها وتنكر وجود الخالق لتكف عن نفسها - المادية - مشكلة أعظم برهان على وجوده إلى وهو الروح والفكر، عندما تقرر أن كلا من الروح والعقل أثر من آثار المادة.

5. إن المثالية ترد الكون إلى سبب أعمق وهو الله تعالى، ومن ثم يؤمن ممن بنوع من الوجود المجرد خارج المجال التجريبي، أما المادي فيقف عند المادة ولا

---

[1] - الأطروحة: هي انبثاق عوامل الإنبات داخل المادة، كانبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإنبات، نقض أوهام، ص: 32.

[2] - الطباق، ظهور عوامل الحياة بعد الأطروحة، نقض أوهام، ص: 32.

[3] - إعادة الشيء إلى ما كان عليه قبل الأطروحة، كإعادة النبات سنبلا متراكبا من الحنطة، نقض أوهام، ص: 32.

[4] - نقض أوهام، ص: 31.

يتعداها، ولا يؤمن بها وراء التجربة الحسية [1]، وقد أنكر الماديون الحقيقة المجردة التي اعتبرها المثاليون سببا نهائيا للوجود.

---

[1] - مطارحات الفكر المادي، ص: 198.

# الفصل الرابع

# خالق الكون في الحضارة الحديثة

# خـالـق الـكـون فـي الـحـضـارة الـحـديـثـة

ليس هناك تناقض بين العلوم وبين فكرة وجود الله الذي قدر كل شيء فأحسن تقديره، والذي ظهرت آياته للناس في ثنايا ما تكشف عنه العلوم، كما يقول (فيليبس) أحد علماء الطبيعة: (لقد ظهر الحق، فمنذ أن خلق الله هذا الكون تتجلى آياته وقوته الخالدة في كل ما يقع عليه الحس أو يحيط به العقل) [1].

وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجود الخالق على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها، ولكننا نصل إلى الإيمان بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية، أي عندما ندمج معلوماتنا عن الكون مع إحساسنا الداخلي والاستجابة لنداء العاطفة والروح الذي ينبعث في نفوسنا، ويمكننا أن نصل إلى أن الله يتصف بالقدرة والحكمة والإرادة، وإن له وجودا ذاتيا، وقدرته تتجلى في كل شيء كما بينا سابقا، إلا أننا نعجز عن إدراكه إدراكا ماديا أو وصفه وصفا ماديا مع كثرة الأدلة المادية على وجوده، حيث تدل آياته في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوى الذي لا حدود لقوته وهو القاهر فوق عباده[2].

فإن الإنسان المفكر لا بد أن يذعن ويسلم بوجود اله منظم لهذا الكون، وعندئذ تصير فكرة الالوهية إحدى بديهيات الحياة، بل الحقيقة التي تظهر في هذا الكون، والمطابقة بين الفرض والنتيجة تعد برهانا على صحة هذا الفرض، إلا أن الملحدين يفرون من الأدلة العلمية والمنطق الصحيح وينكرون وجود الخالق ويعتبرون المادة والطبيعة هي الخالق، ويردون على الأدلة الكونية بقولهم: أن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر بحيث يمكن أن يكون الكون بذلك أبديا، وكذلك ينكرون النظام في الكون ويعتبرونه مجرد وهم، ولكن لا يستطيعون أن يقيموا دليلا على عدم وجوده تعالى، لأن أساس الإلحاد قائم على العمى[3].

---

(1) - الله يتجلى في عصر العلم، ص: 69.

(2) - ينظر: المصدر نفسه، ص: 38-39.

(3) - ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، ص: 83-84.

ويرى صاحب مذهب الذرات الروحية (لبينتز) [1] أن الخالق وجد مع الكون في ذرات روحية متعددة تسمى وحدات (الموناد) [2] فيقول: (أن الوجود بما فيه من مادة وفكر أو روح وجسد كله مركب من ذرات روحية .. بعضها أرقى من بعض ومن هذه الذرات نفسها يتكون الكون والفكر والاله) [3]، وإن هذا القول حلولية ظاهرة في مذهبه، وبالتالي نكران صريح لوجود المادة.

ويرى الوجوديون[4] أن وجود الله افتراض غير نافع كما ذهب (سارتر) [5] إلى هذا القول، وينكر وجوده وبسبب هذا الإنكار من الوجودية لله نراها تجارب الأديان وتتعاون مع الأفكار الالحادية، لأنها قائمة على غير الفطرة، ويذهب سارتر إلى أن الوجود أصله اللاوجود (والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أي يخرج بذاته من العدم إلى الوجود) [6].

وإن الوجودية تفند رأيه بنفسه في كل دعوة يدعون بها ضد الفطرة لأن واقع الكون والتغييرات التي تطرأ عليه كل ذلك يبرهن عجز الإنسان عن معرفة أسرار الخلق ودفع المضار عن نفسه، وكذلك يوضح أن هناك خالقا وراء هذه التغييرات ويتصرف فيها كيف يشاء.

إن الماديين يرون أن الطبيعة هي الخالق، وأن المادة هي أصل الأشياء، وينكرون وجود علة للوجود فوق العلل، ولا يؤمنون بوجود شيء خارج مداركهم، وما لا يقع عليه بصرهم وإن العالم مادي، وما الحوادث التي تجري فيه إلا مظهرا من مظاهر المادة المتحركة ضمن قوانين ضرورية لتطورها وقال لينين [7]، بصدد المفهوم المادي (العالم واحد لم يخلقه اله ولا إنسان، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة

---

[1] - فيلسوف ألماني، ولد في ليبزج، (1646-1716م).
[2] - أي الوحدات أو الذرات التي يتركب منها كل شيء.
[3] - كتاب الوجود، ص: 81.
[4] - الوجودية: دعوة انحلالية أسسها ودعا إليها رجل دانماركي اسمه (كونراد).
[5] - أحد أقطاب الشيوعية.
[6] - ينظر: الإسلام يقينا لا تلقينا، ص: 243-247.
[7] - أحد قادة الشيوعية، (1870-1924).

حية إلى الأبد وتشتعل وتنطفئ تبعا لقوانين معينة ...) [1]، وهو يرفض بذلك الاعتراف بوجود الخالق ويعترف بوجود قانون ثابت في نظامه ولكن يعيده إلى المادة تخلصا من التساؤلات.

وهذا (فيورباخ) يختصر الوجود على الطبيعة وينفي وجود شيء خارجها ويقول: (فالطبيعة توجد وجودا مستقلا عن كل فلسفة، وهي الأساس الذي نشأنا عليه نحن البشر ... ليس ثمة شيء خارج الطبيعة والبشر) [2]، ويرى الدين وهما وخيالا والكائنات العليا انعكاسا وهميا لكينونتنا الخاصة، ويقول: (وما الكائنات العليا التي خلقتها خيالاتنا وأوهامنا الدينية سوى الانعكاس الوهمي لكينونتنا الخاصة) [3].

وكذلك يرون أن المادة هي الحقيقة الوحيدة التي انبثقت منها الحياة حيث ينسبون الخلق إلى المادة الجامدة غير المدركة ويجعلون الخالق من نتاج وجدان الإنسان الديني ويقول: خيورباخ (أن الله نتاج وجدان الإنسانية الديني وخيالها الأسطوري أما العكس، أي أن الوجدان الديني والأسطورة نتاج الوحي الإلهي فغير صحيح البتة) [4]، وكذلك يقول: (إن المادية في نظري هي أساس الكينونة غير أني لا انظر إليها كما ينظر العالم الفيزيولوجي والعالم الطبيعي بالمعنى الضيق) [5].

وحاول فيورباخ نقد الدين والوحي واعتبره فكرة تعمل على تخدير الشعب، وأنه انعكاس وهمي للواقع ويقول: (الدين هو العلاقة بين إنسان وآخر، تلك العلاقة التي تفتش عن حقيقتها حتى اليوم، في انعكاس وهمي للواقع في تدخل إله واحد أو الهة متعددة التي هي انعكاسات وهمية لصفات الإنسانية) [6].

وإذا تأملنا في أقوال هذا المادي فهو يحاول فهم خالق الكون عن طريق المادة الجامدة فقط دون النظر والتأمل إلى أن خالق الكون أوجده ليعتبر به العاقل. إلا أن العقل السليم يستطيع أن يرى (الله) تعالى إذا وقف أمام هذا الوجود وقفة المتأمل الذي

---

[1] - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص: 27.
[2] - فردريك انجلز، ص: 47.
[3] - المصدر نفسه، ص: 47.
[4] - فردريك انجلز، ص: 18.
[5] - المصدر نفسه، ص: 57.
[6] - المصدر نفسه، ص: 86.

يفرق بين العلل والمعلول والأسباب والمسببات، ويستدل بالحاضر على الغائب وعلى الخالق بالخلق الذي خلقه وهذا هو الطريق المأمون الذي يسلكه العقل في التعرف على الله، وبهذا العقل المتزن الرشيد عرف العارفون ربهم وآمنوا به.

أما أولئك الذين جادلوا في الله وألحدوا فيه، فهم الذين انحرفت عقولهم عن هذا الطريق وهامت بهم في أودية الضلال و التيه، وقطعت بهم العمر جريا وراء الخيالات والأوهام يحسبون أنهم على شيء، فركبت رؤوسهم الغرور، وبدت لهم الأشياء المقلوبة مستقيمة مع وضعهم المقلوب، فحسبوا أن العقل قادر على أن يذهب بهم كل مذهب ويشرفهم كل غاية، ويكشف لهم الحجاب عن ذات الله، فيشهدوا منه ما لم يشهد غيرهم من الناس، حتى وقعوا في شبكة الوثنية والتجسيد وتاهوا في حلك الظلام فضلوا وأضلوا وسنرى موقف أصحاب الحضارة الحديثة عن الله تعالى بصورة موجزة[1].

يرى المثاليون أن خالق الكون قد حل في أجزاء الكون، وحاولوا أن يوحدوا الوجود، واعتبروا أن الله هو الكون، وهو في نفس الوقت منشئه ومكونه، وهذا ما دفع (سبينوزا) تلميذ ديكارت أن يحصر العلية المطلقة في مزيج موحد من الفكر والامتداد، فأنتج هذا خليطا من المعلولية والعلية في نظام فلسفي غير محكم (بان أحل الله في الطبيعة)، وتابعه زملاؤه في المدرسة الديكارتية، وهذا (جورد أنو برونو) [2]، الذي يخلط بين الطبيعة وخالقه ويقول: (أن مجموع ما في الكون بكل ما فيه هو الله)، (والله هو الكون وهو في نفس الوقت منشئه ومكونه فكل ذرة في الكون مهما بلغت من الدقة الصغرة تمثل الله وتعلن عن وجوده بظهوره فيها) [3]. فوقعوا بمثل تلك الأقوال في حلولية خاطئة كحلولية سبينوزا في فسلفته القائلة (أن الله فكر وامتداد) الباطلة، لأن الامتداد من صفات المادة، والفكر من خصائص الإنسان، وإن خصائصها ليست ذاتية

---

[1] - ينظر: (الله ذاتا وموضوعا)، ص: 300.
[2] - فيلسوف إيطالي ولد في إيطاليا، (1548-1600).
[3] - ينظر: كتاب الوجود، ص: 79.

فيهما، ولا هما جوهرين عليتين، وإنما هي خصائص كونية ثانوية مفعولة مستعارة من كائن اسمى منهما[1].

[1] - ينظر: المصدر نفسه، ص: 79.

# الفصل الخامس

# الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار

# الحضارة التي بنيت على تلك الأفكار

ترتبط الحضارة في العصر الحديث ببعض المعتقدات السائدة في الشرق والغرب على ما يبدو، وارتكزت تفسيرات الوجود والحياة على أصول هذه المعتقدات، وتفرعت عنها فروع من التطبيقات الاقتصادية والاجتماعية لتأتي بثمرة يانعة حسب مخططاتهم المرسومة من قبل، لو تكن الحضارة الحديثة حديث النشأة، بل تعود جذورها إلى العصور القديمة التي حدثت فيها الصراع بين رجال الكنسية وعلماء الفلك وغيرهم، مما أدى إلى قتل كثير منهم، فقرروا في الآونة الأخيرة فصل الدين عن الدولة، وحصر الدين في الكنائس والمعابد فقط، دون أن يميزوا بين دين وآخر.

وتفرعت من هذه الفكرة مذاهب مادية متباينة من حيث الأسلوب المتحدة في جوهر وهو المذهب المادي الماركسي والمذهب الرأسمالي، فقررت الماركسية المادية رفض الدين تماما واعتباره عامل التأخر والاضطهاد للفقراء، وأما الرأسمالية فرفضت تدخل الدين في شؤون الدولة فقط، إلا أنهما لم يرفضا التعامل مع المثالية والدين من أجل تحقيق مصالحهما وأهدافهما، وكذلك المذهب المثالي الذي يرى عدم وجود عالم خارج أدركتا وتصوراتنا فكل الأشياء التي يتكون منها العالم ما هي إلا ألوان من تفكيرنا وتصوراتنا، وما لا ندركه فهو غير موجود.

ولذلك نجد أن علماء الطبيعة الفلسفة ينظرون إلى الكون على أنه لا خالق له ولا مدبر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فيها وتدبر شؤونها، وصاروا يفسرون هذا العالم المادي ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت وسموه نظرا علميا مجردا، وبدأوا يسخرون بالدين، وعدوا كل بحث وفكر يعتقد بوجود اله طريقا تقليديا لا يقوم على أساس العدل والحكمة، وأبو الإيمان بكل ما لا يأتي تحت الحس والاختبار ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة، وأصبح الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من قبيل المفروضات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم[1].

---

[1] - ينظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، تأليف أبو الحسن علي الحسني الندوى، الطبعة الثالثة، 1959، مطبعة المدني، القاهرة، ص: 168.

وبدأ الكتاب والاجتماعيون والسياسيون في كل نواحي أوروبا ينفخون صور المادية ونشرون سمومها في عقول الناس ويفسرون الأخلاق تفسيرا ماديا، ودعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية وقرروا أن الدين قضية شخصية لا ينبغي أن تتدخل في أمور السياسة والدولة، ويرون أن المتدينين لا يفيد وجودهم الدولة لأنهم يتقيدون بأحكام الدين، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكامه[1] ومبادئ الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك[2].

ويعتقدون أن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان، فلم يكن في استطاعته أن يفلت من السهول والطوفانات، فأوجد (قوى فرضية) لتنقذه من البلايا النازلة، وظهرت ا لحاجة إلى شيء يجتمع الناس حوله ولا يتفرقون، فاستغل اسم الاله الذي تفوق قوته قوة الإنسان ويهرع الجميع إلى رضاه[3].

ولقد حاول دعاة الحضارة الحديثة - المادية - أن يبنوا حضارتهم على المادة الملموسة، ويرون أن الحقائق المادية عائمة على السطح لا تحتاج إلى امتحان ولا تردد ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التي يرسلها ماركس، ويعتبرون أن عوامل الإنتاج هي التي تتحكم تأريخ الإنسان.

يقول ماركس: (أن الأحوال الاقتصادية هي العامل الذي يقرر أخيرا أطوار التاريخ) [4] ورفضوا الدين وعدوه أفيون الشعوب، وقسم آخر فصلوا بين الدين والدولة، وسنوضح دعائم الحضارة الحديثة التي بنيت عليها فكرتهم.

إن المذهب المادي ينكر الأديان ويكفر بجميع الأنبياء والرسل ويقولون عن الدين (أفيون الشعوب) لأنه يخدر أتباعه بالأمن في الآخرة، فلا يطلبون النعيم في هذه الدنيا، وهم يسوون بين هذه الأديان جميعا في هذه الصفة، وقد حاربوا الإسلام والمسيحية واليهودية حربا عنيفة إلى قيام الحرب العالمية الثانية[5].

---

[1] - أي أن عليهم - السياسيون - أن يمارسوا سياستين كان ينبذوا العهد إذا اقتضى ذلك.
[2] - المصدر نفسه، ص: 169.
[3] - الإسلام يتحدى، ص: 29.
[4] - الشيوعية والإنسانية، تأليف عباس محمود العقاد، ص: 105.
[5] - أفيون الشعوب المذاهب الهدامة، تأليف عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري، ص: 80.

إلا أنه قد يطيق الصبر على المسيحية، ولا يطيق الصبر على الإسلام إلا ريثما تتحفز له وتغل أيدي أتباعه عن المقاومة، لأن المسيحية دين العدد الأكبر من الروس والشعوب التي تدخل حوزة الدولة الروسية، ولأن المسيحية تدع شؤون الدولة ولا تتعرض للنظم الاجتماعية أو لإقامة المجتمع على أساس جديد ... وأوصت ما لقيصر لقيصر وما لله لله[1].

ويرون أن الدين نتاج عقل الإنسان ومن خلقه، في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية، ويقول جوليان هكسلي[2]: الدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته .. وإن هذه البيئة هي المسؤولة عن هذا التعامل، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين ... ويضيف قائلا: لقد انتهت العقيدة الالهية إلى أخر نقطة تفيدنا، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات، لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر، ثم بالعمليات الروحية، ثم بالعقيدة الالهية حتى اخترع فكرة (الاله الواحد) وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزاء مفيدا من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها، ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور) [3].

وكذلك ترى الفلسفة الشيوعية أن الدين (خدمة تاريخية) وهي تركز الأسباب في عوامل اقتصادية، وأن العوام التاريخية التي خلقت الدين هي النظام البرجوازي القديم، وهذا النظام القديم لقي حتفه ولندع الدين يذهب معه، ويقول انجلز: (إن كل القيم الأخلاقية هي في تحليلها الأخير من خلق الظروف الاقتصادية) [4]، وينكرون وجود الاله والخالق لهذا الكون ويقولون إن الموجود منحصر في المادة، فالعقل الإنساني والشعور الاجتماعي كلاهما مادة أيضا، والذي لا يتصف بالمادية والموضوعية ليس له وجود، وعلى هذه القاعدة يقولون أن الله ليس بموجود لأنه ليس بمادة، ومن جهة أخرى: إن العقل هو مادي لا يبقى بعد الجسم، وعلى هذا ينكرون حقيقة البعث بعد الموت لأن البعث يقتضي بقاء العقل أو الروح بعد الجسم، وهم يفترضون فناء ذلك

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 81.
[2] - عالم أمريكي صاحب كتاب (الإنسان يقوم وحده).
[3] - الإسلام يتحدى، ص: 29.
[4] - المصدر نفسه، ص: 30.

بفناء المادة [1] ويقول: لينين في خطاب ألقاه في المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعي في اكتوبر 1920، (أننا لا نؤمن بالاله، ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنسية والاقطاعين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الاله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم، أننا نكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التي صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان والتي لا تتفق مع أفكارنا الطبيعية، ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية) [2].

فالقيم الدينية والقيم الأخلاقية لا وجود لها ولا ثبات عند الماديين وإذا وجد من يقول: (أن هناك قيما أخلاقية ينبغي المحافظة عليها لمصلحة الوقت الراهن يكون مخطئا أشد الخطأ وخارجا عن مبدأ الفلسفة الماركسية التي تؤمن بالتغيير في كل شيء، والقيم الأخلاقية ليست قابلة للتغيير فحسب بل واجبة التغيير أن كان لها وجود في نظر الماركسية[3].

وكذلك يعدون الدين نقيض العلم، ونوعا من أنواع العبودية التي تبتلى بها جماعات فقيرة في كل زمان ومكان كما يقول ستالين: (لا يمكن أن يقف الحزب موقفا محايدا من الدين لأن الدين نقيض العلم) [4]. ومما يبدو من هذه النصوص أن الحضارة المادية ترفض الدين والاعتراف بخالق لهذا الكون ويعتبرون المادة أساس كل شيء، ولا يميزون بين دين وآخر، فكل الأديان متساوية عندهم، ولا يتعاملون مع الدين إلا من أجل النضال ضد الاستعمار، كما يصرحون بذلك في بياناتهم، وإن الدين اليوم في أوروبا هو روح المادية لا النصرانية وقد بين ذلك في وضوح وصراحة الأستاذ الألماني المسلم (محمد أسد) في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق): (إن الحضارة

---

[1] - الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، تأليف د. محمود عثمان، الطبعة الأولى، مكتبة الانجلوا المصرية، القاهرة، 1977، ص: 274-275.

[2] - الإسلام يتحدى، ص: 30.

[3] - الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، ص: 275.

[4] - الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، ص: 277.

الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه) [1].

وإن الدين هو الغذاء الخادع للضعفاء لأنه يدعوهم إلى احتمال المظالم ولا يزيلها، ويقول هجيل: (أنه الأفيون الذي يخدر الشعب لتسهل سوقته) ويضيف: (أنه نفثه المخلوق المضطهد وشعوره بالدنيا التي لا قلب لها أنه أفيون الشعوب) [2]. وكذلك أنهم يدعون إلى الإلحاد ورفض الدين كليا وأن السعي وراء لقمة العيش والتحرر من الإقطاع أساس الحياة وأن العقيدة الوطنية أو الدينية تنشئ لها تركيبة عليا من الشعائر والمراسم تعمل في الظاهر مستقلة عن وسائل الإنتاج ولكنها مشتقة منها ومتوقفة عليها[3].

وسنناقش هذه الآراء فيما بعد إن شاء الله تعالى.

تطبيق العلمانية [4]:

إن مفهوم العلمانية ظهر نتيجة للصراع على السلطة بين الكنيسة ورجال الدين من جبهة وبين الحكام الزمنيين والملوك من جهة ثانية ويمكن تلخيصه على الوجه الآتي:

أ. أبعاد الدين عن الدولة وشؤونها، ويسعى القوي - الأجنبي - عن طريق أصحاب النفوذ في نظام الحكم في المجتمع الإسلامي إلى ازدواج التعليم ما بين دين ومدني وازدواج القضاء ما بين شرعي ومدني في أولى مراحل تطبيق العلمانية[5].

ب. منع رجال الدين من التدخل في شؤون الدولة والمجتمع، لفرض أرائهم ووجهات نظرهم بحجة أنها تمثل الدين والتعاليم الالهية المقدسة[6].

---

[1] - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: 172.
[2] - الشيوعية والإنسانية، ص: 232.
[3] - الشيوعية والإنسانية، ص: 233.
[4] - العلمانية هي: فصل الدين عن الدولة.
[5] - الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة، تأليف د. محمد البهي، الطبعة الأولى، دار التضامن للطباعة، القاهرة، (1401-1981م)، ص: 16.
[6] - العلمانية والدولة الدينية، تأليف شبل العيسمي، ص: 53-54.

ج. أن تكون الدولة محادية تجاه جميع الأديان والمذاهب.

د. أن تضمن الدولة كذلك لكل مواطن حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية بدون تمييز بسبب الأصل أو الجنس أو الدين أو العقيدة، بشرط أن لا يمس حرية الآخرين وآداب المجتمع، ولامع النظام العام[1].

والدولة عندما تكون علمانية محايدة فإن نظامها يفصل بين الدين والدولة ليكون لكل منهما دوره، دون أن تكون الدولة معادية للدين أو منحازة لأي مذهب يسمح لقادته بأن يفرضوا سلطتهم بحجة أنهم يمثلون إرادة الله. وكتب أصحاب العلمانية بهذا المعنى مقالاتهم وقال بعضهم: (على الدولة أن لا تخص أي دين باعتراف خاص به) فعلى كل ديانة أن تبرز إلى المجتمع بقواها الذاتية بدون عون الدولة، التي إذا ساعدت أحداها تكون قد أفسدت مبدأ المساواة وبينهما) وقالوا أيضا: (إن العلمانية لا تلغي الدين أو الممارسة الدينية، بل تخرج السياسة والتنظيم الاجتماعي من حيز الممارسة الدينية، كما تخرج الممارسة الدينية من الحيز الاجتماعي والسياسي كي تعيدها إلى إطارها الوحيد في الحيز الشخصي، فالتعصب الديني عندما يقتصر على الإيمان وعلى العلاقة بين الفرد وربه فإنه حق للفرد، أما عندما يتحول إلى قاعدة للتنظيم الاجتماعي والممارسة السياسية فإنه يصبح وسيلة قمع استبدادية غير عقلانية، ويكون بالضرورة أساسا لانقسام المجتمع حسب حدود يرسمها الإيمان وتتخذ شكلا طائفيا) ورفعوا شعارهم المعروف (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) [2].

وبما أن الإسلام دين لم يسلم مما وجهه الآخرون إلى المسيحية من شظايا الحرب بين الكنيسة والدولة في أوروبا من أجل السلطة، ويحلو لرجال السياسة في المجتمعات الإسلامية أن يكرروا الاتهام لإبعاد المسؤوليات عن كاهل الحكام التي يلقيها وينيطبها الحكم الإسلامي[3].

---

(1) - المصدر نفسه، ص: 54.

(2) - العلمانية والدينية، ص: 54.

(3) - الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة، ص: 8.

وقد تبنى هاتين الفكرتين - الالحادية والعلمانية - حضارتي الغرب والشرق اللتين يمثلها الرأسمالية والاشتراكية والروسية، ويلتقيان من حيث المبدأ في المادية وجعلها أساس الوجود، ورفض الدين، لأن الفرق بينهما كالآتي:

1. إن النظام الرأسمالي ذات مظهر خادع رواغ تغر الناظر السطحي إليها فحسب أنها مذهب في الحياة وللدين فيه مكان مكين ومن تعمق فيه يكتشف أن الخلاف بينهما في أسلوب الدعوة وأنهما يشتركان في المادية، وتتعامل مع الكون والحياة والإنسان من منطلق مادي لا يترك مجالا لمسألة وجود الله وما يتفرع عنها من وحي ونبوة وأديان وشرائع[1]، أما الماركسية الاشتراكية فترفض الدين تماما.

2. إن الماركسية نظام فلسفي يدعي لنفسه الشمول، وينفي كل نظام فكري آخر مغاير له ويدعي بطلانه، ولما كان عقيدة وجود الخالق لهذا الكون خارج عنه بحكم تفسيره المادي فلا بد له أن ينفي العقيدة الدينية وما يتفرع عنها من عقيدة، وأن يبحث عن ثوابت في ثقافة الإنسان وحضارته على مدة التأريخ في تفسير مادي يتفق مع أصوله وقواعده المادية[2].

أما الرأسمالية فليست نظاما فلسفيا، ولكنها قائمة على معطيات فكرية لخليط من الفلسفات أدت جميعها إلى تكوين نظرة مادية إلى الكون والحياة، إلا أن هذا النظام مع ماديته أبقى على الكنيسة بعد أن جردها من سلطانها الزمني تجردا كاملا أو شبه كامل باعتبار الكنيسة مؤسسة تستهوى عقائدها وطقوسها فئة من الناس لا تزال مؤمنة بها، وأن مفكري الرأسمالية، راواان المؤسسة الدينية ليست عديمة الفائدة في شأن تنفيذ الخطط التي وضعتها الدوائر الرأسمالية لاحتلال العالم القديم والجديد في أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية[3].

وإذن فالتفاوت في الموقف من الدين بين الماركسية والرأسمالية ليس ناشئا من خلاف مبدئي حول الدين فكلاهما من هذه الناحية في موقع واحد من الدين، فهما لا يعترفان به، ولا يأخذان بتوجيهه في سياساتهما الداخلية والخارجية ومنهاجهما

---

(1) - مطارحات الفكر المادي، ص: 14.
(2) - المصدر نفسه، ص: 15.
(3) - المصدر نفسه، ص: 15.

الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية، فالتفاوت بينهما بالنسبة إلى الدين هو في الموقف منه من الناحية العملية، فالماركسية تنفيه وتحاربه وتبطل ما عداه من أنظمة ونظريات، أما الرأسمالية فتنفي الدين وتحارب تدخله في شؤون الحياة والسياسة.

## مناقشة المعارضين

**فيما يلي نناقش قضية الماديين الذين لا يؤمنون بغير المادة، والمعارضين لحقيقة الدين:**

1. **قولهم**: أن الحوادث تحدث طبقا لـ (قانون الطبيعة فلا حاجة لأن نفرض لهذه الحوادث إلها مجهولا، قول باطل لا وزن له، لأن الطبيعة حقيقة من حقائق الكون، وليست تفسيرا له، لأن ما قيل ليس بيانا لأسباب وجود الدين، فالدين يبين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور وراء الكون، وإن ما قيل هو الهيكل الظاهر للكون، والعلم الحديث تفصيل لما يحدث، وليس بتفسير لهذا الأمر الواقع. ويقول العالم الأمريكي (سبسيل بابس هامان) البروفسور في البايولوجيا (إن الطبيعة لا تفسر شيئا من الكون، وإنما هي نفسها بحاجة إلى التفسير) [1]، ويضيف قائلا: (كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزاء من البدن، تنسب من قبل إلى الاله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيمياويا، هل أبطل هذا وجود الاله، فما القوة التي أخضعت العناصر الكيمياوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟.. إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي حلق بها الحياة) [2]. ولا شك أن العلم الحديث قد أبان لنا كثيرا من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن الدين جواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشوف العلمية الحديثة، ولا يحل محل الدين، فما الكون على حالة إلا كمثل ماكنة تدور تحت غطائهم، لا نعلم عنها إلا أنها تدور، ولو فتحنا غطائها فسوف نشاهد كيف ترتبط بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها ببعض، فهل يعني هذا أننا قد علمنا خالق

---

[1] - الإسلام يتحدى، ص: 31-32.
[2] - الإسلام يتحدى، ص: 32.

هذه الماكنة بمجرد مشاهداتنا لما يدور داخلها؟ وهل يفهم أن مشاهدتنا هذه أثبت أن الماكنة جاءت من تلقاء نفسها، وتقوم بدورها ذاتيا؟ ولو لم يكن هذا ! الاستدلال منطقيا فيكف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائيا ويتحرك ذاتيا[1].

2. أنهم نظروا إلى حقائق ناقصة وجزئية لا يتصل بعضها بالموضوع واعتقدوا أن الدراسة العلمية الحديثة قد أبطلت الدين، على حين أننا لو نظرنا إلى الواقع جملة وتفصيلا فسوف نصل إلى نتيجة تختلف عن الأولى كل الاختلاف. وتتجلى حقيقة الدين وسفسطة قضية المعارضين حين نطالع صورة الحياة الإنسانية في ضوء الدين، أنها توافق وأفكار الإنسان السامية كما يتوافق الكون المادي مع القوانين الرياضية بعكس تلك الصورة التي يرسمها المعارضون ويقول (برتراند رسل) [2]: (الإنسان وليد عوامل ليست بذات أهداف، وأن بدأه ونشوءه وأمانية كلها جاءت نتيجة ترتيب رياضي اتفاقي في نظام الذرة، والقبر ينهي حياة الإنسان ... وأن المجهودات الطويلة .. سوف تدفن إلى الأبد مع فناء النظام الشمسي، وأن الكفاح الإنساني سوف يدفن حتما مع الأرض تحت أنقاض الكون) [3]. ويكاد أن يكون هذا الاقتباس خلاصة الفكر المادي فالكون في ضوءه يكاد يفقد أهدافه، ولا يبقى غير الظلام الحالك الذي تتلاشى فيه معايير الخير والشر حتى أن إبادة الناس عندهم لا تعد ظلما لأنه سوف يلقون حتفهم، أما الفكر الديني فهو فكر الضوء والأمل، فلكل القيم والأفكار الإنسانية السامية مكان فيه، وإن بعض العلماء بمجرد تصديق القوانين الرياضية لأفكاره يطمئن إلا أنه قد توصل إلى الحقيقة، فإن تصديق العقل الإنساني للفكر الديني دليل، قطعي على أنه الحقيقة التي طالما بحثت عنها الفطرة الإنسانية، وعندئذ لا تجد أساسا واقعيا لإنكار قيمة للفكر الديني.

3. إن الماديين يصفون الدين بالرجعية، غير أن اتهامهم هذا لا يستقيم أمام مناقشة المنصفين، ذلك لأن الإسلام نظام اجتماعي له منهجه في علاج المسائل التي تتصدى للمادية، وهو - الإسلام - يواجه مشكلة الفقر بحلوله المتعددة ولا يقتصر

---

[1] - المصدر نفسه، ص: 33.
[2] - أحد علماء المادية.
[3] - الإنسان يتحدى، ص: 41.

مواجهتها على فرض الزكاة للمستحقين كما يسبق إلى الظن لأول وهلة، وهو ينكر الإسراف والاحتكار والترف ويأبى أن يكون المال (دولة بين الأغنياء) ويأمر المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا وبحثه على دفع المظالم ومنع الشرور، ويعلم المسلم الحرية وبثور على الذلة والاستعباد فلا يتسنى للحاكم الأجنبي أن يخضعه لغير معتقده، أو يسومه الهوان في أمور الدنيا والدين [1] ولهذا يصفونه بالرجعية ليشككوا في نظامه وتشريعاته ويبعدوا الناس عنه.

---

[1] - الفكر المادي وموقف الإسلام منه، ص: 279.

# الفصل السادس

# المقارنة بين الحضارة الحديثة والقرآن الكريم

# المقارنة بين
# الحضارة الحديثة والقرآن الكريم

بعد أن عرض جانب من الحضارة المادية التي تكونت في الشرق والغرب في الفصل الخامس ونود أن نقارن بين المذاهب الوضعية المادية والمثالية التي أعطت تفسيرا عن الكون والحياة والإنسان ونشأ عن هذه المذاهب فروع من الاقتصاد والسياسة. وبين معطيات القرآن الكريم الذي أرشد الناس وألهمهم على أسرار الكون ليقوموا بالكشف عنه بالتجربة والنهج العلمي في البحث، وكون في عقولهم المذهب التجريبي عن طريق الأمر بالبحث والتأمل والنظر في ظواهر الطبيعة وأسرار الإنسان كما ورد في كثير من الآيات الكونية في القرآن الكريم.

إن المذهب المادي في الغرب كان نتيجة للصراع الدائر بين الكنيسة ورجال العلم في أوربا منذ فترة بعيدة مما أودى بحياة كثير من العلماء، ولذلك يدعى هذا المذهب لنفسه أن له فلسفة كونية شاملة تقدم التفسير الصحيح لجميع الظواهر في الطبيعة والمجتمع، ويدعي ثانيا أن نضاله السياسي لم ينشأ من طموحات فردية أو جماعية لأصلة له بالواقع الموضوعي للمجتمع، وإنما هو مبني على المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية.

إلا أن القرآن الكريم يرسم للعلماء قدسية طريق البحث العلمي والتجربة الفكرية الرائدة ولم يحدث في التاريخ الإسلامي أن يضطهد عالم لعلمه أو لاكتشاف من اكتشافاته بل كانت الدولة والمجتمع يتلقيان نتاجهما بالتقدير والإعجاب وينفقون أموالهم من أجل تيسير وسائل البحث العلمي لهم وفيما يلي المقارنة بين المذهب المادي الوضعي والقرآن الكريم.

1. إن الماديين يرون أن الكون حدث نتيجة المصادفة أو التولد الذاتي أو حركة الأضداد في المادة، وليس من صنع اله كما قال لينين بصدد المفهوم المادي: (أن العالم

هو واحد لم يخلقه اله ولا إنسان ...) [1] ويرى بعضهم أن الحياة هبطت من كوكب آخر عن طريق النيازك، ولا يوجد لعقيدة التوحيد موضع في المذهب المادي.

أما القرآن الكريم يرى أن الكون حدث بإرادة الخالق الواحد الأحد حين أراد إيجاده ولا مكان للمصادفة أو التولد الذاتي بين نظامه المدهش الذي لم يكشف عن محتوياته إلى وقتنا الحاضر، وأن الإنسان القاصر لا يمكنه الإحاطة بكمال الله وعظمته، لأن ذلك يفوق مقدرته وقوة إدراكه.

2. إن الماديين يقضون بأن العالم موجود خارج إدراكنا وتصوراتنا، والحقيقة النهائية في الكون هي المادة التجريبية وهي السبب الأعمق للظواهر الكونية، ولا يوجد ورائها شيء آخر يمكن اعتباره سببا لوجود الكون واستمراره، وأما المثاليون فيرون أن الكون موجود في إدراكنا وتصوراتنا وكل الأشياء في الكون لون من ألوان تفكيرنا وتصوراتنا وما لا ندركه فهو غير موجود[2].

أما القرآن الكريم فيتفق معه المادي في وجود الكون خارج إدراكنا غير أنه ليس ذاتي الوجود، بل هو معلول الوجود لمبدأ غير مادي فوق الروح والطبيعة معا، وأن لكل شيء سببا على الإنسان أن يبحث عنه، وكذلك أن جميع الأسباب تتناهى في نهاية الأمر إلى سبب أعلى منها جميعا وهو الله تعالى ولا يقبل وقوف الموجودات عند حد المادة بأي شكل من الأشكال، ويقول تعالى في كتابه الكريم: **(وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً)** [3].

3. يرى الماديون أن العالم الذي تدركه حواسنا والذي ننتمي إليه هو الواقع الوحيد، وأما إدراكنا وفكرنا فهو نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ، فليست المادي من نتاج العقل بل العقل من نتاج المادة الأعلى[4].

أما القرآن الكريم فيصرح بأن العالم المادي ليس الواقع الوحيد ولا عالم العقل واقع وحيد بل كلاهما يشكلان الوجود، وأنهما من صنع الله الذي أتقن كل شيء وما

---

[1] - الشيوعية تناقض الدين، ص: 22.
[2] - مطارحات الفكر المادي، ص: 196.
[3] - سورة الكهف الأية: 84.
[4] - المادية الديالكتيكية، ص: 28.

المادة والعقل إلا آيتان من آياته فليست المادة قادرة على التفكر والتدبر كما يظنه الماديون، ولا العقل وحده قادر على تفسير ظواهر الكون لولا خلق الله فيهما القوة وإعداد المستلزمات من سمع وبصر وقوة مخيلة وحافظة وقابلية التعلم، فالمادة مسخرة للحياة وهي قاصرة وعاجزة عن أن تكون الواقع الوحيد للوجود، وكذلك في أولى مراحله لم يكن قادرا على فهم الأشياء ويعود في أخريات العمر إلى الضعف الذي لا يعلم أشياء بعد أن كان يعرفه من قبل، يقول تعالى: **(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً)**[1].

**(وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً)**[2].

4. يرى الماديون أن الدين (افيون الشعوب) [3] ولا فرق بين دين وآخر سواء أكان سماويا أم وضعيا. لكن القرآن الكريم يجعل دين الإسلام خاتمة الأديان السماوية السابقة مصححه ما حرفه رجاله من قبل، وجعله دين الفطرة والقيم الإنسانية السامية، يتلائم مع جميع الظروف في كل زمان ومكان دون تمييز بين إنسان وأخر، فكلهم مساوون أمام القانون الألهي، وميزان المفاضلة التقوى، يقول تعالى: **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** [4].

5. يرى المذهب المادي أن المادة أزلية وهي أساس الوجود وأن الطبيعة كلها واحدة متماسكة ترتبط فيها الأشياء والحوادث فيما بينهما ارتباطا عضويا ويتعلق أحدهما بالآخر[5].

أما القرآن الكريم فيحكم بأن المادة حادثة مسبوقة بالعدم وأنها من صنع الاله، ذلك لأن المادة لو كانت أزلية لما تغيرت، ونحن نجد بالمشاهدة أن المادة تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة، وتحتوي على المادة والمادة المضادة، وأنها قابلة للفناء والتحول، وكذلك لو كانت المادة أزلية لا تصف بصفة الخالق، فمن العبث أن توصف

---

[1] - سورة النمل الآية: 78.
[2] - سورة الحج الآية: 5.
[3] - الشيوعية تناقض الدين، ص: 20.
[4] - سورة الحجرات الآية: 13.
[5] - المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ص: 16.

المادة العمياء بصفة الخالق وتنسب إليها صفة الخلق والإيجاد، ثم أن العلماء قرروا بأن الطاقة تتلاشى وأنها تظل في أثناء تطورها، في هبوط وانحدار لا في صعود إلى البقاء والقوة، وها هي (الشمس) أم الطاقات كلها قد فقدت الآف المليارات من الأطنان من وزنها، وهي ماضية في هذا الفقد والنقصان، وإذا تنبه العلم إلى أن المادة ليست أكثر من وعاء للطاقة، وإن مال المادة إلى التفكك والانعدام فأين دعوى سرمدية المادة؟ والفعل قاض بأن ما هو محدود وينتهي فلا بد له من بداية يرجع إليه، وإذن فالكون مسبوق بعلم الله أوجده من العدم ويؤول أمره إلى علمه ويفنى.

6. يرى الماديون أن المادة هي الاله وأن الروح والعقل من نتاجه.

أما القرآن الكريم فيقضي بأن المادة والروح والعقل آية من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته، وجعلها مسخرة لخدمة الحياة والبشر ليعبد الله ولا يشرك به شيئا.

7. أن الماديين يرون أن الدين لا يصلح أن يدير شؤون الدولة والحكومة، ولهذا قرروا رفض الدين كما هو الأمر عند الماركسية، وفصله عن الدولة كما هو الأمر في النظام الرأسمالي وتسمى العلمانية.

أما القرآن فيرى أن الدين ضروري للمجتمع الإنساني مهما تقدم به ركب الحضارة من ثقافة وسياسة واجتماع فكلما تقدم العلم ازدادت حاجته إلى الدين لأنه يفسر له قانون الكون وكيفية التعامل مع الفرد والمجتمع، فهو يرفض تكديس الأموال أو التعامل بالربا، ويحرم الغش والخيانة ويسعى إلى توزيع الأموال على المستحقين ويدعو إلى العمل والعبادة والإخلاص في السر والعلانية ورد المظالم وحماية المستضعفين والأطفال والنساء، ويجعل الملك لله والنظام نظامه وعلى الناس تنفيذ، وتطبيقه.

8. أن الحضارة المادية والمثالية يفند أحدهما رأي الآخر حول المادة الأولى للحياة كما بينا في المقارنة بين المادية والمثالية، أما القرآن الكريم فيرى أن المادة والروح كلاهما يكونان شيئا واحدا ليكون آية من آيات الله البينات فليست المادة بدون روح، ولا الروح بدون مادة في عالم المشاهدة.

# الـخـاتـمـة

**فيما يأتي أهم النتائج التي توصلت إليها خلال هذه الدراسة يمكن إجمالها كالآتي:**

1. إن عناصر الكون كانت آلهة لدى أهل الحضارات الأولى، وإن الإنسان فيها يعبد هذه العناصر خوفا منها، وطمعا في خيراتها واعتقدوا أن لها تأثيرا على المخلوقات الأرضية.
2. إن الالهة عندهم خلق الإنسان ليخدمهم ويخفف عنهم التعب ويكون مسكنهم الأرض ومسكن الآلهة السماء.
3. أن الترابط والتماسك بين عناصر السماء والأرض مبنيان على أساس الصراع بين هذه العناصر، وإنها أزلية أبدية.
4. أن خلق الكون أتعب الاله كما ترى التوراة، عندما خلقه في ستة أيام واستراح في اليوم السابع.
5. إن الاله يتخذ من الجبال والضباب والرياح مسكنا له، ويتصف بصفات الإنسان الضعيف كما وصفة التوراة.
6. إن القرآن الكريم صحح هذه المفاهيم الخاطئة وبين أن عناصر الطبيعة آيات دالة على عظمة الخالق جل وعلا، وتربط بين هذه العناصر حبل المودة والمنفعة والإنسجام والألفة، وبين أن القوة المؤثرة والمتصرفة في الكون قدرة الله تعالى الذي لا يؤثر في عظمته شيء، ولا يتعبه شيء من خلقه، قال تعالى: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**)[1].
7. إن مادة السماء والأرض كانتا شيئا واحدا في بدء التكوين ففصل بينهما بانفجار هائل بقدره الله تعالى يقول تعالى: (**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ**

[1] - سورة ق الآية: 38.

**السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا)**[1]، وآثار قدرته واضحة في رفع السماء وقرار الأرض.

8. لا يعرف كيفية خلق السموات والأرض ولا كنه الروح لأن الله تعالى وكل ذلك إلى أمره، ويقول:(**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)**[2]، ويقول: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)** [3].

9. إن خلق السموات والأرض تم في ستة مراحل زمنية طويلة أو فترات زمنية طويلة، وإن الأرض لم تنفصل عن الشمس بل الأرض انفصلت عن السماء، ولها تكوين خاص وللسماء وما فيها من أجرام تكوين خاص.

10. إن السموات سبع سموات بعضها فوق بعض يسبح تحت سماء الدنيا المجرات والكواكب كل في مدارها، والأرض سبع طبقات متلاصقة بعضها ببعض كالبصل.

11. أن السموات مصممة على شكل فلك مستدير مقفل على نفسها لا يمكن للإنس والجن النفوذ من أقطارها إلا بقدرة الله تعالى لا بسلطان العلم.

12. ذكر الله تعالى بعض أجزاء الكون في القرآن الكريم من أجل أن يربط الإنسان بالكون وأن يهتدي إلى غايته في أسفاره وليتعلم عدد السنين والحساب وأوقات العبادات، وليعلم وحده النظام الكوني والتناسق التام بين أجزائه، وأنه خير دليل على وحدانية الله وقدرته في إبداع خلقه.

13. أن هذا الكون مسبوق بالعدم وسينتهي أمره في يوم موعود إلى نهاية محتومة تتفكك أجزاؤه المترابطة، وأن المادة مخلوقة من العدم وتفنى عندما يصطدم أجزاء المادة مع ضد المادة.

14. يرى العلم إلى الآن بعدم وجود حياة كحياة الإنسان على سطح كواكب مجرتنا، وذلك لكثرة الشهب المتطايرة بين الكواكب وانعدام الطبقة

---

[1] - سورة الأنبياء الآية: 30.
[2] - سورة الكهف الآية: 51.
[3] - سورة الإسراء الآية: 85.

الهوائية الكافية للحياة عليها، والواقية من الأجسام الخارجية، ومن الممكن وجودها في المجرات الأخرى البعيدة إلا أنه لم تكشف لنا بعد.

15. خالق الكون في القرآن الكريم واحد حكيم قدير غير مماثل للحوادث يتصف بكل صفات الكمال منزه عن كل نقص.

16. أن القانون الذي نزل به القرآن دائم بدوام الكون صالح لكل زمان ومكان.

17. أن علم الله تعالى محيط بالمستقبل والحاضر والماضي، ويعلم الأشياء ونتائجها مهما دق، وما في الأرحام قبل اختلاط النطفة في الرحم، وما في المحيطات مهما كانت مظلمة، لا يمنحه من معرفته مانع.

18. أن الكون في منظور الحضارة الحديثة نشأ نتيجة الصدفة أو التولد الذاتي، ونشأت الحياة على الأرض نتيجة هبوطها على كواكب أخرى، أو الانتخاب الطبيعي.

19. أن الماديين يقولون أن الكون لم يخلقه اله، وإنما كان على هذا الشكل منذ الأزل ويبقى إلى الأبد.

20. إن الماديين جعلوا المادة أساس كل شيء، وأن الحركة والروح تابع لها، أما المثاليون فقد جعلوا الحركة والفكر أساس المادة، وتداخل الرأيان فيما بعد ونقل الماديون آراء المثاليين بثوب جديد وصياغة جديدة.

21. أن الماديين لا يؤمنون إلا بما يقع تحت إدراكنا وتصوراتنا ولا يؤمنون بعالم ما وراء الطبيعة.

22. ذكر الماديون الماركسيون أن الدين أفيون الشعوب وأنه العائق من تقدم المجتمع دون أن يميزوا بين الأديان الوضعية والأديان السماوية، وبين الدين الإسلامي وفي نهاية المطاف رفضوا الدين تماما.

23. أن الماديين يستغلون الدين ورجاله لتحقيق مأربهم ثم لا يعترفون به.

24. يقتصر مجال عمل الدين على المعابد فقط، ولا يجوز لرجال المعابد ورجال الدين أن يتدخلوا في إدارة الدولة.

25.أن القرآن الكريم نسب قضية الخلق والحياة إلى الله تعالى وهو خالق كل شيء ولم يستقم قانون المصادفة والتولد الذاتي أمام البراهين العلمية، وأن العلم الحديث يؤيد ما جاء في القرآن الكريم، ويفند الآراء والنظريات المخالفة له وسيعلن فيما بعد أن القرآن هو الدستور الوحيد الذي يتطابق مع الحقيقة ولا يتغير بتغير الزمان والمكان، وستنجلي الحقيقة لمن يريد ا لوصول إليها عن طريق الأدلة العلمية.

**وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**

# خلاصة البحث

## عنوان البحث (الكون في القرآن الكريم)

هذه خلاصة لموضوع (الكون في القرآن الكريم) يبين تعامل الإنسان مع ما هو له من مستلزمات حياته، والتعرف على عناصره المنظورة المسخرة بين السماء والأرض الدالة على عظمة الخالق منذ زمن آدم إلى وقتنا الحاضر، وأفلح بعض العلماء الباحثين في توضيح بعض حقائق الكون وأسراره وفشل البعض الآخر، لجنوحهم إلى الخراقات والنظريات الباطلة. فاستعرض الباحث الأفكار السائدة حول الكون ابتداء من الحضارات القديمة إلى وقتنا الحاضر، وقسم الرسالة إلى مقدمة وباب تمهيدي وبابين وخاتمة:

1. بين في المقدمة معنى الكون عند أهل اللغة وأهل الصنعة، والمقصود من الكون ومدى أهمية هذا البحث، وخطة البحث.
2. أوضح في الباب التمهيدي نظرة الإنسان إلى الكون في الحضارات القديمة ابتداء من حضارة مصر وبابل واليونان والفرس، وكذلك من خلال نصوص التوراة، وما ترتب عليها من أفكار، إذ كانوا يقدسون عناصر الكون وجعلوها إلها، وصنعوا له تمثالا منحوتا على شكل إنسان، متيقنا أن هذه العناصر آلة أزلية ذات تأثير على حياة الإنسان والحيوان في الأرض وشرعوا في عبادتها خوفا منها وطمعا في خيراتها، وانتهوا إلى أن الملوك هم نواب الإلهة ينفذون حكمها في الأرض، ويحرم مخالفة أسرهم، وإن الإنسان خلق من دم الإلهة يخدمها، ويخفف عن الاله العناء والتعب وأنزل الله تعالى التوراة فصححت لهم المفاهيم الخاطئة التي سادت حقبا من الزمن، إلا أنها لم تسلم من التحريف والتبديل على أيدي الكهنة الذين تولوا تدوين التوراة بعد ألف سنة من نزولها، ليتلائم مع أفكارهم حول خلق السموات والأرض والاستراحة في اليوم السابع.

3. في الباب الأول أوضح أن القرآن جاء مصححا ومبطلا جميع المعتقدات التي سادت في العصور السابقة لنزوله. ووصف عناصر الكون بأنها آيات مسخرة دالة على عظمة الخالق وحكمته في خلق هذا النظام بين أجزائه، وبين أيضا الغاية التي من أجلها خلق الكون مشيرا إلى مادتيه وأن لم يكن فحدث بإرادة الله تعالى، ويسير إلى نهاية محتومة، وأنه يحتوي على المادة والمادة المضادة، وأن الله تعالى أوجد الحياة على الأرض وفي السموات، وأمر البشر أن يطبق قانونه فيما بينهم، ليتوحد النظام الكوني كله تحت إرادته وأمره.

4. في الباب الثاني تم عرض أفكار الماديين والمثاليين ومناقشتهم الذين ذهبوا إلى أزلية المادة وقدمها، وأنها خلقت نتيجة الصدفة أو عن طريق التولد الذاتي، وأبوا الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون وسنوا قانون فصل الدين عن الدولة، أنه أفيون الشعوب.

5. وفي النتيجة تم بيان أن السماء والأرض كانتا شيئا واحد في بدء التكوين ففصل الله بينهما بانفجار هائل.

6. وأن خلق السموات والأرض تم في ستة مراحل زمنية طويلة، وأن الأرض لم تنفصل عن الشمس بل انفصلت عن السماء ولها تكوين خاص وللسماء وما فيها من أجرام تكون خاص. وأن العلم والدين يخرجان من مشكاة واحد ويوضحان الحقيقة لأهل التحقيق فيما بعد.

# ABSTRACT

This work is about the univers in the holy Quran. It consists of an introduction and three chapters.

The introductions states the purpose for writing the thesis the importance of the subject and the methodology.

Chapter one presents the insight of the ancient civilizations (Egyptian, Babylonian, Greece, Persian, old testament) about the Universe.

Chapter two sketchs the insight of the holy Quran about the universe, and the modern scientific discoveries and facts which are already meutioned in the holy Quran.

Chapter three is about the str cture and the origin of the univers as it is understood now, it concludes that there is no contraclictions between what is mentioned in Quran and science.

The thesis ends with a bibliography.

# المراجع

## أولاً: الكتب:


1. القرآن الكريم.
2. إبليس تأليف عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة، 1958م.
3. الأدب والدين عند قدماء المصريين، تأليف انطون ذكرى، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، مصر، 1923م.
4. أساس البلاغة، تأليف جار الله أبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب، مصر، 1972م.
5. الأساطير السومرية، تأليف صموئيل كريمر، ترجمة يوسف داود عبد القهار، مطبعة المعارف، بغداد، 1971م.
6. أسرار الذرة، تأليف أوميد شمشك، ترجمة اورخان محمد علي، الطبعة الأولى، مطبعة الحوادث، بغداد، 1406هـ - 1986م.
7. الإسلام دين الفطرة، تأليف محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، 1393هـ - 1973م.
8. الإسلام في عصر العلم، تأليف محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر، 1383هـ - 1973م.
9. الإسلام والعلم الحديث، تأليف عبد الرزاق نوفل، الطبعة الأولى، دار المعارف، مصر، 1377هـ - 1958م.
10. الإسلام ومواجهة المذاهب الهدامة، تأليف د. محمد البهي، الطبعة الأولى، دار التضامن للطباعة، القاهرة، 1401هـ - 1981م.
11. الإسلام يتحدى، تأليف وحيد الدين خان، الطبعة الثانية، دار البحوث العلمية إيران، الناشر دار الجليل، 1393هـ - 1973.

12. الإسلام يقينا لا تلقينا، تأليف صابر طعيمة، الطبعة الأولى، دار الجليل، بيروت، 1399هـ - 1979م.
13. أضواء البيان في تفسير القرآن، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقطي، يطلب من عالم الكتب، بيروت.
14. الإعجاز العلمي في الإسلام، القرآن الكريم، تأليف د. محمد كامل عبد الصمد، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1410هـ - 1990م.
15. الإعجاز القرآني، بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود في بغداد سنة 1410هـ - 1990م، مطبعة الأمة بغداد.
16. الإعلام، تأليف خير الدين الزركلي، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م.
17. أفيون الشعوب المذاهب الهدامة، تأليف عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري.
18. الله، تأليف سعيد حوى، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1399هـ - 1979م.
19. الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية، تأليف عباس محمود العقاد، دار المعارف، مصر، 1947م.
20. الله ذاتا وموضوعا، تأليف عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثالثة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1395هـ - 1975م.
21. الله والكون، تأليف محمد جمال الدين الفندي، طبع في الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م.
22. الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه الدكتور محمد جمال الدين الفندي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.
23. الإلوهية وفكر العصر، تأليف حامد عوض الله، المركز الثقافي الجامعي، القاهرة، سلسلة الدراسات العلمية.

24. الإنسان والداروينية، تأليف محمد صالح كريم، مطبعة الجمهور، موصل، 1376هـ - 1976م.
25. الإنسان والكون في الإسلام، تأليف أبو الوفا الغنيمي التفتازافي، دار الثقافة للطباعة والنشر، بغداد، 1975م.
26. الإنجيل/ الكتاب المقدس.
27. الانفجار الكبير، تأليف اوميد شمشك، ترجمة أورخان محمد علي، الطبعة الأولى، مطبعة الشعب، بغداد، 1986م.
28. الآية الكبرى، تأليف سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، مطبعة العاني، بغداد، 1403هـ - 1983م.
29. بدائع السماء رحلة مع العلم في رحاب الكون، تأليف جيرالد هوكنز، ترجمة د. عبد الرحيم بدر، مراجعة د. فؤاد صروف، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت، 1967م.
30. بداية الكون من الأفلاك إلى البشر، تأليف جون فليفر، ترجمة د. محمد الشحات، الناشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة.
31. بذل المجهود في حل أبي داود، تأليف العلامة الشيخ خليل أحمد السهار، نفورى، (ت 1346هـ).
32. برهان تاريخية، تأليف عدنان ذريل، دمش، 1973م.
33. بصائر جغرافية، تأليف رشيد رشدي العامري، بغداد، 1951م.
34. تاج العروس، تأليف محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1386هـ - 1966م.
35. تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، تأليف د. سعدون محمود الساموك، الطبعة الأولى، مديرية دار الكتب للطباعة و النشر، جامعة الموصل، 1988م.
36. تاريخ الفكر الفلسفي للفلسفة اليونانية، تأليف محمد علي أبو ريان، الطبعة الخامسة، دار الجامعة المصرية، 1947م.
37. تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، تأليف حنا أسعد فهمي، المطبعة اليوسفية، مصر.

38. تحفة المريد على جوهرة التوحيد، البرهان الدين إبراهيم اللقاني المتوفى سنة 1401هـ، تأليف إبراهيم بن محمد أحمد الشافعي الباجورى، المتوفى سنة 1277هـ.

39. التعمير الفني في القرآن الكريم، تأليف الشيخ محمد أمين البكرى، دار الشروق، 1972م.

40. التعريفات، تأليف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بـ (سيد شريف) المتوفى سنة 816هـ، مطبعة أحمد كمال، استانبول، 1327هـ.

41. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تأليف إسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة 774هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1402هـ - 1982م.

42. تفسير البيضاوي، تأليف ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المتوفى سنة 791هـ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ -1988م.

43. تفسير الرازي، تأليف الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة 606هـ، الطبعة الثانية، الناشر دار الكتب العلمية، طهران.(ص 191 غير موجودة

44. التكامل في الإسلام، تأليف أحمد أمين، الطبعة الثالثة، 1383هـ، دار النعمان للطبع والنشر.

45. التوراة بين الوثنية والتوحيد، تأليف سهيل أديب، الطبعة الأولى، دار النقاش، بيروت، 1401هـ - 1981م.

46. التوراة/ الكتاب المقدس.

47. حضارة بابل وآشور، تأليف د. غوستاف لوبون، ترجمة محمود خيرت، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية، 1947م.

48. الحضارة القديمة، تأليف أحمد كمال، مكتبة المجلة، القاهرة.

49. الحضارة المصرية، تأليف جون ولسون، ترجمة أحمد فخري، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1955م.

50. حضارة مصر والشرق القديم، تأليف د. أحمد زرقانة وآخرون، يطلب من دار المصر للطباعة.

51. خصائص التصور الإسلامي، تأليف سيد قطب المتوفى سنة 1967م، الطبعة الثالثة، سنة 1388هـ - 1968م.

52. دارون ونظرية التطور، تأليف شمس الدين آق بلوت، ترجمة أورخان محمد علي، مطبعة الزهراء الحديثة، موصل، 1404هـ - 1984م.
53. دراسات إسلامية معاصرة، تأليف أنور الجندي، الطبعة الأولى، من منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1403هـ - 1982م.
54. الديانة الفرعونية، أفكار المصريين القدماء عن الحياة الأخرى، تأليف السير ولسن برج، ترجمة يوسف سامي، الطبعة الأولى، دار منارات، عمان، 1985م.
55. ديانة قدماء المصريين، تأليف استتدروق الألماني، تعريب سليم حسن، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، مصر، 1923م.
56. ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها تأليف أدولف أرمان، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.
57. رواد المثالية في الفلسفة الغربية، تأليف عثمان أمين، دار المعارف، مصر، 1967م.
58. السماء وأهل السماء، تأليف عبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت، 1394هـ - 1974م.
59. سنريهم آياتنا، تأليف د. أحمد شوقي إبراهيم، مؤسسة الطبع للنشر والتوزيع مكتبة الصباح، الكويت.
60. شرح العقائد النسفية، تأليف العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ت سنة 891هـ، طبع في مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأخويه، مصر.
61. شهادة الكون، تأليف عبد الودود رشيد محمد، تقديم د. حميد مجول النعيمي، الطبعة الأولى، طبع في شركة السرمد للطباعة، المحدودة، بغداد، 1410هـ - 1990م.
62. الشيوعية تناقض الدين، تأليف محمد الموسوي النورى، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان، نجف، 1379هـ.
63. الشيوعية والإنسانية، تأليف عباس محمود العقاد، دار الفتوح للطباعة، القاهرة، 1956م.
64. صورة الكون، تأليف مطلب محمد عبد المطلب، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1979م.

65. الطب محراب الإيمان، تأليف خالص جلبي كنجو، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1397هـ - 1977.

66. الطبيعة في القرآن الكريم، تأليف د. ياسر كاصد الزبيدي، من منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980م.

67. الظاهرة القرآنية تأليف، مالك بني نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، لبنان.

68. الظاهرة القرآنية والعقل، تأليف علاء الدين المدرس، الطبعة الأولى، مطبعة العاني، بغداد، 1986م.

69. الظواهر الجغرافية، تأليف د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، سلسلة العلم والإيمان، دار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1405هـ - 1985م.

70. العلمانية والدولة الدينية، تأليف شبلي العيسمي، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.

71. العلم الحديث حجة للإنسان أم عليه، تأليف د. عبد الله عبد الرحيم العباوى، الطبعة الأولى، دار الثقافة، مصر، 1405هـ - 1985م.

72. عالم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى، تأليف السنبوكرلو نلينو، طبع سنة 1911م، بمدينة روما.

73. العلم يدعو للإيمان، تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، الطبعة الخامسة، مؤسسة فراكلين للطباعة والنشر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965م.

74. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي حجر العسقلاني، 773-852هـ، مكتبة الرياض الحديثة البطحاء، الرياض.

75. فتح القدير، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفى سنة 1250هـ، الناشر محفوظ العلي، بيروت.

76. فكرة الإلوهية عند أفلاطون، تأليف مصطفى حسن النشار، الطبعة الأولى، الناشر دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1984م.

77. الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه، تأليف د. محمود عثمان، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977م.

78. فلاسفة أو ربيون من ديكارت إلى برجسون، تأليف د. موسى الموسوي، الطبعة الأولى، دار المسيرة، 1400هـ - 1980م.

79. الفلسفة الحديثة، تأليف د. محمد علي أبو ريان، الطبعة الأولى، دار الكتب، الجامعة، 1969م.

80. الفلسفة الإغريقية، تأليف محمد غلاب، الطبعة الثانية، مطبعة جنة البيان العربي، مصر.

81. الفلسفة اليونانية في عصورها الأولى، تأليف متى كريم، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1965م.

82. في سنن الله الكونية، تأليف محمد أحمد الغمراوي، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1355هـ - 1936، مصر.

83. في ظلال القرآن، سيد قطب المتوفى سنة 1967، الطبعة السابعة، دار الشرق بيروت، 1398هـ - 1978م.

84. القاموس الجديد للطلاب، تأليف علي بن هادية، الطبعة الرابعة، الشركة التونسية للتوزيع، 1983م.

85. القاموس المحيط، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، دار الجليل، بيروت.

86. القانون الحيوي للكون، دحض وبديل للمادية الديالكتيكية والقنونة المثالية، تأليف رائق علي النقرى، دار الأنوار للطباعة، دمشق، 1975م.

87. قصة الإيمان، تأليف نديم الجسر، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة منير بالأوفسيت، بغداد.

88. قصة الحضارة، تأليف ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثالثة، 1974، مطابع الرجوى، القاهرة.

89. قصة الحضارة الفارسية، تأليف ول ديورانت، ترجمة د. إبراهيم أمين الشورابي، طبع سنة 1947م، مطبعة السعادة، مصر.

90. قصة الفلسفة اليونانية، تأليف أحمد أمين، و زكي نجيب محمود، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، 1935م.
91. قضية الخلق بين الماديين والمثاليين، تأليف عبد الرسول مهدي عبرة، الطبعة الأولى، مطبعة حسام، بغداد، 1979م.
92. كبرى اليقينات الكونية، تأليف محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الخامسة، دار الفكر ببيروت، 1397هـ.
93. كتاب الأزمنة والأنواء، تأليف أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن الاجدابي، المتوفى سنة 650هـ، حققه د. عزة حسن.
94. كتاب الوجود، تأليف أبو ألفين المتوفي، طبع في مطبعة حجازي، القاهرة، 1366هـ - 1947م.
95. الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، تأليف موريس بوكاي، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ج.م.ع.
96. الكون ذرة وحركة، سيد رمضان هدارة، دار القلم.
97. الكون العجيب، تأليف قدري حافظ طوقان، دار المعارف، القاهرة، 1943م.
98. الكون العميق، تأليف د. علي الأمير، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986م.
99. الكون الغامض، سير جيمس جينز، ترجمة عبد الحميد حميد مرسي، الطبعة الثانية، مطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، 1942م.
100. الكون والإعجاز العلمي للقرآن، تأليف د. منصور حسب النبي، دار الفكر العربي، مصر، شركة دار الصفا، 1981م.
101. الكون والمصادفة، تأليف فرحان البغدادي، مطبعة الجامعة، بغداد، 1978م.
102. لسان العرب، تأليف العلامة ابن منظور الإفريقي المصري، دار بيروت للطباعة والنشر، 1375هـ - 1956م.
103. لود فيج فيورباخ، ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، تأليف فردريك انجلز، ترجمة جورج استور، منشورات دار الفكر الجديد.

104. المادة بين الأزلية والحدوث، تأليف الشيخ محمد حسن آل ياسين، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، بغداد، 1394هـ - 1974م.

105. المادية الديالتيكية والمادية التاريخية، تأليف ستالين، ترجمة خالد بكداش، الطبعة الثانية، دار البديع، 1959م.

106. المادية الديالكتيكية، جماعة من كتاب السوفيت، ترجمة فؤاد مرعي، دار إصدار الجماهير، دمشق.

107. المادية والمثالية، تأليف مهدي الحافظ، طبع سنة، 1974، بغداد.

108. المادية والمذهب التجريبي النقدي، تأليف لينين فلادمير، ترجمة فؤاد أيوب، طبعة ثانية، دمشق، دار دمشق، 1975م.

109. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، تأليف أبو الحسن ا لندوي، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني، القاهرة، 1959م.

110. ماركس والخلق، دراسة تحليلية للفكر الماركسي، تأليف طلال جرجيس، دار الصراع الفكري، بيروت، لبنان، 1957م.

111. ما قبل الفلسفة، تأليف فرانكفورت، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، يطلب من مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، دار مكتبة الحياة، بغداد، 1960م.

112. المثالية الألمانية، تأليف عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، 1965م.

113. مجمع الأشتات، تأليف د. عبد الله مصطفى النقشبندي، الطبعة الأولى، مطابع التعليم العالي، بغداد، 1410هـ - 1989م.

114. محيط المحيط، تأليف بطرس البستاني، طبع سنة 1977م، مكتبة لبنان.

115. مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر الرازي المتوفي في سنة 666هـ، دار الرسالة، الكويت، 1403هـ - 1983م.

116. مطارحات في الفكر المادي والفكر الديني، محمد مهدي شمس الدين، دار التعاريف للمطبوعات، بيروت، لبنان، طبع سنة 1398هـ - 1978م.

117. معجزة القرآن، تأليف محمد متولي الشعراوي، طبع الدار العربية بغداد، المكتبة الشرقية.

118. معجم الوسيط تأليف إبراهيم مصطفى و أحمد حسن الزيات مطبعة مصور، 1381هـ - 1961م.
119. مقارنات الأديان، الديانات القديمة، تأليف محمد أبو زعرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1977م.
120. الملل والنحل، تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الشهرستاني، 479هـ - 548هـ، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1395هـ - 1975م.
121. من الواح سومر، تأليف صموئيل كريمر، ترجمة يوسف عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد، 1971م.
122. من ألواح سومر إلى التوراة، تأليف د. فاضل عبد الواحد، الطبعة الأولى، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1989م.
123. المنهج الإيماني للدراسات الكونية، تأليف عبد العليم عبد الرحمن خضر، الطبعة الثانية، سلسلة العلم والقرآن (2)، دار السعودية، للنشر والتوزيع، 1406هـ - 1985م.
124. النجوم، تأليف أن ترى هوايت، ترجمة إسماعيل حقي، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر.
125. النجوم والناس والذرة، هاينز هابر، ترجمة عبد عبد العزيز عثمان، دار الجليل للطباعة، الجمهورية العربية المتحدة.
126. نظام الإسلام العقيدة والعيادة، تأليف محمد المبارك الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، 1388هـ - 1968م.
127. نظام الحكم في الإسلام، تأليف د. محمد عبد الله العربي، دار الفكر، بيروت.
128. نقض الاشتراكية، تأليف غانم عبدة، طبع سنة 1383هـ - 1963م.
129. نقض أوهام المادية الجدلية، تأليف محمد سعيد رمضان البوطي. الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، 1399هـ - 1979م.
130. اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، تأليف د. غوستان لوبون، مطبعة حجازي بالقاهرة، 1950م، ترجمة عادل زعتر.

## ثانياً: المجلات:


1. مجلة سومر، المجلد الخامس، ج 1، 1949، بغداد.
2. مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالإحساء، العدد الثالث، السنة الثالثة، 1403 - 1404هـ.
3. مجلة عالم الفكر، الكويت، سبتمبر، 1977م.
4. مجلة هدى الإسلامي الأردني، السنة السابعة، العدد الأول، المجلد السابع، محرم 1382هـ، حزيران 1962م.
5. مجلة هدى الإسلامي، تصدر في جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية بالمملكة الليبية، السنة السابعة، العدد الثاني، يونيو 1968م.